١٧ رمضان

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

وتتضمن مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج

وتتمة الفتنة واستئثار بني أمية بالخلافة

وخروجها من اهل البيت

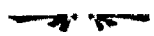

تأليف

جرجي زيدان

مفتش الهلال

« الطبعة السادسة »

مقدمة الطبعة الاولى

فرغنا والحمد لله من الحلقة الرابعة لسلسلة روايات الاسلام وفيها تفصيل خبر المؤامرة المشهورة على قتل الثلاثة العظام الامام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في السنة الاربعين للهجرة وتفصيل مقتل الامام علي مع ما رافق ذلك من الحوادث التي تبين حال الخوارج وانقسام العالم الاسلامي واشتداد الفتن الى تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية

وسنتبع رواية « ١٧ رمضان » هذه برواية أخرى هي الحلقة الخامسة من السلسلة المذكورة نبسط فيها مقتل الامام الحسين وما يتقدمه ويتبعه من الفتن والحروب وسندعوها « غادة كربلاء » نسبة الى المكان الذي قتل فيه الحسين . وننشرها ملحقة بالسنة التاسعة من الهلال . ونسأل الله أن يوفقنا الى اتمام هذه الخدمة وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الاول

الخوارج

الخوارج جماعة من رجال الامام علي نقموا عليه لانه قبل التحكيم على أثر واقعة صفين (راجع عذراء قريش) وكانوا قبل ذلك في مقدمة الذين حرضوه على قبوله . لكنهم لما رأوا التحكيم آل الى الحكم بخروج الخلافة منه الى معاوية بن أبي سفيان نقضوا بيعته ونبذوا طاعته وطمعوا في السلطنة لانفسهم فبايعوا واحداً منهم اسمه عبد الله بن وهب حاربوا تحت رايته زمناً

ولما صدر حكم الحكمين بخلع علي وتثبيت معاوية اشتد ازر معاوية وبويع بالخلافة في الشام . وكان الخوارج لا يزالون في بدء امرهم فأخذ علي يتجهز لحرب معاوية . وفيما هو يتجهز جاءه الخبر بتألب الخوارج وتمردهم فنصح لهم وجادلهم وبين لهم أنه لم يخطىء بقبول التحكيم وانه لم يقبله الا اجابة لطلبهم فلم يرتدعوا . فرأى ان يستأصل شأفتهم قبل خروجه الى معاوية فحاربهم في مواقع عديدة اشهرها واقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من مكان بغداد انتصر فيها عليهم نصراً مبيناً وشتت شملهم تشتيتاً ولكنهم ما زالوا يجتمعون سراً

وفي سنة ٣٨ هـ فتح عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن أبي بكر عاملها وتولاها باسم معاوية فاصبح معاوية خليفة مصر والشام ومقامه دمشق وبقي علي في العراق والجزيرة والحجاز واليمن ومقامه الكوفة

وأخذ معاوية يبعث سراياه الى بلاد الامام علي يلتمس افتتاحها للاستقلال بالخلافة . فأنفذ جنداً الى مكة وآخر الى اليمن وآخر الى الجزيرة يحاربون ويناوئون ولكنهم لم يبلغوا اربا . فدخلت سنة اربعين للهجرة وعلي يتأهب للخروج على معاوية وقد بايعه اربعون الفاً من عسكره على الموت . وفيما هو في ذلك فاجأه القدر فمات مقتولا كما سترى تفصيل ذلك في ما يلي

الفصل الثانى

الكوفة عاصمة الامام علي

هي مدينة اسلامية مصّرها سعد بن أبي وقاص احد كبار الصحابة في السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد ان فتح العراق وقد اشار عليه عمر ان يقيم في مكان لا يحول بينه وبين المدينة بحر ولا جسر حتى اذا اراد ان يقدم اليه على راحلته قدم [١] فبنى الكوفة في غربي الفرات على شاطىء بحيرة كانت هناك بقرب مكان الحيرة بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلا

وكان بناؤها في أول امرها بالقصب فأصابها حريق فاستأذنوا الخليفة عمر في بنائها باللبن فقال « افعلوا ولا يزيدن احدكم على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنّة يلزمكم الدولة » ففعلوا ذلك وجعلوا طرقها نوعين المناهج والازقة وجعلوا عرض المنهج عشرين ذراعاً وعرض الزقاق سبعة اذرع . وما بين المناهج اماكن البناء اربعون ذراعاً والقطائع ستون ذراعاً . واول شيء خطوه فيها المسجد . فوقف في وسط المدينة رجل شديد النزع رمى الى كل جهة بسهم وامروا ان يبني ما وراء ذلك . واما الساحة حول ذلك الرامي الى مرمى سهامه فتبقى للمسجد

وبنوا في مقدمة المسجد ظلة أو رواقاً اقاموه على اساطين رخام من بناء الاكاسرة نقلوها من اخربة الحيرة . وجعلوا على الصحن خندقاً لئلا يقتحمه احد ببنيان وبنوا لسعد ابن أبي وقاص قصراً بجانب المسجد نقلوا حجارته من آجر بنيان الاكاسرة وسموه قصر سعد [١]

وما زالت الكوفة تعمر حتى اتخذها الامام علي مقراً له بعد واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ فازدادت عمارتها بما تقاطر اليها من الناس بعد ان صارت

(١) ابن الاثير ج ٣

عاصمة الخلافة وتكاثرت فيها الابنية وعمرت الاسواق وأنشئت حولها الحدائق والبساتين مما يلي بحيرانها

الفصل الثالث

غادة الكوفة

وكان في ضاحية الكوفة على شاطىء البحيرة حديقة من نخيل حولها سور من جذوع النخل يحيط بالحديقة الا من جهة البحيرة . وفي وسط الحديقة بيت مبني من اللبن يدلّ شكله على أن سكانه من أهل اليسار وقد يخيل لك اذا دخلت الحديقة انها مسكن بعض الامراء ذوي الحدم والحشم لما تراه بين نخيله من آثار المعالف والاوتاد والسلاسل والقيود . وترى جذوع بعض النخيل قد تأكلت من شد الامراس اليها على توالي الايام أو من تعهد الافراس تقشيرها وهي مشدودة اليها

وكان الوقت ليلا في أوائل السنة الاربعين للهجرة في زمن الخريف[1] وقد نضج الثمر على نخله وليس من يقطفه فتساقط بعضه على الارض وليس من يلتقطه . وكان القمر بدراً وقد أطل من وراء الآكام فأرسل ظلال النخيل مستطيلة متقاطعة . والجو هادىء والسكوت سائد لبعد المكان عن المدينة وضوضائها فلا تسمع غير نقيق الضفادع على شاطىء تلك البحيرة يتخلله صرير الصراصير وقرقرة القر . وربما هبّ النسيم فأسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع . ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراه من آثار الانس ودلائل الابهة

ولو دخلت المنزل لرأيته عبارة عن دار وثلاث غرف مستطرقة بعضها الى بعض مفروشة ارضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز الا غرفة في ارضها طنفسة جميلة عليها وسائد من الخز . وفي بعض جوانب الغرفة مصباح ضعيف النور . وعلى احدى تلك الوسائد فتاة في مقتبل

(١) التقويم العام

العمر أشرق وجهها بماء الشباب . وقد حلت شعرها الاسود فأرسلته على كتفيها فحجب بعض جبينها وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنه زادعينيها كحلاً وانشراقاً . ترى تينك العينين الدعجاوين البراقتين قد غشيهما الدمع واخذ ينحدر على وجنتين محمرتين بينهما أنف دقيق مستقيم تحته فم صغير . فاذا زاد انسكاب الدمع استلقته بأطراف جدائلها أو بأحد كميها . وكانت لابسة جلباباً أسود حداداً على فقيديها . ولم يزدها ذلك الحداد الا جمالا وفتنة . وكأن تلك العادة استأنست بوحدتها فأطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا عدو فأخذت تلطم خديها وتندب فقيدين عزيزين قتلا في يوم واحد

تلك هي قطام بنت شحنة بن عدي [1] من قبيلة تيم الرباب . تلك هي فتاة الكوفة الفتانة التي ذاع صيتها فى الآفاق وسمع بجمالها القاصي والدانى حتى اصبحت فتنة الكوفيين ومضرب أمثالهم . وقد شخصت اليها الابصار وحامت حولها القلوب فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هماً ولم تذق غماً حتى بليت بقتل والدها وأخيها معاً

قتل والدها وأخوها في واقعة النهروان [2] وكانا من جملة الخوارج الذين نقموا على علي لقبوله بالتحكيم فانضموا الى من نقض بيعته وحاربوا في جملة من حاربه

وكانت قطام ثابتة الجأش شديدة الانتقام ذات حيلة ودهاء ما انفكت منذ قتل والدها وأخوها وهي تندبهما وتلتمس الانتقام لهما ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقر الامام علي ومجتمع أنصاره وشيعته . فأقامت في منزلها هذا في ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل ربي في اهلها منذ صباه . فلما بليت بمصيبتها هجرها سائر الخدم والاعوان الا هذا وكانت ترتاح الى بث شكواها له وهو يخفف عنها ويعدها بنيل المرام

وكانت قد أنفذته في أصيل ذلك اليوم يستقدم لها عجوزاً من مولدات

(١) الحميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ١

الكوفة كانت قد ربيت بين ذراعيها منذ نعومة أظفارها وهي تحن اليها حنين الوالدة . فطال غيابه وسدل الليل نقابه ولم يعد . فانشغل خاطرها وشغلت عن احزانها بالهواجس لانفرادها في ذلك المكان . ولكنها كانت اذا سكنت هنيهة تذكرت والدها وأخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود الى البكاء والنحيب

الفصل الرابع

العجوز لبابة

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام مسرعة عرفت انها خطوات عبدها ريحان فأجفلت ولكنها استأنست به فوقفت واسرعت لاستقباله . وكان ريحان طويل القامة شديد السواد خفيف العضل سريع الحركة جاحظ العينين أفطس الانف عظيم الوجنتين بارز الاسنان ويزيدها بروزاً تدلي شفته السفلى وانحسار شفته العليا . وكان يستهلك في خدمة سيدته فابتدرها بالسلام . فقالت « وما الذي أخرك يا ريحان وأنت تعلم اني وحيدة هنا . أين هي لبابة ؟ »

قال « انها قادمة سريعاً »

قالت « وما سبب غيابك حتى الآن »

قال « كنت في انتظارها وهي تخاطب شاباً وتجادله ... »

قالت « وأي شاب »

قال « لا أدري . . ها قد أتت وهي تقص عليك الخبر مفصلا »

وما أتم كلامه حتى دخلت العجوز تتوكا على عكازها وقد احدودب ظهرها وأخذها الكبر فزادها قصراً ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب وكانت عمصاء العينين غائرة الفم لخلو فكيها من الاسنان مجعدة الخدين غائرتهما . فتقدمت الى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب اسود

يكاد يجر وراءها لطوله وقصرها . وحالما دنت منها قبلتها وأخذت تخفف عنها وتقول « لا بأس عليك يا ابنتي اعذريني لابطائي في الحضور »

فلم تزدد الفتاة الا بكاء وهي تقول « ما الذي يشغلك عني ياخالة وأنت تعلمين ان ليس لي معزٍ في احزاني سواك »

قالت « هوني عليك يا قطام واستريحي فقد جئتك بالفرج باذن الله »

قالت «من أين يأتيني الفرج ولا يفرج كربتي الا الانتقام .. الانتقام»

قالت ذلك وحرقت بأسنانها وهي تتشاغل بجمع شعرها وارساله الى وراء ظهرها . ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وارسلته الى كتفها فبانت اساورها ودمالجها حول معصمها الممتلىء ونظرت الى العجوز كأنها تسألها الايضاح

فضحكت العجوز وهي تنظر اليها وكأنها تذكرت أمراً محزناً فقطعت ضحكتها بغتة

فاستاءت قطام من ضحكها وهي تبكي وقالت « ما بالك تضحكين أالعلك تهزأين بكلامي . اني والله غير قانعة بغير الانتقام »

فأمسكتها العجوز بيدها وأقعدتها على الوسادة وجلست الى جانبها ونظرت الى ريحان نظرة فهم منها انها تلتمس خروجه لتخلو بقطام . فخرج فلبثت قطام ثابتة تنتظر ما تقوله العجوز . فاذا هي قد تنحنحت كأنها تتهيأ لحديث طويل ثم قالت « وماذا تريدين الآن يا قطام ؟ »

قالت « أريد الانتقام لوالدي وأخي فقد قتلهما علي ظلماً ولا بد من الانتقام »

قالت العجوز « ما قولك اذا دبرت لك من ينتقم عنك ؟ »

قالت « ومن ينتقم . قولي . . »

قالت « طولي بالك ولا تكوني لجوجة ... أتعرفين سعيداً »

قالت « وأي سعيد »

قالت « سعيد الاموي الشاب الجميل الذي يحبك ويهواك »

قالت « دعينا من الحب والغرام وحدثيني عن الانتقام »

قالت « يا سبحان الله أجيبي على سؤالي . هل تعرفين هذا الشاب فانه مغرم بك مفتون بسواد عينيك »

قالت « نعم اعرفه وما تفيدني معرفته . بالله عليك لا تذكري الغرام الآن . انى لا اشعر بعاطفة الحب ولا يهمني احبنى الناس أو ابغضوني »

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت « يا للعجب ما اكثر لجاجتك ... قلت انك تعرفين سعيداً فهل تحبينه ؟ »

فأجابت على الفور « لا لا .. لا احبه ولا احب سواه . ان قلبي لايشتغل اليوم إلا بالبغض . اني ابغض بعض الناس ولا أحب احداً »

قالت « ولكن اذا كان لا بد من الانتقام فيجب ان تحبي سعيداً »

قالت « كيف احبه وقلبي لم يبق فيه مكان لغير البغض والحقد اني حاقدة ناقمة »

قالت « أنا اعلم ذلك ولكن أحبي سعيداً ولو موقتاً وهو ينتقم لك »

فبغتت قطام ونظرت الى العجوز وجعلت تتفرس في سحنتها لتتحقق انها تتكلم الجد . فلما آنست الجد في لهجتها قالت « وهل تقولين حقاً هل يقدر هذا الرجل على ركوب هذا المركب الخشن . . »

قالت « اني اجعله يركبه فاذا لم يكن اهلا له فهو ليس اهلا لحبك . . ما رأيك »

فصمتت هنيهة ثم قالت « أأحبه . نعم احبه ولو الى اجل قريب . . ولكنني لا اظنه اهلا لهذا العمل بل لا احسبه يقدم عليه . ولكن قولي لى ألعلك تتكلمين من عند نفسك ام انت على يقين مما تقولينه »

فاعتدلت تلك العجوز المحتالة في مجلسها ونظرت الى قطام نظر الاهتمام وقالت « اعلمي يا حبيبتي ان سعيداً هذا قد علق بك وأحبك منذ اعوام ولكنه لم يكن يجسر على مخاطبة المرحوم والدك بشأنك لان والدك كان يومئذ في جملة القائمين بنصرة علي . وسعيد كما تعلمين أمويٌ . اى انه ممن نقموا على علي وقاموا للمطالبة بدم عثمان . فكان يعلم انه اذا طلبك من والدك يومئذ لا ينال غير الفشل . اما بعد ان خرج والدك رحمه الله من

طاعة علي في جملة من خرج بعد التحكيم حدثته نفسه ان يطلبك فخاطبني في شأنك مراراً . ولكن والدك كان مشغولا بمحاربة علي وشيعته فلم أتمكن من التوسط له . فلما علم بمقتله ومقتل اخيك . وأسفاه عليهما (وتنهدت وهي تتظاهر بمسح دموعها) عاد الى مخاطبتي في ذلك . وقد كنت ادافعه لعلمي بحزنك الشديد وهو مع ذلك ما زال يتردد علي ويستنهضني ويبذل كل مرتخص وغال في سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل . فجاءني اليوم وأعاد الكرة وبالغ في التذلل والاستعطاف فلمحت له انه اذا اصر على نيلك لا بد له من الانتقام لوالدك . فآنست منه ارتياحاً فاطلت الكلام معه وريحان في انتظاري خارجاً وهذا هو سبب تغيبي عنك . فما قولك ؟ »

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت « وهل تظنين انه يعدني وعداً شافياً بالانتقام . هل يتعهد لي بقتل علي بن أبي طالب . اني لا أقبل باقل من ذلك »

قالت « اظنه يقبل ومع ذلك فاني استقدمه اليك ونظراً لما أعهده من مهارتك في اساليب السياسة لا اشك في انه يتعهد لك بكل ما تريدينه وخصوصاً اذا أظهرت له ميلا وقلت له انك تحبينه وتفننت في طرق الدلال والتمنع واشترطت عليه انك لا تتزوجين الا بعد قتل علي . فاذا عاهدك صبرت حتى يقتله فاذا لم يفعل وأصاب حتفه كان دمه على رأسه والسلام .. إيه ؟ »

فاشرق وجه قطام وأحست بارتياح الى هذا الرأي وقالت « لا ريب عندي اني احمله على التعهد ... فاستقدميه لنرى ما يكون . ولكن قولي له انى لم اقبل بعد وبالغي بتمنعي وإبائي وأنا أتمم الحيلة »

فضحكت العجوز ضحكة طويلة وقالت سامحك الله يا قطام ألا تزالين تحسبيني فتاة مثلك وهل تجهلين أين قضيت هذه الشيبة . . ألا تعلمين اني قضيت عمري في مثل هذه الحوادث . فكم ازوجت من الرجال وكم اقنعت من النساء في الزواج بعد ان كان قبولهن ضرباً من المحال . . . لا تخافي علي . . ولا أنا أخاف عليك » قالت ذلك ونادت ريحان فاسرع

اليها . فقالت له « هل تعرف الشاب الذي كان عندي الليلة »

قال « نعم أعرفه »

قالت « سر اليه انه لا يزال في المنزل حيث رأيتنا الليلة وقل له ان خالتك لبابة تدعوك اليها »

قال « واذا أبى الحضور ماذا أقول له »

قالت « لا أخاله الا سابقك في الطريق اذهب وادعه الى حالا »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج

الفصل الخامس

سعيد

وكان سعيد شاباً أموياً في حوالى الثلاثين من عمره توفي والده وهو طفل فكفله جده وقضى صباه وشبابه مع جده في منزل الخليفة عثمان وكانا شديدي التعلق به . فلما قتل عثمان كان سعيد وجده في مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمه . فلما كانت واقعة الجمل بجوار البصرة كان هو في جملة رجال أم المؤمنين وظل جده مقيما في مكة لشيخوخته . ولما فشل جند أم المؤمنين وعادت هي الى مكة عاد هو معها وظل عند جده ولم يخرج لواقعة صفين

ولكنه كان يتردد الى الكوفة وكان يسمع بقطام هذه وجمالها وقد رآها مراراً تحت الخمار فوقعت من نفسه موقعاً عظيما ولكنه لم يجسر على خطبتها لان والدها كان قبل تحكيم الحكمين من شيعة الامام علي فكيف يزوج ابنته لاموي يطالب بدم عثمان . فلما خرج الخوارج عن طاعة الامام علي بعد التحكيم استبشر بنيل مرامه على انه لم يتمكن من السعي في طلبها الا بعد مقتل والدها وأخيها . فجاء لبابة العجوز كما تقدم فاستخدمت هذه العجوز كل دهائها في اغرائه على قتل علي وتركت بقية الحيلة لقطام لعلمها انها لا تقل عنها دهاء ومكراً

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار وخصوصاً في ما يتعلق بدهاء

أولئك العجائز . وكان جميل الصورة معجباً بجماله وكان الحب قد أعمى بصيرته فلم يعد يرى غير قطام ولم يحلم الا بالحصول عليها وهو لا يصدق انها ترضى به. فلما جاء العجوز في تلك الليلة وخاطبها بشأنها واظهرت ما اظهرته من التمنع ازداد رغبة فيها وبذل كل مافي وسعه من الوعود في سبيل ارضائها وبذل للعجوز كل ما يرضيها من المال والحلي فوعدته ان تسعى في ترغيبها ومضت وتركته يتقلب على جمر الانتظار

فلما جاءه العبد يستدعيه اليها خفق قلبه وهرول مسرعاً وهو يتعثر باذياله فمر في أسواق الكوفة وهو لا يرى شيئاً من الاسواق ولا ناسها لانشغال باله بما سيلاقيه من البغتة عند اجتماعه بقطام مني قلبه وغاية مرامه فكان اذا تصور رضاءها أشرق وجهه وكاد يطير فرحاً . فيعترض تصوره ما آنسه من التمنع عند مخاطبته العجوز وما بدر منه من الوعد بالانتقام فتنقبض نفسه ويطرب لهول ذلك العمل . ولكن هيامه كان يهون عليه كل عسير ويصور المحال ممكناً . فخيل له ان قطام اذا رأت جماله وتحققت ما هو فيه من الوجد لا تلبث ان تقع في هواه وتغضي عن أمر الانتقام

في مثل ذلك قضى سعيد طريقه وريحان يخطو امامه خطواته المتباعدة لطول ساقيه ويحاول الابطاء في مسيره لئلا يسبق رفيقه فلا ينتبه الا وقد تجاوزه فعاد يمشي الهوينا الى موازاته وسعيد لا يفقه لشيء من ذلك . وخرجا من المدينة فانسا سكوتاً لا يسمع فيه الا صوت الحصى اذا عثرا ببعض منها لان الكوفة كثيرة الحصى والرمال [1] حتى وصلا باب البستان ودخلا بين النخيل . فقال العبد امهلني يا مولاي ريثما افتقد أهل المنزل ثم اعود اليك

فظل سعيد يتمشى بين النخيل يتشاغل برؤية ظلالها مع ما يسمعه من نقيق الضفادع على شاطىء البحيرة وأخذ يهيىء نفسه لمقابلة قطام فاصلح عمامته ومشط شاربيه ولحيته ونفض جبته واصلحها ولبث في انتظار العبد فأبطأ عليه فانشغل خاطره وحدثته نفسه بالاستئذان والدخول الى الدار . وفيما هو يهم بذلك سمع حركة ومشياً وبعد هنيهة بان له نور عند الباب

(١) ابن الاثير ج ٣

وسمع ريحان يناديه فهرول وقلبه يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة . فعثرت رجله بحبل من الياف النخيل كان مشدوداً في جذع بعض النخيل حتى كاد يقع ولكنه تجاهل عن ذلك وتقدم الى باب الدار فاستقبلته لبابة مرحبة ومشت أمامه وريحان يتقدمهما بالمصباح . فدخلت به الغرفة التي كانت قطام فيها ودعته للجلوس على وسادة وجلست هي على وسادة وترك ريحان المصباح هناك وخرج

وكان سعيد يتوقع ان يرى قطام هناك فلم يرها فانشغل باله وزاد انشغاله لسكوت لبابة عن الحديث وجمودها . فقال « ما لي أراك ساكتة يا حالة ألم ترسلي اليَّ بالمجيء »

قالت « بلى »

قال « وأين قطام »

فتنهدت وقالت « هي هنا في الغرفة الاخرى وسنذهب اليها بعد قليل »

قال « أراك في قلق . . . ما الذي جرى . . . قولي »

قالت لم يجر شيء . . . « وتظاهرت كأنها تكتم خبراً

فقال « وكيف . مالي أراك كئيبة اخبريني لقد نفد صبري »

قالت « لا ينشغل خاطرك يا ولدي اذ ليس هناك ما يدعو الى القلق . غير اني حاولت ان استطلف هذه الفتاة وترغبها وتشويقها فلم أر منها الا البكاء والنحيب ولم أسمع الا قولها « الانتقام الانتقام » ومن يخاطبها بغير هذا الموضوع لا يسمع منها جواباً »

قال « ألم تذكري لها شيئاً من حديثي معك »

قالت كيف لا وهي لو لم أذكر لها اسمك مشفوعاً بوعدك بالانتقام لما أجابتني « ثم أدنت فمها من أذنه وقالت » ولكنني آنست من خلال ذلك التمنع انها ترتاح الى ذكر اسمك وأظنها تحبك كثيراً ولكن انشغالها في الانتقام شغلها عن الحب ولذلك فقد سرّت لما أخبرتها بوعدك ولكنها لم تصدق قولي كأنها تحسبني أقول مزاحاً أو لعلها استبعدت ذلك منك أو خافت عدولك عنه لجهلها ما أنت مفطور عليه من الحمية وكرم الاخلاق »

قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيد وصدق وعده . ثم شغلت نفسها بالنحنحة والسعال ومسح آماقها مما ينحلب فيها من الدمع المتواصل لضعف الشيخوخة وصبرت لترى ما يبدو منه قبل اتمام الحديث . أما هو فأثر قولها فيه وهاج ما في قلبه فقال لها « لا ألوم قطام فانها لا تعرفني بعد فهي معذورة اذا ساءت الظن بي . . . ولكن أين هي أريني اياها فاؤكد لها وعدي فتعلم من هو سعيد . . . »

قالت « هي هنا »

الفصل السادس

اللقاء

وحملت لبابة المصباح بيدها ومشت امام سعيد الى غرفة أخرى ليس في أرضها الاحصير فوقه بعض جلود الماعز وقطام جالسة الارباء وهي تبكي وشعرها محلول . فلما رأت النور يقترب من غرفتها أسرعت فضمت شعرها وأرسلته الى ظهرها وغطت رأسها بنقاب أسود . ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهي تقول « خفي عنك يا قطام وارفقي بنفسك واشفقي على شبابك لقد كفاك بكاء ونحيباً . انهضي فسلمي على سعيد الذي قالت لك انه يحبك »

فقطعت قطام كلامها قائلة « كم قلت لك لا تذكري الحب والغرام بل اذكري القتل والانتقام . اني لا أحب الا الانتقام ومن ينتقم لي فهو خليق بان يحبني . ولكن . . . »

فتقدم سعيد وقد أصبح بعد رؤية قطام في تلك الحال لا يرى شيئاً غيرها ولا يبغي الا رضاها فشق عليه قولها « ولكن » لما ينطوي عليه من الاستدراك الذي يخل نفسه عنه . فقال لها « ألا ترضين يا قطام أن أكون أنا المنتقم لك . . . »

قالت وهي تتظاهر بعدم الاكتراث « لا . . . لا أرضى أن تعرض

نفسك لهذا الامر من اجلي فاني أولى منك بركوب هذا المركب الخشن » ثم رفعت يدها وأشارت بسبابتهـا الى صدرها وقالت بصوت تتخلله غصة البكاء » أنا أقتل قتلة أبي وأخي بيدي . . أنا أقتلهم . أنا أقتل عليـاً وان كنت فتاة ، ان حب الانتقام يقويني ويشجعني . . . ولا حاجة بي الى تعريض سواي لخطر القتل . . انك شاب لا يهمك من امر علي شيء فكيف تتكلف قتله عبثاً .. ذلك لا يكون »

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادراً عن شهامة وغيرة حقيقيتين فازداد رغبة في الاقدام على ذلك العمل . فقال لها « كيف تقدمين يا مليحة على هذا الامر وأنا بين يديك . ألعلك لا ترين في الكفاءة . كيف تقولين انه لا يهمني من امر علي شيء وانت تعلمين ان بني امية كافة يطالبونه بدم عثمان وأنا منهم واذا قتلته فاني ارضي بني اميـة فضلا عن ارضاء قطام . . ان بذل النفس في سبيل ارضائها هين . . واذا أذنت لي ان ادعوك حبيبتي فكل شيء علي . . »

فلمـا تحققت قطام وقوعه في الشرك بقي عليهـا ان تتمكن من وعده بصك تستكتبه إياه فأمسكت نقابها بيدها وتظاهرت باصلاحه فانكشف معصمها فرأى الاساور والدمالج وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالا ورنت اليه شزراً وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به . اما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة فثارت عواطفه ونظر الى العجوز كأنه يحرضها على التوسط في الامر . فتظاهرت لبابة بأنهـا تساعده في غرضه وقالت لها « ألم يكفك ما قاله هذا الشهم ألم اقل لك ان وعده صادق وفضلا عن ارضائك بقتل علي فهو يرضي عشيرته واهله ايضاً . واعلمي يا قطام انه لا بد من رجل يقتل هـذا الخليفة ومن يسبق الى قتله فانه صاحب النصيب الاوفر والاجر الاعظم . . »

فقطعت قطام كلام العجوز قائلة « أنا اعلم أنه مقتول لا محالة واذا لم يبق من الرجال من يفعل ذلك فعلته أنا بيدي . انظري الى هذه الحلي في معصمي واذني اني لم انزعها ليس لاني لم احزن على والدي وأخي ... آه

رحمهما الله . . بل لاني واثقة من الانتقام لهما وكأني احسب ثأري حاصلا في قبضة يدي ومتى اخذت بالثأر فقد احييت القتيلين فكيف احزن . . . أما ما قاله سعيد فهو فضل منه ولكن الانسان يا خالة عرضة للتردد فلعل سعيداً اذا خرج من عندنا يرى رأياً آخر أو يتهيب من هذا الامر فيعدل عن الوعد . فأنا لا اريد ان اقيده بعهد ارى في نغمة كلامه ما يدل على خوفه منه . . . لا اقول انه يخاف وقتل هذا الخليفة من اهون الامور . ولكنني لا أرى ان اكلفه وعداً اذا خلا بنفسه ربما ندم عليه ... »

الفصل السابع

الصك

فهم سعيد بالتكلم ليؤكد لها صدق وعده فأوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنه وقالت « اسمحي لي يا قطام بكلمة اقولها لك . انت لا تعرفين سعيداً بعد ولكنني اعرفه واعرف صدقه وانا اقول لك بالنيابة عنه هل تريدين ان يكتب لك صكا على نفسه انه يفعل كل ما قاله لك »

فلما سمع سعيد ذكر الصك تهيب وعظم الامر عليه وكأنه صحا من سكرته لحظة تبين فيها خطارة ذلك الامر ثم عاد الى سكرة الغرام وزاده تثبتاً في ذلك ما سمعه من كلام العجوز الدال على ثقتها به وبوعده

اما قطام فكانت تنظر الى كل حركة تبدو من سعيد فلم يفتها ما جال في خاطره ساعتئذ من الندم وهو يحاول التظاهر بخلاف ذلك . فلكي تحمله على كتابة الصك من تلقاء نفسه قالت للعجوز « أراك أقمت نفسك نائبة عنه في امر لا تصح النيابة فيه وهو غير راض به وفي سكوته اكبر دليل على ذلك . فدعينا من هذا الموضوع ولا تعرضي سعيداً لهذا الخطر وانت تعلمين ما قاله لك عنه وما له من المنزلة في قلبي وان اكن قلما رأيته فأفضل ان اعرض نفسي للخطر ولا اعرضه »

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية في رأسه فنهض بغتة وقال لها أتحسبين سكوتي يا قطام عن تردد أو خوف . . . لا وحبك ما انا ممن يضنون بالنفس في سبيل الحب وكيف تقولين انك تفعلين ذلك عني . . وربما ترددت في بادىء الرأي . واما بعد ان علمت بما عندك نحوي فاني اكتب الصك ولا ارضى الا بكتابته . . هاتوا رقاً ومداداً » فنهضت العجوز حالا لاستحضار الرق والقلم وكانت قد اعدت كل شيء قبل مجيئه

فاغتنم سعيد غيابها وازاح مقعده واصلحه بحيث يواجه قطام . اما هي فنظرت اليه وابتسمت وقالت بصوت تتخلله نغمة الدلال « لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبي وما لنا وللصكوك ألا يكفينا القول »

فما صدق سعيد ان آنس منها هذا التقرب وسمع قولها « حبيبي » فجعل يبالغ في حبه وغرامه واستهلاكه في سبيلها وطابت له تلك الخلوة القصيرة فتبادلا فيها من عواطف الحب ما لا تفي بشرحه المجلدات وسعيد يحسب نفسه اسعد انسان على وجه الارض لحصوله على حب قطام . وهي انما همها من كل ما جرى اغراؤه على قتل علي وقد اضمرت في باطن سرها انه اذا انتقم لها تزوجته وان تكن غير مغرمة به واذا فشل في مهمته فلا اسف عليه اذا قتل . فاذا كتب الصك لا يجسر على الرجوع عن وعده

وأدركت العجوز ان في ابطائها وسيلة لتبادل الاشارات واللحظات وزيادة التمكن من الاغراء فابطأت لغير داع ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن ايل فيه مداد اسود . فلما رآها سعيد وتحقق كتابة الصك عاوده الخوف وحدثته نفسه بالرجوع عن الوعد ولكن الحياء والحب منعاه . ولم يخف تردده عن قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو اليها ويقول في نفسه « ما اسعد هذا اللقاء وما اجمل هذا الحبيب لولا ما اشترطه من العقبات » ولم تترك قطام فرصة يفتكر فيها فقالت للعجوز « لمن أتيت بهذه الادوات يا خالة »

قالت « أتيت بها الى سعيد »

قالت « أترجين منه ان يكتب الصك . لا لا أظنه يكتبه (وابتسمت

وهي ترنو اليه شزراً) وكأني به ندم على ما فرط منه لا عن جبن اوخوف لا سمح الله ولـكنه رأى قطام لا تستحق هذه العناية واراه يقول في باطن سره (أمن اجل امرأة مثل هذه اقتحم مثل هذا الخطر الهائل) . . . » قالت ذلك ونظرت اليه نظر المحب العاتب

فلما سمع سعيد كلامها ورأى فيها ذلك الدلال نسي كل خطر واستولى عليه الخجل ولم ير له مخرجاً من خجله الا بالمبـادرة الى الرق فتناوله من يد لبابة وامسك القلم وقد أخذ منه الهيام مأخذاً عظيما حتى توردت وجنتاه واحمرت عيناه . فوقفت العجوز الى جانبه والمصباح في يدها فـكتب ويده ترتعش وهو يتجلد لئلا يبدو ذلك لقطام فتظنه خائفاً واليك نص كتابه :

« أنا سعيد بن .. الاموي أعاهد قطام بنت شحنة على قتل علي بن أبي طالب مهراً لزواجي بهـا واذا لم افعل ذلك كنت لا استحقها وعلي عهد الله وميثاقه كتبه سعيد الاموي »

الفصل الثامن

تمام الحيلة

فلما فرغ سعيد من كتابة الصك دفعه الى قطام وقد ظهرت عليـه ملامح الافتخار بأنه لم يكن جباناً كما ظنته ولـكنه لم يكد يدفعه اليها حتى احس بالخطر الذي عرّض نفسه له . على انه لم يستجل ذلك الخطر جيداً لما حال بينه وبين عقله من غياهب الوجد والهيام

أما قطام فتناولت الرق وقرأته بلا اكتراث ثم نظرت الى سعيد باستغراب وقالت « يظهر انك كتبت الصك حقيقة أليس عاراً على قطام ان تأخذ منك صكاً على عهد عاهدتها عليه في مثل هذا الموقف كأنك اتخذت كلامي مأخذ الجد وقد قلت لك الآن اني لا أبالي من يقتل علياً فاذا لم يقتله احد قتلته أنا . أما وقد كتبته بخط يدك فاني احفظه عندي تذكاراً لهذه

الليلة التي اعدها من ليالي العمر . . وارجو نجتمع قريباً وقد نلنا المرام » قالت ذلك وفي صوتها غنة الدلال

فصدق سعيد كلامها واطمأن باله من قبيل الشرط الذي اشترطه على نفسه والصك الذي كتبه بيده ولكنه علم بأنه لا ينال قطام الا بعد قتل الامام علي فعاد الامر الى خطورته فانقبضت نفسه وأحب الاختلاء فالتمس الخروج . فقالت له قطام « امكث عندنا . . أو اذهب لعلك تهتدي الى سبيل يقرب زمن اجتماعنا الدائم » قالت ذلك وابتسمت ورنت اليه كما يرنو الحبيب اذا التمس من محبه امراً يخشى ان يكون بعيد المنال . فودعها سعيد وخرج فشيعته لبابة فرأيا ريحاناً لا يزال ساهراً في الحديقة يطوف حول المنزل خوفاً من الرقباء والعيون

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت له وهي تضحك « اني اهنئك برضاء هذه الغادة فقد نلت الليلة ما طالما تحسر عليه أهل الكوفة بل سائر اهل العراق ومن الغريب انها كانت مع فرط حزنها لا تستطيع النظر اليك الا وهي تبتسم . . فما اجمل الحب اذا كان متبادلا . واما مسألة الصك فما هي من الاهمية في شيء . وهب انك رأيت في طريقك خطراً فهل ترضى قطام ان تعرض نفسك له » فودعها ومشى وحده وهو يتعثر بأذياله . وكأنه غادر قلبه عند قطام فخلا بعقله وعادت اليه هواجسه فتصور خطورة الامر الذي عرض نفسه له . ولما لم يبق له حيلة في الرجوع عن عهده بعد كتابة الصك جعل يتحل لنفسه اعذاراً تخفف قلقه وتحسن له ارتكاب ذلك المنكر . فخيل له اذا قتل علياً انه ينتقم لسائر بني امية ويفاخرهم جميعاً بما لم يستطعه احد منهم . فينال حظوة في عيني معاوية فضلا عن تمتعه بقطام . ولما تصور قربه منها اختلج قلبه في صدره وهان عليه كل عسير

فمشى وهو في مثل هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومر بجامعها القائم في وسط الساحة الكبرى . وكان الجو هادئاً والقمر منيراً فرأى ما يحدق بمنزل الامام علي من الابنية والخيام بمن فيها من كبار بني هاشم وغيرهم من شيعته . وهو يعرف منهم جماعة صناديد لا يهابون الموت

فما لبث ان تصور ذلك حتى خارت قواه وكبر عليه الامر ولكنه ظل ماشياً يلتمس منزله وهو يفكر في حيلة ينال بها بغيته

الفصل التاسع

طارق مفاجىء

وكان منزله في بعض اسواق الكوفة فوصله وهو يظن نفسه لا يزال بعيداً عنه وانما نبهه الى ذلك جعجعة جمل رابض في فنائه فظنه في بادىء الرأي جمله وهو يعهد انه ارسله الى مأواه قبل خروجه . فدخل الفناء فرأى هناك جمالا وأناساً كأنهم قادمون من سفر فبغت . فتقدم اليه واحد منهم ولم يكد يلقي عليه السلام حتى عرف انه من رجال جده أبي رحاب فذهل ولم يرد التحية ولكنه قال له « ماوراءك يا عبدالله ما الذي جاء بكم »

قال « اننا قادمون من عند جدك مولانا أبي رحاب »

قال « وما الذي حملكم على المجيء »

قال « جئناك في مهمة مستعجلة »

قال « وما هي »

قال « ان ابا رحاب بما تعرفه من شيخوخته وضعفه قد بعثنا نستقدمك اليه سريعاً »

فذهل وصاح قائلا « وما الذي اصابه ألعله مريض ؟ »

قال « هو مرض الشيخوخة ولكنه مشتاق لرؤيتك وقد امرنا ان نستقدمك حالا »

قال « وأين هو »

قال « هو في مكة كما تعلم »

قال « أأذهب الى مكة الآن »

قال « ذلك ما أمرنا به فافعل ما بدا لك »

فلبث مدة صامتاً يفكر ثم مشى وهو يقول « لا حول ولا قوة الا بالله

العلي العظيم » وسار عبد الله في أثره حتى دخلا المنزل وهما صامتان . ثم التفت سعيد وهو ينزع عباءته وقال « لابد من أمر ذي بال يدعوني جدي اليه فهل تعرفه »

قال « لأخاله استدعاك الا ليراك قبل حلول أجله لانه شاخ وضعف وأنت تعلم انه يحبك ولا رجاء له سواك »

قال « لاحيلة لنا في القعود فلنبت الليلة ونصبح مسافرين » وقضى ليلته يفكر في قطام وسفره

ولما أصبحوا ركب سعيد ناقته وركب عبد الله ورفاقه جمالهم وهموا بالمسير فرأى سعيد ان يودع قطام قبل السفر فاستمهل رفاقه ريثما يعود اليهم وساريلتمس منزلها وهو في لباس السفر . فلما أشرف على المنزل تذكر ليلته أمس ولكنه لم يضطرب لانشغال خاطره في جده وقد خاف عليه الموت قبل وصوله اليه . ووصل المنزل فلقي ريحاناً فسأله عن قطام . فقال « انها خرجت في حاجة وسوف تعود »

فقال « الى أين ذهبت »

قال « الى مكان لا أدري أين هو »

فشغل بال سعيد لخروجها في ذلك الصباح وهو لايرى ما يدعو فتاة مثلها الى الخروج فدبت الغيرة في قلبه فقال « وهل مضت وحدها »

قال « سارت مع لبابة »

قال « أتظنها تبطيء كثيراً »

قال « لاأدري وربما ظلت الى المساء أو الغد اذ يخيل لى انها التمست بعض أهلها في مكان خارج الكوفة »

دار الحديث بينهما وسعيد لايزال راكباً جمله يتردد بين ان ينتظر عودتها قبل سفره أو أن يسير . وود لو يعلم أين هي ليمضي اليها فيودعها ويذهب شيئاً من غيرته عليها . ولو تحقق مجيئها بعد ساعة أو بضع ساعات لفضل الانتظار ولكنه خاف أن يطول غيابها أياماً . فعول على المسير الى مكة فقال لريحان « اقر قطام السلام عند رجوعها وقل لها اني شاخص

الى مكة لامر يدعو الى الاسراع وقد جئت لوداعها فلم أجدها . على اني سأعود قريباً باذن الله »

قال « حسناً »

فودعه وعاد فانضم الى رفاقه وسار يلتمس مكة وقلبه في الكوفة .ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه ولم ير قطام . ولكنه التمس عذراً لنفسه بما دعاه الى العجلة من أمر جده

الفصل العاشر

ابو رحاب

وكان أبو رحاب جد سعيد شيخاً طاعناً في السن كما تقدم . ربى سعيد في حجره بعد موت والده وكان كلاهما على دعوة بني أمية في المطالبة بدم عثمان . ولم يكن غرضهما من ذلك الا الانتقام لعثمان لانهما أقاما زمناً طويلا في منزله . وكان أبو رحاب مع شدة حبه لعثمان لم يغفل عما كان فيه من الخطأ الذي دعا الناس الى اضطهاده وكثيراً ما كان يحرضه على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ له الا قليلا . وعلم أبو رحاب بعد ذلك ان جماعة من ذوي الاغراض كانوا يثنونه عن الاصغاء ويحرضونه على العداء . حتى اذا قتل عثمان كان أبو رحاب وسعيد في جملة المطالبين بدمه ولكنهما مالبثا ان عادا من واقعة الجمل حتى قعد أبو رحاب عن المطالبة لانه تحقق ان أصحاب تلك الواقعة انما حاربوا علياً طمعاً في الملك لاغيرة على عثمان

وأقام في مكة مدة لاتسلية له الا سعيد وكان سعيد ينوي الانضمام الى جند معاوية في واقعة صفين فمنعه جده . وكان أبو رحاب يعلم ان سعيداً يحب قطام حباً شديداً وانه ساع في التزوج بها . ولذلك فانه كان يأذن له في الخروج الى الكوفة لتلك الغاية . وطال غياب سعيد هذه المرة وأحس أبو رحاب بزيادة الضعف فاراد استقدامه ليتزود من رؤيته قبل موته ويوصيه وصية لها علاقة كبرى في شؤون حياته وربما غيرت مجاري أعماله

وحولته عن مقاصده وآماله . فبعث رجلا من خاصته اسمه عبد الله في وفد الى الكوفة لهذه الغاية . ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على فراش الضعف والهرم كأنه يستمهل ملاك الموت ريثما يصل حفيده لئلا يذهب ما في نفسه ادراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثاً

أما سعيد فانه قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق الى قطام وقلق على ابي رحاب . وكان من شدة فرحه بقطام انما يود بقاء جده حياً ليبشره برضائها وقبولها لانه طالما شكا له رغبته فيها . وكان أبو رحاب يتمناها له . وكان سعيد اذا فكر في ذلك فرح ثم يعترض فرحه أمر الصك وقتل الامام فيضطرب فيعلل نفسه بما يناله من الفخر اذا قتل علياً فضلا عن استرضاء جده لانه يطفيء ما يجيش في نفسه من نار الانتقام لعثمان فيفرحه قبل موته

قضى أكثر أيام الطريق في مثل هذه الهواجس لا يبالي بمن حوله من الرفاق كأنه سائر وحده . ولم يكن يشغله عن ذلك ما يلاقيه في سبيله من الجبال والاودية والصحارى ولا ما يمر به من الربوع والاحياء والخيام حتى أشرف على مكة من اكمة . فاذا هي في منبسط من الارض تحيط بها الجبال والكعبة قائمة بين ابنيتها قيام الملك بين الاعوان . وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب فاسرع في مسيره يلتمس منزل جده وقلبه يخفق خوفاً عليه من بأس يصيبه قبل وصوله

الفصل الحادي عشر

بيت أبي رحاب

ولم يكد يدخل مكة حتى سدل الليل نقابه فساق ناقته يلتمس المنزل قبل اشتداد الظلام وترك رفاقه يهتمون بشؤونهم . وكانت عادته اذا دخل مكة ان يطوف الكعبة قبل الذهاب الى البيت ولكنه سار في هذه المرة تواً الى المنزل وهو يضطرب خوفاً على حياة جده

فعرج في منعطف يؤدي الى البيت رأى فيه أناساً عرف انهم من الاهل والاصدقاء فحياهم وسألهم عن حال أبي رحاب . فلما عرفوه طمأنوه وسبقه بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيده . فلما اطمأن بال سعيد على حياة جده هدأ روعه وترجل عن ناقته وسلمها الى بعض الخدم ومشى وهو لايزال بالعباءة والكوفية والسيف . فانتهى الى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم ينتظر ان يفتحوه له . فمر في فناء لم ير فيه أحداً وسار تواً الى الغرفة التي يقيم فيها جده عادة وفيها مصباح منير دون سائر الغرف . وقبل وصوله الباب استقبله رجل خارج من عنده يمشي الهوينا على رءوس أصابعه مخافة أن يوقظ المريض من نومه العميق . فعرف سعيد انه من بعض أهله فسأله عن حال جده

فقال له « انه مستغرق في الرقاد وقد مضى عليه بضعة أيام لا ينام فلما أحس بالنعاس الآن أخرج الناس من غرفته ولم يبق سواي وأوصاني أن لاأوقظه الا اذا جئت أنت »

قال « دعني أدخل وأراه وهو نائم قال ذلك ونزع حذاءه خارجاً ودخل وهو يسترق الخطى . فوطيء العتبة وأطل على الغرفة فاذا هي مضيئة بسراج على مسرجة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش المريض . وكانت فتيلة السراج تخينة يتصاعد من لهيبها سناج يتطاير فيترك في صعوده آثاراً سوداء على الحائط بجانب السراج ولو كان لون الحائط نقي البياض لظهرت آثار السناج أكثر جلاء ولكنه كان مدهوناً بطين اسمر

وتحول سعيد نحو الفراش وقلبه يخفق لئلا يكون رقاد جده ابدياً كما يتفق لكثيرين ممن يهرمون فيموتون وهم نيام . فمشى على حصير من سعف النخل يكسو ارض الغرفة عليه غطاء من جلد مصقول هو بمنزلة البساط وسار نحو الفراش . وكانوا لما اشتد به الضعف رفعوه عن الارض الى مقعد مستطيل ظهره شبكة من نسيج الجلد وهي قدد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها مباشرة او يجعلون فوقها الفرش او

نحوها . وكان أبو رحاب قد توسد فراشاً رقيقاً والتحف ببرد من صوف أسود يغطيه الى أعلى الصدر وقد توسد على ظهره ويداه مضمومتان تحت اللحاف وعيناه مغمضتان يظللهما شعر حاجبيه فيزيدهما غوراً

وحالما اقترب سعيد من جده رمى ببصره الى صدره ليرى تنفسه فاذا هو يتنفس تنفساً هادئاً فهدأ اضطرابه وسكن بلباله ولبث واقفاً يتأمل في ظواهر الهرم . وتذكر أن جده كان من كبار الهامة طولا وعرضاً فرآه قد أصبح هيكلا من عظام مكسواً بالجلد . أما وجهه فلم يكن ظاهراً منه الا الانف والجبهة وما بقي منه كان مغطى بالشعر الابيض الناصع . وازداد ذلك المنظر رهبة حينئذ لضعف النور حتى خيل لسعيد لما أشرف على فراش جده أن رأسه كتلة من القطن المندوف يتخللها ثنيات مظلمة هي الانف والوجنتان والجبهة وأما ماخلا ذلك فقد غطته اللحية والشاربان والحاجبان واستطالت لحيته وانبسطت حتى غطت عنقه وصدره ولكنها كانت قليلة الشعر تشف عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاته وفي مقدمها القصبة قد برزت بروزاً عظيما أما الرأس فقد كان حليقاً أو لعله أصلع

وكأن شيخنا الراقد قد دله قلبه المستيقظ على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيه البراقتين وأجال نظره في جوانب الغرفة حتى وقع على سعيد فتبسم . فلما رآه سعيد قد استيقظ جثا أمام فراشه وهم بتقبيل يديه . فرفع أبو رحاب ذراعيه وضم سعيداً الى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقه وخديه بلهفة وسعيد يطاوعه بكل حركة يريدها . فأطال ابو رحاب عناقه وسعيد صابر حتى أحس بماء ساخن ينحدر على خده علم أنها دموع سخينة ولكنه لم يدر دموع الحزن هي أم دموع الفرح . على انه خاف على جده فاستأذنه ونهض عن صدره فرآه يحاول الجلوس فأعانه عليه بيديه ونظر اليه وهو جالس فذهل لشدة ضعفه حتى تخيله قفصاً من عظام استدل على ذلك مما انكشف من عنقه الى اعلى الصدر

اما ابو رحاب فأخذ يصلح لحيته وشاربيه ويمسح عينيه . ثم تنحنح ومد يده الى سعيد فعلم هذا انه يريد يده فدفعها اليه فأمسكها ابو رحاب بين

يديه فأحس سعيد كأنها مقبوضة بأصابع من حديد ليبوسة أنامله وجفاف جلدها وبرودتها ولكنه شعر بارتعاشه ارتعاشاً متواصلا هو من دلائل الضعف الشديد

الفصل الثانى عشر

انقلاب غريب

وما زال سعيد يتخيل في جده الضعف الشديد حتى سمع صوته فاذا هو كما يعهده جهوري رنان . فاستأنس به واطمأن باله لسماعه . وأول كلمة سمعها منه قوله « الحمد لله على مجيئك سالماً . لقد أطلت الغيبة على ياولدى »

قال « لقد جئتك سريعاً حالما علمت برغبتك في ذلك كيف انت الآن وبماذا تشعر ياجداه »

قال « كنت أحسبني على شفا الموت ولكنني لما رأيتك وأمسكت بدك شعرت برجوع قواي . فأنا الآن كما تعرفني من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتي لاتمكن من تزويدك بنصيحة هي آخر ما أتلفظ به في هذه الحياة »

قال « اني أشتاق لنصائحك كل حين ولكنني أرجو أن يمد الله في أجلك لتشهد زواجي بقطام » ثم التفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد فرأى المكان خالياً من الناس فقال بصوت منخفض « وتفرح بما سيتقدم ذلك من الانتقام الذي طالما تاقت نفسك اليه »

فنظر الشيخ اليه بعينين رأى سعيد بريقهما من خلال الحاجبين وكان قوس الشيخوخة واضحاً حولهما ثم سمع جده يقول « أما زواجك بقطام فقد فهمته وسرني بلوغك مرامك وأما الانتقام فلم أفهم علاقته بها »

فتبسم وقال « ألا تذكر ياجداه ماقلناه منذ اعوام وقام به كل بني أمية

من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلماً . وهل تجاسر أحد على الانتقام بقتل القاتل ليخلو الجو لنا »

فقطب الشيخ أسرته كأنه غضب وقال « من هو القاتل ومن سيقتله »

فأدنى سعيد شفتيه من أذن جـده وقال « ان القاتل علي بن ابي طالب وأنا سأقتله ولا يخفى عليك ما في ذلك من الفخر والفضل فانما أبغي بقاءك ليتم ذلك تحت جناحك . . . »

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابه وحنقه وعرف سعيد حنقه مما رآه من ارتعاش يديه واختلاج شفتيه واهتزاز لحيته . ولا تسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليه الكلام قائلا بصوت عنيف « لا لا . لا يا سعيد . . . لا تقتلوا البريء »

فذهل وظن جده لم يفهم كلامه فقال له « تمهل يا جداه وأي بريء تعني اني سأنتقم من علي بن أبي طالب فكيف تقول انه بريء وأنت أول من دعا الى المطالبة بدم عثمان منه . يظهر انك أخطأت مرادي »

قال « كلا اني لم أخطىء مرادك فلا تخطىء أنت مرادي . ان علياً بريء . . انه بريء مما اتهمناه به . انه لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتله ولا أراد سوءاً بالمسلمين ولا ارتكب أمراً يستوجب نقمة »

فوقف سعيد وهو يحسب نفسه في منام لعلمه أن جده كان من أول الناقمين على علي فكيف انقلب الى الضد من ذلك . فتبادر الى ذهنه أن جده إنما يتكلم عن خرف . وأدرك أبو رحاب ما جال في خاطره فقال له « لا يخالجن ذهنك شك في صحة عقلي فاني انما أقول ما أقوله عن روية وصدق نظر ولم أستقدمك من العراق الا لهذه الغاية . ولا أقول ذلك جزافاً بل أثبته بالبرهان »

وما زال سعيد مذهولا مستغرباً لكنه صبر نفسه الى آخر الحديث فقال « وما الذي دعاك الى هذا التغيير العظيم . كيف يمكن أن يكون ذلك وكيف يمكن أن يكون علي بريئاً من دم عثمان بل كيف تعترف أنت ببراءته وقد كنت من أول القائلين باتهامه »

فأشار الشيخ بيده الى سعيد أن يجلس ويهدىء روعه ويصبر نفسه الى سرد البراهين ثم قال « أما ما دعاني الى ذلك فهو هاتف سمعته يقول ويكرر القول (ان علياً بريء وانما يتهمه أهل المطامع والاغراض) وكنت كيفما توجهت أسمع هذا الصوت يرن في أذني حتى أقلق راحتي . فبحثت عن الامر بنفسي وتدبرت ما أعلمه من تاريخ علي وعثمان وغيرهما من القائمين في هذه الفتنة فوجدت معاوية وسائر بني أمية على ضلال بل هم أهل اغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها » قال ذلك وقطب حاجبيه وقد أبرقت عيناه من خلال قوس الاشياخ حول حدقتيه وبان الجد في لهجته فظل سعيد صامتاً لا يبدي حراكا لما استولى عليه من الدهشة

الفصل الثالث عشر

التهمة الباطلة

فشط الشيخ لحيته بأصبعه وأصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت الى سعيد وقال « يزعم معاوية وأصحابه أنهم انما جردوا السيوف وسفكوا الدماء المطالبة بدم عثمان كأنهم لم يكونوا يستطيعون الذب عنه قبل قتله . ولقد يضحكني مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان وهو أول من أراد قتله وسعى في قتله حتى لقد يفتخر انه هوالذي قتله وان يكن في فلسطين . فقد علمت أنه لما بلغه مقتل عثمان وهو في وادي السباع قال (أنا قتلته وانا في وادي السباع[1]) يعني انه سعى في قتله عن بعد . فلا يغرنك بعد ذلك مجيئه هو وابناه ماشين الى دمشق وهم يبكون ويقولون (وا عثماناه تنعي الحياء والدين) انهم انما فعلوا ذلك حيلة للانضمام الى معاوية . . .

« وأما معاوية وسائر بنى أمية فهل تحسبهم أشرعوا الاسنة وأيقظوا الفتنة طلباً بدم ذلك الخليفة المقتول ؟ فاذا كانوا فعلوا ذلك غيرة وحناناً فما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من المدينة الى الشام ؟ وهب

(١) ابن الاثير وغيره

انهم تأخروا عن نجدته كرها كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا أولاده . واذا كانوا يعتقدون موته مظلوماً وانهم انما قاموا للمطالبة بدمه فلماذا لم يولوا الخلافة ولداً من أولاده ؟ أرأيت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة الى السلطة . . .

« هكذا فعل أيضا طلحة والزبير فقد قتل عثمان وهم في المدينة على قيد أذرع منه فلو أرادوا احياءه لم يعجزهم الدفاع فسكتوا عن قتله حتى اذا رأوا الخلافة أفضت الى علي تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا انه قتل ظلماً »

وكان الشيخ يتكلم وهو يحاول خفت صوته فلا يطاوعه التهيج فلا يشعر الا وقد علا صوته تتخلله غصات وارتجاجات . وأما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لايستطيع النظر الى وجهه تهيباً واحتراماً . فلما وصل أبو رحاب الى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه مما لحقهما من نفثات ريقه في أثناء الكلام لان الهرم أخلى فكيه من الاسنان فاغتنم سعيد تلك الفرصة وخاطب جده قائلا « كيف تحسب عمل هؤلاء طمعاً في الخلافة ولا تحسب عمل علي أيضا مثل عملهم . وقد كانوا جميعا في المدينة فكيف اذا قتل الخليفة تكون البيعة لواحد منهم والباقون ينظرون . لماذا لم تحسب ذلك طمعاً من علي ؟ »

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية أو هي قهقهة تشبه الضحك لعظم ماقام في نفسه وهو في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من ايام الآخرة . وقبل ان يتم قهقهته حول وجهه الى سعيد وقال « اتسألني عن خلافة علي وقد كان الاولى بي ان اسأل نفسي ماالذي اعماني عن حقوقه فيها من اول الامر صدق القائل ان الغرض يعمى ويصم . . . ان الخلافة لم تكن لاحد من الصحابة قبل هذا وهو ابن عم الرسول (صلعم) وصهره على ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين . وهو اول الناس اسلاما بعد خديجة (١) وزد على ذلك ان الرسول (صلعم) ربى في حجر ابي طالب والد علي . وقد

(١) أسد الغابة ج ٤

كفله ودافع عنه عند أول الدعوة . وكانت قريش تكره دعوته حتى كثيراً ماهموا بأذيته وابو طالب يمنعهم بماله من المنزلة الرفيعة عندهم . فلما ولد علي رضي في حجر الرسول (صلعم) واسلم وهو في العاشرة من عمره وذب عن الاسلام بقلبه ويده ولسانه ولا انسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على اذية الرسول (صلعم) في مكة فعول على الهجرة كيف ان عليا اقام مقامه في منزله فتسجى ببرده وبات على فراشه وعرض نفسه لخطر القتل ونجاه الله . ناهيك عن حروبه في الغزوات والسرايا فقد شهد معظم المواقع واشهرها وبذل نفسه في الذب عن الاسلام يوم كان معاوية ووالده واخوته في مكة من الد اعداء الاسلام ولم يسلموا إلا بعد فتح مكة اي بعد قنوطهم من النصر » (١)

الفصل الرابع عشر

علي والخلافة

كان ابو رحاب يتكلم والعرق يتصبب عن جبينه كأنه يعمل عملا شاقا يجهد نفسه فيه وسعيد صامت مطرق لايزال في دهشته واستغرابه حتى كاد يغيب عن صوابه . ولم يجسر على كلام . وطال سكوت جده فهم باستفهامه فرآه يتحفز للكلام فسكت واصغى . فقال ابو رحاب « اراك دهشت لما سمعته كأنك لم تعلمه قبلا ولا الومك اذا علمته وتجاهلته فاني اكبر منك سنا واعلم منك في هذه الشؤون وقد اعماني الغرض وكأنني بعد ذلك الهاتف قد فتحت عيناي وصرت انظر الى الحقيقة كما هي . . .

« نعم ان عليا اولى منهم جميعا بالخلافة والرسول (صلعم) فضله عليهم جميعا وآخاه دون سواه فقال له على مسمع من الصحابة (انت اخي في الدنيا والآخرة) وخاطبه مرة وقال (لايحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر) ولقد تستغرب ماسأتلوه عليك وتعجب كيف لم يتول الخلافة قبل الآن

(١) السيرة الحلبية

كيف لا وهو قول الرسول (ان علياً مني وانا من علي وهو ولي كل مؤمن بعدي) وقوله (صلعم) (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) (١) فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافته بل كيف لا يعجب لتقاعده عن الخلافة الى الآن »

وكان سعيد لايزال مطرقاً وقد تغيرت سحنته وتولته الدهشة حتى ظن نفسه في منام وندم على مجيئه لانه أصبح بعد سماع ذلك الكلام حجراً بين مطرقتين لايدري أيقوم بعهده لقطام التي ملكت لبه أم يعمل بوصية جده وهو في آخر أيام الدنيا . فظل صامتاً لايبدي حراكا . وأدرك جده تلبكه ولكنه تجاهل عما يجول في خاطره وعمد الى اتمام الحديث فقال

« فترى ياولدي ان علياً أولى بالخلافة من سائر الصحابة بالنظر الى قرابته وصهره ووصية الرسول له ولكنه يمتاز عن سائر الناس بفضائل تكفي وحدها لتوليه أمور المسلمين لاارى في معاوية واصحابه شيئا منها . ان عليا رجل متقشف زاهد في الدنيا رأيته مرة انزل سيفه للسوق فباعه فسئل لماذا فعل ذلك فقال (لو كان عندي اربعة دراهم ثمن آزار لم ابعه) ويكفي قوله في وصف المؤمنين (ومن سيماهم ان يكونوا خمص البطون من الطوى يبس الشفاه من الظما غمش العيون من البكا) ولو فتشت بيته اليوم ما وجدت فيه لاصفراء ولا بيضاء . وقد مضى عمره في عز الاسلام وفتح الفتوحات ولم يلبس ثوبا جديداً ولا اقتنى ضيعة ولا ربعا (٢) ومن كان في مقامه قادر على حشد الاموال واقتناء العبيد والاماء والضياع والماشية كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان وصاحبنا وابن عمنا معاوية . . . »

(١) أسد الغابة ٤ (٢) المسعودي ٢

الفصل الخامس عشر

معاوية واصحابه

ولما بلغ الشيخ الى هذا الحد تنهد تنهداً عنيفا ثم قال وصوته يعلو بالرغم عنه « ان معاوية خدعنا بتظاهره في نصرة الخليفة المقتول حتى كرهنا بالامام علي وقد كنا في ظلمات من الغرض لانرى الحق وأما الآن وقد قشعت الغشاء عن عيني فاني أصبحت ناقما على معاوية واذا فكرت في اعماله واعمال علي كدت اتميز غيظا ويتقطر قلبي أسفا على ماناال هذا الامام من الاذى الذي لايستحقه . كيف لاوهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا في واقعة الجمل كيف انه أشفق على عدوه اشفاقه على أولاده فأوصى اصحابه ان لا يلحقوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يمسوا النساء ولا الاولاد بسوء . وكم أوصى عماله أن يقسطوا في احكامهم وقد اخبرني رجل سمعه يوصي أحد عماله ويقول (لاتضربن رجلا في جباية درهم ولا تبيعن رزقا ولا كسوة شتاء ولا صيفا ولا دابة يعتمدون عليها ولا تقيمن رجلا قائما في طلب درهم)[1] ولو اردت أن اسرد من أمثلة ذلك لضاق بي المقام وخفت انقضاء أجلي قبل الفراغ منها وانا انما استمهل ملاك الموت ريثما أتم وصيتي لك . . . فاصغ لي ياولدي وتأمل عدل الامام علي وحلمه وما ارتكبه معاوية وعماله من التعدي على المسلمين . وخوفا من زيادة التطويل وقد تعبت من الكلام أذكر لك حادثة قريبة العهد لايزال صداها يرن في الآذان . . آه . . آه من القساة اهل المطامع . . . . أتعرف عبيد الله بن عباس ؟ »

قال « كيف لا أعرفه وهو ابن عم الرسول (صلعم) وابن عم علي بن أبي طالب . نعم اعرفه »

قال « اصغ لما اقصه عليك واعتبر . لما فرغ معاوية من واقعة صفين وتحكيم الحكمين وظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص كما تعلم بايعه اهل الشام

(١) أسد الغابة ج ٤

وظل علي في العراق . فلم يقنع معاوية بما أوتيه من الحكم فبعث سراياه الى الحجاز والعراق للفتح يدعون الناس الى بيعته ونقض بيعة علي . وكان رسوله الى الحجاز واليمن بسر بن ارطاة فجاء المدينة وتولاها لان عاملها فر من وجهه . ثم جاء مكة هذه منذ شهرين ولا يزال الناس يتحدثون بفرار صاحبها أبي موسى الاشعري من وجهه بلا حرب . فأكره أهلها على البيعة فبايعه أهل مكة مكرهين وقد كنت مريضا ولم أر وجهه . . . على أن عمله هذا لايستوجب ملاماً ولكنه سار الى اليمن وعاملها عبيد الله ابن عباس الذي ذكرته لك . فخاف عبيدالله فهرب الى الكوفة واستخلف عبد الله بن عبدالمدان فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن الا انه أمر بعبدالله هذا فقتله وقتل ابنه صبراً . . . وسمع بابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قد أودعهما عند رجل من كنانة بالبادية فأراد قتلهما فبعث اليهما فجاء الكناني ومعه الطفلان فلما علم أن بسراً يريد قتلهما ذعر وصاح قائلا « لم تقتل هذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما » ولم يكن من ذلك الظالم الا انه قتل الطفلين والكناني [1] وبلغني ان الكناني دافع عنهما حتى قتل . ولقد اعجبني قول امرأة من كنانة رأت ابن ارطاة ماراً بعد تلك الفاجعة فقالت له « ياهذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين . والله ما كانوا يقتلون الاطفال في الجاهلية ولا في الاسلام . والله يابن ارطاة ان سلطاناً لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » [2]

هذه ياولدي أعمال معاوية وعماله فأين هي من أعمال الامام على فكيف تتقم عليه بعدذلك وتقول انه قتل عثمان وانه يستوجب القتل ؟ »

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن الاثير ج ٣

الفصل السادس عشر

الخوارج

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن الكلام ومل القعود فاستلقى على ظهره وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه فخاف سعيد عليه فاسرع الى منديل مسح به عرقه وأتاه بلبن كانوا أعدوه له فشربه واستلقى يلتمس الراحة وسعيد جالس الى جانبه وقد وقع في حيرة عظمى . فتصور عهده لقطام والصك الذي كتبه على نفسه ولبث صامتا وجده الشيخ يلتفت اليه خلسة يراقب عواطفه . فأدرك ارتباكه وعلم انه يفكر بقطام وأهلها فحول وجهه نحوه وهو لا يزال مستلقيا وقال « أظنك تفكر في قطام وأهلها الخوارج وقد يخيل لك أن خروجهم من طاعة علي قد يطعن بصدق عاقلته لك ولكنهم لم يخرجوا الا طمعاً في الدنيا فانتحلوا سببا لا يسمعه عاقل الا هزأ بهم وأيقن بتعديهم . خلعوا طاعة علي لانه قبل بالتحكيم المشهور وما ذنبه وهم الذين أجبروه على قبوله وهب انه اخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه . ولكنهم رأوا معاوية قام في الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم بالحكومة لانفسهم فاجتمعوا على نقض البيعة ويؤيد ذلك انهم ولوا عليهم رئيسا منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا في حروبهم وعادت العائدة عليهم

« وليس فشلهم بالدليل على سوء نياتهم ولكنني أتلو عليك حكاية سمعتها من رجل اثق بصدق روايته قال ان الخوارج عند اول خروجهم من طاعة علي على أثر رجوعهم من صفين نزلوا عند النهروان فرأوا رجلا يسوق بامرأة على حمار فدعوه فانتهروه فأفزعوه وقالوا له من أنت . قال انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله (صلعم) . فقالوا له افزعناك . قال نعم . قالوا لا روع عليك حدثنا عن ابيك حديثاً سمعه من رسول الله (صلعم) . قال انه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسي فيها مؤمنا ويصبح كافراً ويمسي مؤمنا . قالوا لهذا الحديث سألناك فما تقول في

أبي بكر وعمر . فاثنى عليهما خيراً . قالوا فما تقول في عثمان في اول خلافته وفي آخرها . قال انه محق في اولها وفي آخرها . قالوا فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده قال انه اعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وانفذ بصيرة . فقالوا انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً . فأخذوه وكتفوه ثم اقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم حتى نزلوا نخل مواقير فسقطت منه رطبة فاخذها احدهم فتركها في فيه فقال آخر أخذتها بغير حلها وبغير ثمن فألقاها ثم مر بهم خنزير لاهل الذمة فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الارض فاتي صاحب الخنزير فأرضاه . فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم من بأس اني مسلم ما احدثت في الاسلام حدثاً ولقد امنتموني وقلتم لاروع عليك . فأضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء واقبلوا الى المرأة فقالت اني امرأة ألا تتقون الله فبقروا بطنها . هذه اعمال اعداء علي وهذا هو علي كيف نتقم عليه بل كيف نقتله أو نساعد على قتله بل كيف نسكت عن قتله ولا ندافع عنه

الفصل السابع عشر

خاتمة الوصية

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر الصك الذي كتبه على نفسه وتعهد فيه بقتل علي لئلا يزيد غضبه . فظل ساكتاً يفكر في حيلة يتخلص بها من وعده بالتي هي أحسن فلم يسعفه ذهنه على التأمل وقد احس بالتعب الشديد ورأى أبا رحاب قد تعب أيضاً . فقال له « لقد اتعبت نفسك يا جداه بوصايتي فاشكر عنايتك واني أرى في قولك الصواب واطلب اليه تعالى ان يقدرني على العمل به فاسترح الليلة وغداً نصبح ان شاء وقد ارتحنا فنستأنف الكلام » . قال ذلك وأكب على يده فقبلها فرآها قد زادت برودة وجموداً . فقال له جده « نم هنيئاً يا ولدي ولكنني اخشى

ان لا اصبح في الغد فلا بدمن كلمة اقولها وهي خاتمةوصيتي لك » قال ذلك ومد يده فدنا سعيد اليه فعانقه وبكى ثم قال والدمع ملء عينيه وشفتاه ترتجفان وذقنه تهتز « اذا شئت يا ولدي ان يفارق جدك هذه الدنيا مرتاحاً مطمئناً عاهده بأنك تعمل بوصيته أي انك لا تبغي سوءاً للامام علي بل اذا رأيت سبيلا للدفاع عنه دافع بكل جهدك .. هل تعاهدني على ذلك ؟.. عاهدني عليه . واجبر قلبي واذكر اني جدك ووالدك ووصيك وانى ربيتك وكفلتك وانى لا أريد بك الا الخير . هل تعاهدنى على ذلك ؟ قال نعم واجبر قلبي انى قلق عليك ... »

فتأثر سعيد من كلام جده حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكر حنوه وانعطافه فلم يسعه الا الايجاب فعاهده على وصيته

ولكنه لم يكد يعاهده حتى تذكر عهده لقطام في الضد من ذلك فعظم عليه الامر على ان البغتة أنسته هول ذلك التضاد . ورأى في جده ميلا الى الرقاد فدعا الرجل الموكل بخدمته وامره ان يتولى تعهده في اثناء رقاده وخرج الى غرفة اخرى نزع فيها ثيابه والتمس الراحة . أما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعد ما انتابه من الهواجس والمشاغل

على أنه لم يكن يهدأ له بال واذا فكر في حاله ازداد الامر خطورة لديه وهاله ما رمى به نفسه من عهدين متناقضين . فكان كلما تصور عدوله عن قتل الامام علي شعر بارتياح من الخطر الذي كان يخافه على نفسه لو باشر القتل . ولكنه لا يلبث ان يفكر بعهده المكتوب وبقلبه المغلول حتى ترتعد فرائصه ويرتبك في امره فيهب من فراشه كأنه اصيب بخبل

الفصل الثامن عشر

طيف قطام

وما زال في مثل ذلك حتى انقضى نصف الليل وهو لم يغمض له جفن ولم يزدد الا اضطراباً وقلقاً . وضاقت الدنيا لديه فنهض من فراشه وتزمل

ببرده وعباءته وتعمم وخرج يلتمس الخلاء . وكان الظلام مخيماً وقد رقد الناس ولم يبق في شوارع مكة احد . ففرح لذلك الهدوء وسار لا يدري الى أين وهو غارق في هواجسه ولم يسر قليلا حتى شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظل ماشياً تارة يبطىء وطوراً يسرع على غير هدى فما شعر الا وهو بباب المسجد الحرام واحس لساعته بارتياح . فقال في نفسه لادخلن المسجد اصلي ركعتين لعل الله يوحي الي طريقة تخفف اضطرابي . وكان الباب مفتوحاً وصحن المسجد خالياً فتأبط نعليه ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فأحس لساعته براحة فطاف حول الكعبة ثم التمس مكاناً وراءها اتكأ فيه وعادت اليه هواجسه . فأرسل بصره يراقب النجوم السابحة في الفضاء وقد اجتذب بصره جمال القبة الزرقاء وافكاره تائهة في ما احدق به واشتد البرد عليه فأدخل رأسه في العباءة جعلها خماراً . وكأن التعب والبرد تغلبا عليه فخدرا بدنه واستولى عليه النعاس ولكنه لم يكد يغمض جفنيه حتى ابتدرته الاحلام فرأى قطام بجلباب اسود وقد اسفرت عن محياها فبدت عيناها الكحيلتان ورآها تمشي نحوه حافية القدمين على بساط من ريش النعام الابيض . فخفق قلبه لرؤيتها وهم بالسلام عليها فرآها اعرضت اعراض العاتب وعيناها تتلألآن بالدموع فتفطر قلبه لرؤيتها وساءه اعراضها فهم بالاقبال عليها فلم تسعفه رجلاه لما تولاهما من الرعدة فناداها يلتمس قربها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحولت عنه ومشت وهي تنظر اليه شزراً ولسان حالها يقول « لقد خنت عهدي فما انت اهل لي »

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائه على العزم فلم يستطع ولما ابتعدت عنه هم أن يناديها فأفاق من رقاده فاذا هو وحده بجانب جدار الكعبة والظلام محدق به

فمسح عينيه ليتبين حاله أفي يقظة هو أم في منام ولما تحقق انه كان في منام حمد الله ولكنه أيقن انه اذا لقي قطام لا يرى منها غير الاعراض

فمكث صامتاً تتقاذفه الهواجس وهو لا يهتدي الى حل مقنع فنهض يلتمس المنزل ليرى ما تم لجده بعد ذلك الحديث . واشتاق للالتحاق

بالفراش بعد بضع ساعات قضاها فى ذلك الخلاء والبرد القارس . ولم يكد يتلو سورة الفاتحة وهو عائد حتى سمع لغطاً خافتاً كأن اناساً يتسارون . وكان قد وصل الى مقام ابرهيم أمام الكعبة [1] فوقف وأصاخ بسمعه فسمع خطوات بطيئة تقترب من الكعبة وهمساً يتكرر كأن القادمين يتشاورون في امر هام . فانزوى وراء المقام في مكان لا ينتبه اليه احد وخصوصاً في ذلك الظلام ولكنه كان اذا ارسل بصره وقع على الكعبة وحواليها

الفصل التاسع عشر

المؤامرة

فما لبث ان رأى ثلاثة رجال لم يعرف أحداً منهم ولكنه عرف من قيافتهم انهم غرباء على أنه لم يقدر على تمييز ألوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رءوسهم بالعمائم لفاً كالخمار إما اتقاء للبرد واما تنكراً

فأهمه امرهم وخفق قلبه خوفاً من انكشاف مكانه وربما كانوا في مهمة اذا علموا انه اطلع عليها سعوا في قتله . فبالغ في الانزواء وخاف ان يداهمه العطاس فلا يستطيع حبسه فينفضح امره فظل متحيراً . أما هم فوصلوا باب الكعبة واقتربوا من سعيد بحيث يراهم جميعاً ولو كان القمر طالعاً أو كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيداً ولكنه لم يقدر على تمييز شيء منهم لاشتداد الظلام . على انه تأكد من مجمل احوالهم وحركاتهم انهم جاءوا لامر ذي بال احدهم طويل القامة وهو اكثرهم حركة فجلس رفيقاه الاربعاء وظل هو واقفاً ثم جلس القرفصاء وقال « والآن ما لنا ولهؤلاء انهم جبناء تعالوا نبدأ بالامر فيكون لنا الفخر »

قال الثانى وكان قصير القامة ممتلىء الجسم « انى ارى رأيك إذ ما نابنا من هؤلاء الائمة الا الضرر . هم يتنازعون على الخلافة فيقتل المسلمون

(١) السيرة الحلبية ج ٣

بعضهم بعضاً في نصرتهم فاذا قتلناهم رقدت الفتنة . نعم نقتلهم جميعاً » قال ذلك بصوت خافت وفي نطقه لجلجة وكان يلتفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد

فقال الرفيق الثالث وكان لا يزال ساكتاً « انى لا افكر في واقعة النهروان ومن قتل فيها من الابطال والشجعان الا ويقطر قلبي دماً . ان علياً قتلهم لانهم لم يرضوا معه بالتحكيم »

فابتدره الاول الطويل وكان اكثرهم جرأة على الكلام وكان رفيقاه اذا تكلما خفضا صوتيهما اما هو فكان لا يهاب شيئاً فيتكلم بملء فيه فقال « لا يكفينا التذمر والتضجر ونحن سكوت نرى ابناءنا واخوتنا يقتلون في نصرة اولئك الائمة ولا نبدي حراكاً . هلم بنا نريح المسلمين من شرهم »

فلما سمع سعيد حديثهم علم انهم جاءوا للمؤامرة على قتل جماعة من الائمة الامام علي واحد منهم ولكنه لم يعلم من هم الباقون . فجعل يرتعد لتأثره وزاد خوفه على نفسه اذا كشف مكانه . وكان في بادىء الرأي قد ندم على بقائه هناك فلما توسم خطورة ما هم فيه سر لبقائه على انه ما زال خائفاً من الفضيحة فلبث منزوياً وهو يحبس انفاسه خوفاً من السعال أو العطاس فانه لو تنحنح أو عطس لاجفلهم جميعاً وهم على بضعة اذرع منه . ولو قام احدهم ومشى خطوتين نحو مقام ابرهيم لرأى سعيداً أمامه . أما سعيد فكان يفكر في حيلة ينقذ بها نفسه لو كشف مكانه . وكان مع شدة الظلام يخيل له انه في رابعة النهار لخوفه وقد ساعده على ذلك صحو الجو وتلألؤ الكواكب لان السماء كانت نقية لا يحجب نجومها الا سحب رقيقة متفرقة كانت تجتمع احياناً وتتلبد فتزيد الظلام كثافة وقد كان سعيد في [redacted] وراء الكعبة قبل مجيء هؤلاء انما يشاغل نفسه بمراقبة حركات [redacted] سحب . وكان اذا تلبدت أو تكاثفت انقبضت نفسه أما الآن فاصبح لا [redacted] غير الخطر امامه وود تكاثف الغيوم لانها تزيد في احتجابه وقد [redacted] ظام وجده وأصبح قلقاً لاستطلاع سر ذلك الاجتماع

الفصل العشرون

١٧ رمضان

وكان السكوت قد استولى على تلك الجلسة لحظة على أثر كلام ذلك الطويل الجريء . فلما رأى هذا سكوت رفيقيه ابتدرهما قائلا « واذا فعلنا ذلك ما الذي نخافه غير الموت ؟ حبذا الموت في سبيل انقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها . وأصل الفتنة كما تعلمون ثلاثة من كبارنا يتنازعون على الخلافة أو هي السلطة الدنيوية وهم علي بن أبي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص هلم بنا نقتلهم ونريح الناس منهم » (١)

فقال الثاني « لقد وافقتك على رأيك من اول الامر ولكن ما السبيل الى قتلهم وأنت تعلم انهم محاطون بالجند الاعوان فلنفكر في طريقة تضمن لنا الفوز ونأمن بها من الخطر »

فاسرع الاول قائلا « اراك تتردد في القول كأن الامر هالك خطره وكأني بك تخاف كبير اولئك الائمة وتخشى ان يكون حظك قتله . تعالوا نقتسم العمل في ما بيننا . تعالوا نتعاهد على ان يقتل كل منا واحداً من اولئك الثلاثة ولنعين يوماً نباشر العمل فيه معاً فيكون احدنا في الكوفة لقتل علي والآخر في مصر لقتل عمرو والثالث في الشام لقتل معاوية في يوم واحد ويقتل كل منا صاحبه في ذلك اليوم فيصبح المسلمون وقد نجوا من اسباب الفتنة فيختارون خليفة يولونه أمورهم وترجع الخلافة الى بساطتها

ولما سمع سعيد ذلك تهيب لعظم هذا المشروع ولم يصدق انهم يتفقون على القيام به . ولاح له لاول وهلة ان علياً اذا قتل رضيت قطام به وان لم يكن قتله على يده ولكنه تذكر كلام جده ووصيته بان يدافع عن علي لبراءته مما ينسبونه اليه فانقبضت نفسه وما لبث ان شغل عن تلك الهواجس بما دار بين اولئك المتآمرين . فان المتكلم الاول لما فرغ من كلامه ولم يرَ

(١) تاريخ الخميس ج ٢

من رفيقيه تلبيـة لم يصبر حتى يسمع جوابهما فقـال لهما « لا تترددا ولا يهولنكما الامر وهو اسهل ما يكون على ذي مروءة . وكأني بكما تفكران في كيفية اقتسام العمل وتخافان ان يكون نصيب احدكما اصعب مراساً من نصيب الآخر فلا تخافا اني اتعهد بقتل اكبر هؤلاء الثلاثة وأشجعهم . أنا اقتل علياً بن أبي طالب فأتي الكوفة وان يكن مقامي في الفسطاط فأقتله » قال ذلك وأقبل حتى دنا من باب الكعبة وأمسك بحلقته وقال لهما « ها اني امسكت بحلقة الكعبة وأقسم بالله وبهذا البيت الحرام أني اقتل علياً بن أبي طالب وأبذل في سبيل ذلك ما في وسعي وأشهد الله على ذلك »

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه وقد اندفعا الى القسم فامسك كل منهما بحلقة الباب واقسم أحدهما انه يقتل معاوية بن ابي سفيان والآخر انه يقتل عمرو ابن العاص

ولا تسل عن حال سعيد بعد ان تم التعهد على هذا الفعل الخطير وود لو يعرف أولئك المتعاقدين ولكنه لم ير سبيلا الى ذلك . على انه علم من خلال حديثهم ان المتعهد بقتل الامام علي من اهل فسطاط مصر

ثم رأى الثلاثة عادوا الى مجالسهم فقال احدهم وهو السمين القصير « لقد تعاهدنا على قتل هؤلاء الأئمة ولكننا لم نعين اليوم الذي نفعل فيه ذلك وان لم نعينه فشلنا جميعاً »

فقال الثالث « وهذا رأيي انا أيضاً لاننا ان لم نعين اليوم كان المجال واسعاً ونخشى اذا سبق احدنا الآخر ولم ينجح أو قتل أو قبض عليه أن يخافا الباقيان ويرجعا . فلنعين اليوم والساعة »

فقال الاول « ان الساعة لا يمكن تعيينها ولكن نعين الليلة فليكن عملنا في ليلة واحدة . في أي الشهور نحن الآن ؟ »

قالا « في جمادى »

قال « فليكن موعدنا رمضان المبارك حتى لا نعيد الفطر الا والمسلمون

كافة في راحة واذا قتلنا لقينا ربنا وقد فعلنا ما علينا . فاختاروا ليلة من ليالي رمضان »

قال الثاني « أني اختار الليلة السابعة عشرة من ذلك الشهر فما قولكم »[1]

قالوا « انها خير ليلة » ونهضوا وسعيد يخاف أن يمروا به فيروه ولكنهم داروا حول الكعبة كأنهم يطوفون بها ولبث هو ينتظر عودتهم فلم يعودوا . فلما استبطأهم علم انهم خرجوا من باب آخر أو داروا وتحولوا الى الباب الذي دخلوا منه . فرفع رأسه ونظر حوله فلم ير احداً ولا سمع صوتاً فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق انهم خرجوا . فجلس هنيهة يفكر في ما مرّ به وهو يحسب نفسه في حلم لغرابة ما رآه واتفاق حدوثه في الليلة التي اوصاه جده فيها أن لا يقتل علياً . ونظر الى الافق فاستقبلته الزهرة تتلألأ كأنها تبشره باقبال الفجر . وتذكر جده فقال لاعودن الى المنزل قبل أن يطلع النهار ويخرج الناس . فعاد يلتمس البيت

الفصل الحادي والعشرون

آخر العهد بأبي رحاب

ولما اقترب من المنزل خفق قلبه مخافة أن يكون جده قد أصاب حتفه في غيابه فدخل الدار فرأى السكون مستولياً عليها فاستبشر والتمس الحجرة التي كان جده نائماً فيها فرأى المصباح لا يزال مضيئاً فاطل من الباب فرأى عبد الله جالساً بجانب الفراش وجده نائم . فنظر الى عبد الله كأنه يستطلعه الحال فنهض لاستقباله ووجهه باشٌ فاطمأن باله وقبل ان يلقي التحية ابتدره عبد الله قائلا « لقد شغلت بالنا بغيابك فان جدك أفاق من نومه مراراً والتمس أن يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد ألح كثيراً في طلبك »

قال « وكيف هو الآن »

---

(١) ابن الاثير ج ٣

قال « هو في خير وقد رأيناه في راحة لم يذقها منذ أيام »

ولم يتم عبد الله كلامه حتى رأى أبا رحاب يتحرك في فراشه فتقدم نحوه فاذا هو قد فتح عينيه وأشار اليه بيده فدنا منه وجثا أمامه يلتمس منه اشارة

فقال أبو رحاب « أين كنت ياولدى فقد التمسناك مراراً فلم نقف على مكانك »

قال « خرجت في حاجة الى الكعبة واتفق لي حادث شغلني عن المجيء حتى الآن »

فمد الشيخ يده حتى قبض على يد سعيد وضغط عليها كأنه لا يريد ان يفارقه وسعيد صامت لا يبدي حراكا لشدة تأثره من منظر جده الشيخ وقد شعر انه انما ضغط على يده ضغطة الوداع

فترقرقت الدموع في عينيه والتفت الى عيني جده فرآهما غارقتين بالدمع وهما شاخصتان اليه فتفطر قلبه وهم ان يتكلم فابتدره جده قائلا « أراني لاأزال في قلق على مستقبل حياتك وأخشى ألا تكون استوعبت نصيحتي فقد نصحتك وأنا في آخر أيام الدنيا نصيحة أوحي الي أن القيها اليك . وقد تركتني الليلة غارقاً في بحار الاحلام وكأن هاتفا خوفني من غيابك . هل انت باق على عهدي ياسعيد »

قال « لقد عاهدتك ياجداه عهداً وثيقاً اني لا أنوى شراً للامام على ماجيت وأنا باق على عهدي وأزيدك علماً انني لقيت في الكعبة أناساً يتآمرون على قتله وقتل صاحبيه معاوية وعمرو في يوم عينوه وتعاهدوا عليه فلم يبق ثمة حاجة الى سعي »

قطع الشيخ وحملق بعينيه وصاح قائلا « ومن هم هؤلاء »

فلخص سعيد خبره مختصراً وختم كلامه قائلا « اني لم أعرفهم وما استطعت اللحاق بهم خوفاً منهم لانى أعزل »

قال « ألم تعرف الذي تعهد بقتل الامام على »

قال « كلا ولكنني علمت من عرض كلامه انه من مصر ويغلب على ظني انه من الخوارج »

فصمت الشيخ برهة كأنه يفكر في أمر هام ولحظ سعيد من شخوص عينيه وذبول اجفانه وتغير سحنته انه تعب . وأما أبو رحاب فتجلد وقال وصوته يرتجف وقد أصبح لايستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كأن لسانه أصيب بتلعثم « ياليتني كنت بينهم لاقنعهم بالكف عن ذلك ... ولو استطعت استمهال أجلي لسعيت في البحث عنهم فاذا عرفت الساعي في قتل الامام على أرجعته عن غيه بالبرهان ... انهم والله ظالموه » ثم سكت هنيهة ريثما يستريح وعاد الى الكلام وهو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسه وكان تنفسه . قد أسرع وظهر الاضطراب عليه فتحقق سعيد ان جده في حال النزع فارتعدت فرائصه وتخشع قلبه وأسف لحاله ولكنه أصغى لتتمة حديثه فاذا هو يقول « وأما انت ياسعيد فاصغ لقولي واعمل بنصيحتي . . ولا اقبل منك السكوت عن هذا الامر ... وانما انت ... مكلف بالبحث عنه ... انك مكلف بالبحث عن هذا ... الرجل في مصر . . . والشام . . . والعراق حتى تعلم مقره . . . فاما ان تقنعه ... بالعدول . واما ان تنبيء ... الامام بأمره . اني . . . التي . . . هذا الامر على عاتقك . . . فاحذر . . . ان تتقاعد عنه . والا فانك . . قاتل علياً بيدك ... هذه وصيتي لك احتفظ بها ولا تتماهل او تتجاهل . . . والله شاهد . . على ما أقول . هذه ... وصيتي الاخيرة بل . . هذه . . . آخر كلمة أفوه بها في هذه . . . الحياة الدنيا . . . وكنت مستغرباً تأخير أجلي الى . . . الساعة . وكنت احسبني . . . ميتاً منذ أيام ولكن الله ... انما اراد بذلك ... ان أكل اليك . . . هذا الامر . . . . . هذه آخر وصيتي لك ابحث . . . عن هذا الرجل وأرجعه . . . عن غيه . . كما ارجعتك ولو اوتيت . . . عمراً ثانياً لقمت في بني أمية . . . . وفي الخوارج . . . خطيباً اصرح ببراءة . . . الامام على على رءوس الاشهاد ولكن آه . . . ان الساعة آتية . . . لاريب . . . فيها . . .

استودعك ... الله وآخر ك . . . لم . . . ة . أفو . . . لها لك . علي ...
علي . . . دا . . . فع . . . عن على بيدك . . . وقلبك . . . ولسا . . .
ن . . . ك . . .

ولم تخرج هذه الكلمات الاخيرة من فيه حتى اختنق صوته ثم شهق شهقة دوى صوتها في أطراف المنزل وارتخت مفاصله فأفلتت يد سعيد من يده ونظر سعيد الى جده فاذا هو قد أغمض جفنيه ووقف تنفسه . . . فجس يده فاذا هي باردة فلمس جبينه فاذا هو كالثلج وقد فتح فاه وأرسل نفسه الاخير وبطلت حركة الحياة فأصبح تمثالا من تراب . فاقشعر بدن سعيد ولطم يداً بيد « وصاح جداه ياجداه . واويلاه كلمنى زودني نصيحة أخرى . . . » ومامن مجيب فأيقن بوفاته وكان عبد الله قد خرج فعاد ولما رأى أبا رحاب قدمات اخبر اهل المنزل فاجتمعوا وعلا النحيب والبكاء

ولم يكن الحزن على موت أبي رحاب شديداً لتوقعهم ذلك منذ أيام . ولكن سعيداً كان حزنه مضاعفا لامتزاجه بالهواجس والاضطرابات بما سمعه من جده مع ماهو مقيد به من العهود في الضد من ذلك

الفصل الثانى والعشرون

رفيق جديد

وبعد الاحتفال بالدفن عاد سعيد الى صحوه وفكر في حاله فرأى نفسه في مشكلة لايدري كيف يتخلص منها وبعد التأمل الطويل رأى المسألة مع اشكالها ليس اسهل من حلها اذا استطاع اقناع قطام ببراءة على فتتنازل عن الانتقام فلما فتح عليه بذلك توسم فيه خيراً وأحس بانفراج الازمة فاعمل فكرته فى الاسلوب الذي يستولى به على عواطفها ويغير اعتقادها بالامام على حتى تسكت عن الطلب بثأر والدها واخيها منه فخيل له عن بعد ان اقناعها ممكن فهدأ روعه نوعاً

وأسرع في تدبير شؤون أهله وكان في جملتهم شاب اسمه عبد الله رباه

أبو رحاب كما ربى سعيداً وكان يتعزى به ويحبه وهو الذي أنفذه الى الكوفة لاستقدام سعيد فلما مات أبو رحاب تقدم عبد الله الى سعيد أن يأذن له بمصاحبته وبالغ في إلحاحه واستهلك في سبيل مرافقته . فتعجب سعيد لذلك الرغبة في السفر ولم يكن يعهد عبد الله ميالا الى ذلك

والسبب في تلك الرغبة ان أبا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخف عليه ضعف سعيد فارسل انفاسه الاخيرة وهو يخاف عليه غدر الناس وخداعهم . ولكنه استدرك ذلك قبل موته فاوصى عبدالله هذا أن يكون له عوناً فيصحبه حيثما سار فينجده ويرشده وان يكن هو شاباً مثله ولكنه كان أعرف منه باحوال الدهر وأسوأ ظناً في ماجريات الايام

وبعد أيام ودع سعيد أهله واصطحب عبد الله وسارا يطويان الصحراء نحو الكوفة وعبد الله لا يعرف شيئاً من علاقة سعيد بقطام ولا ماتآمر عليه الثلاثة في المسجد الحرام ولكنه فهم من وصية أبي رحاب ان سعيداً كان عازماً على قتل الامام فارجعه أبو رحاب عن عزمه . وسمع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنه لم يتفهمها جيداً . فلما أوغلا في الصحراء فتح عبد الله حديثاً تطرقا منه الى مقتل الامام علي واستأنس سعيد بعبد الله وهو مخلص من فطرته ففتح له قلبه وكشف له عن سره وارتاح لمشورته . ولم يصلا الكوفة حتى أصبح عبد الله عارفاً بكل مكنونات قلبه فشاركه في شعوره من قبيل عهده مع قطام ورجوعه عنه فثبته على وصية جده وهون عليه اقناع قطام الى أن قال « فاذا لم تقنع ليس أهون من أن تعدل عنها والنساء كثيرات وأنا اختار لك فتاة من أجمل الفتيات خلقا وخلقا وارفعهن نسباً لا تقاس بها قطام » وكانا يتحادثان وهما على ناقتيهما يطويان الصحراء طياً

فقطع سعيد عليه الكلام قائلا « لا لا تقل ذلك ليس في الناس أجمل من قطام عندي ولا صبر لي على اغضابها ويظهر انك لم تعان الحب ولا عرفت سلطانه » قال ذلك وتنهد . . . وصبر هنيهة ثم قال « وهب مع ذلك اني لا أحبها ولا أنا عالق بها فان في يدها صكا مكتوباً أخاف اذا أغضبتها

أن تشي بي الى علي أو . . . . ولكنني واثق بصدق مودتها فهي لا تريدني سوءاً بل تبغي رضاي »

فقال عبد الله « اذا كانت تحبك كما تقول فليس أهون من اقناعها بالعدول عن قتل الامام فيهون عليك البحث عن المتعهد بقتله وتردعه عن غيه فاذا لم يرتدع قتلته أو نقلت خبره الى الامام ليرى رأيه فيه »

فارتاح سعيد لهذا الرأي

الفصل الثالث والعشرون

اللجاجة والسذاجة

وأقبلا على الكوفه ذات يوم والشمس قد مالت الى المغيب وكان سعيد قد قضى ذلك النهار وهو يستحث ناقته لعله يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن من المسير الى بيت قطام اذ لاصبر له على فراقها وهو على مقربة منها فلما دنا الغروب وهو لم يدخل الكوفة انقبضت نفسه وأدرك عبد الله انقباضه مما آنسه فيه من السكوت التام فأراد ان يصرف ذهنه عن ذلك فقال له « وهل نحن بعيدون عن منزلك »

قال « لا نلبث أن ندخل المدينة حتى تدنو منه لانه في اطرافها »

قال « انى لأكاد أصدق بوصولي لاستريح من وعثاء السفر وأتخلص من ركوب الجمال فقد أتعبني جريها وخصوصاً في هذا النهار »

قال سعيد « اني أراني في الضد من ذلك وتحدثني نفسي أن أصلي العشاء في المسجد قبل المبيت »

فأدرك عبد الله انه انما يريد زيارة قطام ليطلعها على وصية جده ويرى مايبدو منها اذا علمت بما عول عليه فرأى أن يثنيه عن زيارتها ريثما يفاوضه في الامر ويهيء الحيلة في مخاطبتها لئلا يفشلا لعلمه بسلامة نية سعيد فخاف عليه السقوط في مايخشاه . فقال له « دعنا نصلي العشاء معاً في المنزل ونصبح ان شاء الله فنصلي في المسجد »

فلم يراجعه سعيد حياء وقال له حسناً رأيت . ولكنه عول في باطن سره على الذهاب خلسة الى منزل العجوز لبابة يتجسس الحال

وما لبثا أن دخلا الكوفة وقد أمسى المساء فالتمسا منزل سعيد فترجلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالنعاس فذهب كل الى فراشه

وتربص سعيد ريثما ظن رفيقه نام فالتف بعباءته وانسل الى بيت لبابة وقضى طريقه يفكر بعبارة يبدأ بها الكلام . فوصل المنزل فرأى لبابة خارجة منه وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها فبغت لرؤيتها وحياها فردت التحية وهي لاتصدق انها تراه . فلما تحققت انه سعيد رجعت وهي تبالغ في الترحاب به وتضحك ضحكتها المعهودة . فاستأنس بلهفتها ثم مالبث أن تذكر ماجاء به من الامر الجديد حتى انكمش قلبه ولكنه تبعها حتى وقفا بباب الغرفة فأمرت عبدها أن يضيء المصباح وعادت الى مخاطبته فسألته عن ساعة وصوله . فقال « اني وصلت الساعة ومع شدة تعبي من السفر الطويل لم اصبر على مشاهدتك قبل المنام »

فقهقهت قهقهة دوى لها البيت وخيل له لفرط قلقه أن عبد الله يسمعها فقال لها بصوت خافت « وما الذي يضحكك ياخالة »

قالت « لقد اضحكني شوقك الى رؤية هذا الوجه القبيح (وأشارت الى وجهها) وأنت انما تشتاق الى رؤية وجه أجمل منه . . . أليس كذلك . ؟ »

فقطع كلامها وهو يبالغ في خفض صوته وقال « لا والله اني الآن في شوق اليك أكثر من شوقي الى قطام لاني وقعت في مشكل لا أرى أحداً ينجيني منه سواك فاسعفيني برأيك ودهائك . وأرجو قبل كل شيء أن تعتبري قدومي اليك الآن سراً تكتمينه عن كل انسان لان معي رفيقاً صحبني من مكة فلما وصلنا الكوفة ورأى في ميلا الى الخروج أقعدني الى الصباح فاستحييت وبقيت فلما استغرق في نومه جئت خفية . . »

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد يقول « لقد عودتني ياخالة أن تكوني عونا لى في مصائبي وانت التي بمهارتك ودهائك

أقنعت قطام بزواجي فالتمس منك الآن أن تقنعها بما جئت به اليك »

فعجبت العجوز لاهتمامه الشديد ولو كان قلبها حياً لخفق واضطرب ولكنها تعودت الاهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يخيفها أمر . فقالت « قل ما بدا لك اني مستودع أسرارك ولا آلو جهداً في خدمتك »

فتنهد سعيد وسكت وهي تحدق فيه بعينيها الغائرتين . وبعد هنيهة قال لها « لقد جئتك بأمر لا أدري كيف أبدأ الحديث به »

قالت « قل لا تبالي ولا تجزع فاني عركت الدهر ولقيت الاهوال حتى لم أعد أستغرب أمراً . . . قل ما بدا لك »

الفصل الرابع والعشرون

كشف الامر

قال سعيد « أنت تعلمين أني عاهدت قطام على قتل الامام علي »

قالت « نعم أعلم ذلك »

قال « وهل تعلمين لماذا خرجت الى مكة »

قالت « علمت أنك شخصت اليها ولكنني لم أعلم سبب شخوصك »

قال « شخصت اليها اجابة لطلب جدي رحمه الله »

قالت « جدك أبو رحاب ؟ ما الذي أصابه ؟ »

قال « انه مات بعد وصولي مكة بيوم واحد وكان قد بعث اليّ ليراني قبل الممات »

قالت « مات أبو رحاب ! . رحمة الله عليه . انه كان رفيقاً بك شفوقاً عليك وأنا أعلم كيف ربيت في حجره وقد كان أحن عليك من الوالد . ولا شك ان موته شق عليك كثيراً . وكم كنت تود أن يبقى حياً ليفرح بك ويشهد زواجك بعد ان يعلم بما تعهدت به لتنقذ بني أمية من العار و . . . . »

فقطع كلامها قائلا « آه ياخالة لقد كنت أظن ذلك قبل أن قابلته

ولـكنني ما لبثت أن ندمت على ذهابي اليه لانه حملني قبل موته حملا لا أدري كيف أتصرف به »

قالت « وماذا عسى أن يكون ذلك »

قال « ان ما ظننته سبباً لارتياحه قد رأيته داعياً لغضبه »

قالت « هل أخبرته بعزمك على قتل علي »

قال « نعم اخبرته ولـكنه أنكر عليَّ قتله وأوصاني وهو على فراش الموت ان لا أمد يدي الى هذه الجريمة لان هاتفاً جاءه وانبأه ببراءة الامام علي مما يتهمونه به »

وكان سعيد يتكلم ولبابة شاخصة اليه وقد أسفت لخيبة مسعاها ولـكنها لدهائها ومكرها لم تبد حراكاً ولا أظهرت استغراباً بل تشاغلت باصلاح خمارها تنتظر آخر الحديث

وأما سعيد فكان يخاطبها وهو يتوقع بغتتها او غضبها فلما رآها صامتة مصغية تجرأ على اتمام الحديث فقال « ولما سمعت كلام جدي دافعته فرأيت منه اصراراً على رأيه وقص عليّ شيئاً كثيراً من الادلة والشواهد المؤيدة لقوله »

قال سعيد ذلك وسكت وهو ينتظر ما تقوله العجوز فرآها لا تزال صامتة ولم يبد على وجهها شيء من الاستغراب فعطف بحديثه الى المؤامرة التي شاهدها في الـكعبة ظناً منه انها توازن ما تقدم من الحديث الغريب . فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الامام على وعمرو ومعاوية رأت فيها تعزية ولـكنها أظهرت الاستخفاف بما تآمروا عليه وأرادت ان تتحقق ما عوّل هو عليه فقالت « وهل علم أبو رحاب قبل موته بتلك المؤامرة »

قال « نعم اني اطلعته عليها قبل ارسال نفسه الاخير ببعض الساعة فلم يزدني الا ثقلا بوصية قالها وهو في آخر ساعات الدنيا . . آه من تلك الوصية »

قالت وما هي

قال « انه أوصاني ان لا اكتفي بالـكف عن قتل الامام على بل يجب عليَّ ان ادافع عنه فلم ار بداً من اجابة طلبه وأنت تعلمين مركزي في

مثل هذه الحال ... ولكني لم اعاهده الا بعد ان تفطر قلبي لدموعه التي كانت تتحدر على لحيته وقد شخصت عيناه وتلعثم لسانه وتلجلج صوته حتى خيل لي ان عظامه تتكلم . . »

الفصل الخامس والعشرون

غاية الدهاء

فلما تحققت لبابة عدوله عن عهده خافت اذا اظهرت له الاستياء ان يبوح بامرها وامر قطام الى علي وهما في الكوفة فينتقم علي منهما فارادت ان تخادعه فتأخذ منه ولا تعطيه فقالت « ولماذا لم تعاهده فان كلام مثل هذا الشيخ الجليل يعتبر خارجاً من افواه الملائكة »

فلما سمع سؤالها انشرح صدره فابتسم وقال بكل بساطة « كيف لم اعاهده وهل استطيع غير ذلك . ولكنني اعترف لك اني عاهدته وخاطري منشغل بقطام وعهدها لعلمي ان ذلك العهد يحرمني منها . . » ثم عطف فقال « ولكنني لما تذكرت حبك لي وغيرتك علي هان الامر وقلت ان ما يعسر على مثلي يهون على خالتي لبابة . . . بالله . . الا ساعدتني على اقناع قطام بالعدول عن عزمها على قتل الامام علي وانه والله بريء مما اتهموه به . . بالله ساعديني واشفقي علي فقد وقعت في حيرة بل هي مصيبة لا ينجيني منها سواك . . » قال ذلك وجثا امامها وهم بيدها وقبلها وقد كادت العبرات تخنقه

فتظاهرت تلك العجوز المحتالة بالحنو وتبسمت وهي تجذب يدها من بين يديه لتمنعه من تقبيلهما وأجلسته في مكانه وقالت « طب نفساً يا ابني اني فاعلة ما تريد وارجو ان يساعدني الله على اقناعها . . . »

فلما سمع سعيد قولها لم يتمالك عن الابتسام والدمع ملء عينيه اعجاباً بحنوها وفرحاً بنيل بغيته التي لم يكن يتوقعها ولا بالمنام وفرح بمجيئه في تلك الليلة ومقابلة لبابة قبل مقابلته قطام

أما لبابة فنظرت اليه وهي تحك ماوراء أذنها برأس سبابتها كأنها تفكر في ما تختلقه من الاسباب لاقناع قطام وهي بالحقيقة تدبر حيلة لخداع سعيد ثم قالت « طب نفساً ولا تبالى فاني أؤكد لك الفوز اذا أطعتني . . . » فابتدرها قائلا « اني طوع ارادتك في كل ما تأمرين هذا مالي وكل ما املكه بين يديك بالله اشفقي علي »

وكان سعيد يتكلم ولبابة مطرقة . فسكت هو وظلت هي مطرقة ثم استأنفت الحديث بغتة فقالت « سبحان الله لقد مر علي أيام وأنا مستغربة ما يبدولى من قطام على غير المعتاد والظاهر ان الكلام الذي فاه به جدك في مكة اثر في قطام هنا ولا ادري ما هو هذا التأثير »

فدهش سعيد مما سمعه وقال « ماذا تعنين »

قالت « أعني انى آنست في قطام تغيراً غريباً بعد ذهابك فانها لم تعد تذكر الانتقام قط وقضت أياماً عديدة كأنها في حيرة أو كأن امراً طرأ عليها لا تتكلم الا قليلا فعسى ان يكون ما غيرك قد غيرها . وعلى كل حال كن في راحة وسكينة وأنا ادبر الامر فلا تذكر انك جئت الىّ ولا انك رأيتني قبل رؤيتها »

قال « بارك الله فيك . والله ان قضيت لى هذه المهمة لا أدري كيف اكافئك . ولكنني أتقدم اليك ان لا تذكري زيارتى هذه أمام احد وخصوصاً رفيقي عبد الله »

قالت « سمعاً وطاعة فعليك اذاً ان تأتى غداً لزيارتها في منزلها وأكون أنا هناك ولا تزد على السلام والكلام . واحذر ان تذكر شيئاً يتعلق بهذا الامر الا اذا هي خاطبتك به وسنرى ماذا يتم . . وهل تنوي اصطحاب رفيقك غداً »

قال « انه سيكون معي ولا بأس من الخوض في الموضوع بين يديه لانه بمنزلة أخي »

قالت « حسناً فليكن كما تريد وفقنا الله لما فيه خيرك وراحتك »

فازداد سعيد اعجاباً بغيرتها وحنوها فقال لها « اسمحي لى ان اقبل

يدك فاني لما فقدت جدي الذي كان بمنزلة والدي حسبت نفسي صرت يتيما ولكنني تحققت الآن من حنوك اني ما زلت مرموقاً بعين العناية . ها اني قد القيت الحمل على عاتقك فدبري الامر كما يلوح لك » . قال ذلك وقبل يدها مراراً ونهض ونهضت لوداعه وهي تقول له « ثم مرتاحاً وموعدنا اللقاء غداً في بيت قطام »

خرج سعيد من عندها وقلبه يطفح سروراً لنجاته من شر عظيم . وما درى مانوته تلك القهرمانة من اساليب الخداع . فلما توارى عنها عادت الى غرفتها وعملت فكرتها الخبيثة في حيلة تنطلى عليه بحيث يصدق عدول قطام عن عزمها . ولولا خوفها من ان يشي هو بها وبقطام الى علي اذا انكرت عليه وصية جده لجاهرت بمقاومته ولكنها رأت من الفطنة والدهاء ان تجاريه على رأيه وتحمل قطام على مشاركتها في ذلك ثم تحتالان في بقاء المؤامرة مكتومة حتى ينفذ المؤامرون عهدهم فيقتل علي . وما درت لبابة ان قطام أشد دهاء منها وأعظم حيلة وانها ستزيد على ذلك وسيلة اخرى للفتك بسعيد على اهون سبيل

ولم تعد لبابة تستطيع رقاداً قبل مكاشفة قطام بالامر لتدبير الحيلة قبل مجيء سعيد فنهضت لساعتها وسارت الى قطام

الفصل السادس والعشرون

لقاء قطام

أما سعيد فانه خرج والفرح ملء فؤاده حتى أتى منزله فرأى رفيقه لا يزال نائماً لفرط تعبه فسر لذلك سروراً عظيما ومضى الى فراشه ولكنه لم يستطع رقاداً لشدة تأثره فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليله وهو يفكر في ساعة اللقاء غداً ولا يصدق أن يلقى قطام على مثل رأيه . فلما تصور عدولها عن قتل علي كاد يطير من الفرح بما سينالهُ من الاقتران بها ثم يعترضه كلام جده وما كلفه به من السعي في الدفاع عن

على وردع الساعي في قتله فيختلج قلبه في صدره لهول ذلك الامر . ولكنه لم يكن هذا شيئاً لديه بالنظر الى ما يتوقعه من السعادة بالحصول على قطام

ولم تغمض اجفانه الى الصباح ولم يكد ينام حتى افاق مذعوراً وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفته فأسف لابطائه في الفراش والوقت ثمين فنهض لساعته وخرج يلتمس عبد الله فاذا هو قد لبس ثيابه ووقف يصلي فصلى معه وهو لا يفقه ما يقول

فلما فرغ من الصلاة قال له عبد الله « لقد ابطأت في رقادك يا أخا أمية »

قال « انما ابطأت لهول ما لقيناه من التعب فى الطريق »

فصدقه عبد الله وجلسا لتناول الطعام وسعيد غارق في بحار الهواجس وقد أدرك عبد الله ذلك فيه ولكنه حسبه من قبيل الشوق الى قطام فقال له « ألا تنوي الذهاب الى قطام »

قال « بلى أرى ان نسير اليها لعل الله يأخذ بيدنا ونرى منها انصياعاً للحق فتعدل عن عهدها »

فأراد عبد الله ان يختبر ثباته فقال « وهب انها لم تقبل بذلك فاذا تفعل . هل تبقى على عزمك أم ترجع عن وصية جدك »

قال سعيد « انا نبذل جهدنا في اقناعها فاذا لم تقتنع ظللنا على عزمنا فان وصية جدي مقدسة »

فسر عبد الله لثباته وهو لا يعلم ان سعيداً لم يقل ذلك الا بعد ما أملته به لبابة من اقناع قطام ولولا ذلك لتردد فى الجواب كثيراً وربما فضل البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده لان غرامه بتلك الفتاة الفتانة غلب على كل جوارحه

فلما آنس عبد الله ذلك الثبات فيه استعجله فى الذهاب الى قطام مخافة ان يطرأ عليه ما يضعف عزيمته . وكان عبد الله قد عول فى باطن سره اذا آنس فيه تردداً أن يثنيه عن الذهاب اليها . فلما فرغا من الطعام نهضا ومشيا يلتمسان بيت قطام

ولا حاجة بنا الى بيان ما جال في خاطر سعيد مما سيقاسيه ساعة اللقاء من الاضطراب ولكنه سار مطمئن الخاطر لما ألقته اليه لبابة من المواعيد

ووصلا المنزل فأطلا على الحديقة فاختلج قلب سعيد في صدره لتذكره الليلة التي لقي بها قطام هناك وما وقع له معها من تبادل عبارات الغرام. فدخلا الحديقة وفيما هما يسيران بين النخيل رأيا لبابة واقفة بالباب وهي تبتسم. فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقه يسير في أثره حتى دنوا منها فحياها سعيد كأنه لم يرها بعد رجوعه. فسلمت عليه فقدم لها رفيقه فعرفها به فرحبت بهما ودخلا حتى أقبلا على غرفة قطام فاذا هي واقفة الى نافذة تطل على البحيرة وقد لبست جلباباً أسود فوقه خمار أسود فلما أقبلا أرخت خمارها وتحولت نحوهما فحياها سعيد وذكر اسم رفيقه لها وهو يقول « لقد أتيت ومعي صديقي وأخي عبد الله فانه انيسي ومساعدي »

فرحبت بهما ودعتهما للجلوس فجلسا وجلست هي وكلهم سكوت وبعد السكوت برهة تكلمت العجوز قائلة « لقد أوحشتنا ياسعيد بغيابك طول هذه المدة وقد أخبرنا ريحان أنك أتيت يوم سفرك الى هذا المنزل فلم تر قطام فشغلت بالنا لسرعة ذهابك فعسى ان يكون الباعث خيراً »

فتنهد سعيد وقال « كلا انه لم يكن خيراً ياخالة لاني ذهبت الى جدي أبي رحاب في مكة اجابة لدعوته على يد أخي عبد الله »

فأظهرت لبابة البغتة وقالت « وماذا عسى أن يكون سبب استدعائك »

قال « انه دعاني لاراه قبل موته بعد ان هرم وغلب عليه الضعف والمرض ولما تحقق دنو أجله أراد ان يراني قبل الممات فسرت ولم ألبث معه الا ليلة ثم قضى نحبه رحمه الله »

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كأنها لم تسمعه من قبل وقالت « هل مات جدك ؟.. رحمة الله عليه وعزاك الله وأبقاك » . ثم تنهدت كأنها تذكرت من فقدتهم وقالت « ان موت الاهل شديد الوطأة ياسعيد وخصوصاً اذا كان الميت لم يهرم مثل أبي رحاب »

وكان عبد الله يراقب حركات قطام وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيداً على افتتانه بها ولكنه خاف أن تبقى على عهدها فتخرج من نصيب سعيد فود الاستطراق الى الموضوع ليرى مايبدو منها ثم تذكر أن وجوده هناك لاول مرة قد يكون باعثاً على تجنب البحث في ذلك الموضوع فتظاهر بغرض يحتاج اليه خارجاً ونهض وخرج وخرجت لبابة في اثره اتماماً لحيلتها

الفصل السابع والعشرون

منتهى الدهاء

فلما خلت قطام بسعيد قالت له « ومن هو هذا الشاب هل انت واثق به »

قال بنغمة المحب المفتون « انه رفيق صباى وموضع اسراري ولااخشى بأسا من اطلاعه على كل شيء »

قالت « وهل اطلعته على عهدنا »

قال « نعم ياحبيبتي وهل ترين مايمنع ذلك »

قالت « كلا لاأرى مانعاً ولكنني أود انك لم تطلعه عليه لخاطر خطر لى بعد ذهابك الى مكة »

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال « لاأرى بأسا في ذلك لانى اعرف ضميره ولى به ثقة تامة . وما الذي خطر لك »

قالت « سأقصه عليك وأرجو أن تطاوعني عليه ولا تطالبني بما سبق بيننا من العهود »

قال « قولى ماتريدين . وما تريدينه انما هو العهد الذي نتعاهد عليه . فاني رهين اشارتك »

قالت « اتذكر انك جئت الينا يوم سفر ولم تجدني في البيت ؟ »

قال « كيف لا أذكر ذلك وقد كان له تأثير شديد على »

قالت « أتدري أين كنت يومئذ »

قال « كلا »

قالت « خرجت الى أهلي لزيارة . ولم يكن غرضي مجرد الزيارة ولكنني بعد أن عاهدتك على قتل أمير المؤمنين شعرت بقلق واضطراب ولم أذق رقاداً تلك الليلة . فلما أصبحت قلت في نفسي لعل سبب هذا القلق ذنب ارتكبته بما سعيت فيه على الامام وهو لا يستحقه . فلاح لي أن امضي بنفسي الى أهلي وابحث عن حقيقه الواقع فرأيت بعد البحث ان الذنب في قتل والدي وأخي لم يكن ذنبه هو وتحققت انه بريء وانه نصح لهما مراراً قبل الواقعة أن يرجعا فابيا ولما احتدم النزال وعلم انهما تحت خطر القتل أوصى ان لا يصيبهما أحد بسوء . ولكن بعض الاغرار قتلهما بغير علمه ولما علم هو بذلك غضب على القاتل وانتقم منه . فشعرت في تلك الساعة بارتكابي أمراً عظيما بما نويته وعولت على تحويلك عما تعاقدنا عليه : فقضيت مدة غيابك وأنا في حيرة لا أدري كيف ابدأ باقناعك . وحفظت ذلك في سري حتى عن خالتي لبابة »

ولم يتمالك سعيد عند سماعه ذلك عن الوقوف بغتة بغير ارادته وقبل أن يجيبها على خطابها نادى عبدالله ولبابة فجاءا فالتفت سعيد الى عبدالله وقال له « تعال اسمع ياأخي مادبره الله لنا من اسباب السعادة . فانا لم نتكلف في اقناع قطام الى مشقة . بل هي تريد اقناعنا بالعدول عن العهد الذي أخبرتك عنه »

فاظهرت قطام الاستغراب وقالت « وكيف ذلك ياسعيد وما الذي جئتنا به عساه خيراً »

فتعرضت لبابة للكلام فقالت « يظهر انك جئتها بمثل ماجاءتك هي به »

قال « نعم ياخالة واحمد الله على ذلك فاني جئت من مكة وقد اقتنعت ببراءة الامام على وتقيدت بعهد عاهدت به جدي ألا أقتل علياً وكنت خائفاً ألا توافقني قطام عليه وهي اذا لم تفعل ذلك كنت من أشقى الناس . فالحمد لله على ماجرى » وجلس يقص عليهم حديث جده ووصيته فظهرت لوائح البشر والسرور على الجميع . ثم استطرد الى حديث المؤامرة فلما ذكر

ان أحد المؤامرين تعهد بقتل الامام على تظاهرت قطام بالغضب وقالت «ألم تعرف من هو الرجل »

قال« لم أعرفه ولكنني علمت من سياق الحديث انه من فسطاط مصر »

قالت« أما وقد علمت بعزم هذا الرجل فاصبح السكوت عنه مشاركة له في القتل فلا بد من ردعه أو قتله »

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال « وقد فاتني أن أخبرك بان من جملة وصية جدي أن أسعى في ذلك جهدي »

فقالت« وهذا ما أراه أنا أيضا لان السكوت عنه أصبح جريمة ولكني أرى أن يبقى أمر هذه المؤامرة مكتوماً بيننا فلا نطلع عليه أحداً لئلا يسبقنا أحد الى اكتساب الفخر في رده أو ان المؤامر اذا علم باشتهار أمره ونحن لم نعرفه بعد يعجل بالقتل فيذهب سعينا عبثاً . ألا ترى ذلك ياعبدالله؟»

فدهش عبد الله من ذلك الاتفاق الغريب ولو علم بزيارة سعيد للبابة لانكشف له سر الحيلة ولكنه أخذ الامر على ظواهره فقال « لقد رأيت الرأي الصواب وها اني مستعد للسعي في ردع ذلك الرجل مع أخي سعيد»

قالت « وما الذي تنويان فعله »

قال سعيد« ارى ان نذهب الى الفسطاط ونبحث عن الرجل لنعلم من هو أولا فاذا عرفناه هان علينا ردعه »

فقالت قطام « وما الفائدة من ذهابكما وانتما لاتعرفان الرجل ولا تعلمان شيئاً من أمره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه . هل ذهبتما الى الفسطاط قبل الآن وهل تعرفان احداً هناك ؟ »

قال عبد الله« اني اعرف الفسطاط ولكنني لم أقم فيها طويلا ولا اعرف احداً من اهلها ولكننا نبحث جهدنا »

الفصل الثامن والعشرون

الاجتماعات السرية في عين شمس

فتقدمت لبابة وهي تظهر الاهتمام وكأنه قد فتح عليها برأي سديد فقالت « اجلسوا لاهديكما الى طريق يهون عليكما كل صعب »

فجلسوا جميعاً وكانوا لايزالون واقفين

فقالت « لاتسخروا برأيي لانى عجوز فاني أعرف من الاسرار مالا يعلمه الا الله . اعلموا أن في مصر من مريدي الامام على أحزاباً جمة اذعنوا لعمرو بن العاص على الرغم منهم وهم صابرون على ما أصابهم من مقتل ابن أبي بكر وهم جماعة كبيرة لايزالون ينوون الانتقاض اذا سمحت الفرصة . هل تعلمون ذلك ؟ »

قال عبد الله « أهذا ماتفاخريننا بمعرفته ولا يجهله أحد من المسلمين فانى عالم به وباكثر منه »

قالت « وما الذي تعلمه فوق ذلك »

فابتسم عبد الله ابتسام الاستخفاف وقال « انى أعلم أموراً كثيرة تلقنتها من جدنا ابى رحاب رحمه الله وقد أوصاني أن لا اطلع عليها أحداً غير أخى سعيد لانها تنفعه في جهاده بالدفاع عن امير المؤمنين »

فتوسمت لبابة من وراء ذلك سراً لانها لم تقل ماقالته الاوهى ترجو الاطلاع عليه فهزت كتفها والتفتت الى قطام التفاتة ففهمت قطام مرادها فابتدرت عبد الله قائلة بنغمة الدلال « اذا كنت تلقنت ذلك سراً فاحفظه ولا تبح به لاحد من الخوارج نظيرنا . . . »

فخجل عبد الله من توبيخها اللطيف ونظر الى سعيد فرآه شاخصا اليه كأنه يتوقع تصريحه بذلك السر بين يدي قطام لئلا تسيء الظن بهما

فقال عبد الله وفي كلامه لهجة الاعتذار « حاشا يامولاتي . انى لاأعني كتمان السر عنك بعد ان رأينا منك الموافقة على الدفاع عن امير المؤمنين

بل بعد ان كنت انت الداعية الى الدفاع عنه . ولكنني قلت ماقلته ببساطة ولكي تتأكدي صدق نيتي اسمحي لي أن ابسط ذلك السر بين يديك ويدي خالتي لبابة » قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كأنه يحاذر أن يسمعه رقيب أو عدو فاصغى الجميع لسماع كلامه فقال « علمت من جدي رحمه الله ان في الفسطاط كما قالت خالتي جمهوراً كبيراً لايزالون على دعوة الامام على وهم متحدون قلبا وقالبا في القيام بنصرته ولهم اجتماعات سرية يجتمعون فيها للمفاوضة في الوسائل المؤدية الى ذلك » ولما بلغ الى هذا الحد تعلثم لسانه كأن شيئا أوقفه عن اتمام الحديث وارتبك في كلامه فسكت

وظهرت البغتة عليه وقد ندم على مافرط منه وعول على الاقتصار على ماقاله فادركت لبابة المحتالة سبب توقفه فابتدرته قائلة وهي تضحك « أنعم به من سر عميق لم يطلع عليه أحد اني لاأراك زدت على قولى حرفا واحداً . فقد قلت ان دعاة على باقون على دعوته فلم تزد على ذلك الا انهم يجتمعون سراً . وهذا أمر مفهوم بالقرينة فكأنك ندمت على ثقتك بنا فبدأت بالحديث ثم قطعته ولا ألومك على ذلك فانك لاتعرفنا قبل هذه الساعة »

فقطعت قطام حديثها قائلة « تقولين انك لا تلومينه وأراك عاتبة عليه دعيه لئلا يظننا راغبين في استطلاع سره لغرض لنا ونحن انما نريد بعض مايريده عبدالله فلاحاجة لنا في سره ولكننا نوصيه ان يقوم بمؤازرة سعيد في ماأوصاه به جده وهذا يكفينا » ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة « لقد سرني من رفيقك محافظته على السر حتى عن هذه الحقيرة التي بعد ان كانت أول الناقمين على علي اصبحت من اكبر المدافعين عنه وهب انه اراد افشاء ذلك السر فما نحن سامعون مايقول اذ ربما وسوس لنا الشيطان فبحنا به الى الاعداء . . . »

فوقع كلام قطام في قلب سعيد موقع السهام وغلب عليه الحياء والتفت الى عبد الله وقال « لاطاقة لى باحتمال هذا التأنيب يا عبد الله قل ماتعلمه

سمعته قطام أم لم تسمعه وما انا خارج من هذا المكان قبل ان اسمع بقية الحديث »

فندم عبد الله على ما فرط منه واصبح لا يدري كيف يتخلص من ورطته وارتباكه . ولما رأى الحاح سعيد هان عليه التصريح بما لديه وهو لا يرى في ذلك لوماً عليه فقال « أراكم تتهمونني بذنب انا براء منه فاني لم اتوقف عن اتمام الحديث ضناً به على قطام بعد أن تحققت اخلاصها في الدفاع عن علي ولكنني صبرت ريثما استجمع كلام جدي بحرفه فاذا أذنت قطام تلوته عليكم حالا »

قال سعيد « قل انها تريد واذا سدت أذنيها عن سماعه فأنا أسمعه »

قال عبد الله «اخبرني ابو رحاب رحمه الله ان دعاة الامام علي يجتمعون سراً في معبد قديم خارج الفسطاط في مكان يعرف بعين شمس يتفاوضون فيه سراً في يوم الجمعة من كل أسبوع »

فسرت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السر ولكن لبابة لدهائها ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والانكار وقالت « أهذا هو سرك العظيم انه باطل لا يقبله العقل »

فاغتاظ عبد الله لانكارها وقال « وما الدليل على بطلانه يا خالة »

قالت « تقول ان دعاة علي يجتمعون هناك كل جمعة ونحن نعلم انهم يعدون بالالوف فكيف يسعهم ذلك المعبد . وهب انه وسعهم فكيف يجتمع الالوف منهم كل أسبوع ولا يدري بهم عمرو بن العاص وعيونه مبثوثة في أطراف الفسطاط أليس ذلك باطلا »

فسر عبد الله لاستخفافها بكلامه اذ لا يكون لافشائه تأثير وود الوقوف عند هذا الحد فلم يرض سعيد بذلك بل أخذ على نفسه تفسير مقاله وهو يحسب انه أتى جديداً فقال « ان عبد الله لا يعني باجتماع دعاة علي انهم يجتمعون جميعاً كباراً وصغاراً ولكنه يريد أن رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط » فضحكت لبابة وتظاهرت بالرد عليه . فقطعت قطام كلامها قائلة « يظهر يا خالة انك انما تريدين المزاح فقد كلفت عبد الله الافشاء

بالسر ثم جعلت تجادلينه ونحن كما قلنا لا يهمنا من الامر الا الوصول الى الغاية المقصودة وهذا يكفي »

الفصل التاسع والعشرون

عهد جديد

ثم وجهت قطام كلامها الى سعيد قائلة « دع لبابة وتخريفها واسع في ما أنت ساع فيه . فسر الى دعاة علي حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب . ولا أوصيك إلاّ وصية واحدة ذكرتها في بدء الحديث وهي أن تبقي هـذا الامر مكتوماً بيننا عن كل انسان حتى نعرف من هو ذلك الخائن الذي يريد قتل الامام على فاذا عرفناه إما أن نرده عن غيه أو أن نرى رأينا فيه على ما تقتضيه الحال . أما اذا أشعنا خبره الآن فانه يبالغ في التستر وربما أسرع في انفاذ سهمه فيقتل أمير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثاً . أما الآن فنحن على يقين انه لا يقدم على ذلك الا في ١٧ رمضان ونحن لا نزال بعيدين عنه . وزد على ذلك انك اذا حفظت هـذا الامر مكتوماً وتفردت في البحث عنه كان الجزاء لك وحدك ولا أشك أن يكون عظيماً . ولا أرى فائدة من اطالة البحث . ولكي تتحقق شدة رغبتي في الاسراع ابدل عهدي ابدالاً يسرك فبدلا من أن يكون اقترانا موقوفاً على قتل الامام على فقد جعلته وقفاً على انقاذه من القتل فاذا كنت تحبني (وهذا ما لا أشك فيه) بادر الى العمل وهذان عبد الله ولبابة شاهدان على ما أقول »

وكان سعيد بعد أن تغير وجه المسألة يرجو أن يقترن بقطام قبل ذهابه في هذه المهمة . فلما سمع كلامها خجل من مراجعتها لئلا يقال انهـا أشد رغبة منه في الدفاع عن علي فانطلت الحيلة عليه ولم يسعه الا اجابتها فقال : « وهذا ما عولت عليه أنا أيضاً لكي يتم عقد النكاح على يد الامام نفسه بحول الله »

وكان عبد الله في أثناء ذلك صامتاً يسمع الحديث وقد خامره شك في كلام قطام وندم لتسرعه في افشاء السر فظل صامتاً لئلا يقع في مايزيد ندمه وشعر لساعته بما أوتيته تلك الفتاة من الدهاء . ولم ير خيراً من اظهار ثقته بها وبصدق لهجتها فأخذ يطري غيرتها ويثني على صدق مودتها فقال لها « انى أعد أخي سعيداً من أسعد خلق الله لتوفقه الى هذا النصيب فاطلب اليه تعالى أن يوفقنا الى ما نحن ساعون فيه »

ثم قال « وقد أصبت بوجوب كتمان ذلك عن كل انسان بارك الله فيك » والتفت الى لبابة فقال « وأنت ياخالة نرجو أن تواصلينا بأدعيتك الصالحة وآرائك الصائبة »

فقالت لبابة « وأما الرأي عندي فالاسراع في الامر فعليكما بالسفر حالا الى مصر واطلب الى الله تعالى أن يوفقكما ويسهل طريقكما واذا أتيتما الفسطاط اطلباهين شمس في يوم الجمعة ولا تعدمان من أنصار أمير المؤمنين من يرشدكما الى الباغي »

وقضوا برهة فى أحاديث أخرى ثم انصرف عبد الله وسعيد وفي نفس عبد الله شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها لما آنسه من اخلاصه لقطام وارتياحه الى مواعيدها ولكنه عول على اغتنام فرصة يستطيع بها التسلط على أفكاره

الفصل الثلاثون

الغدر الفظيع

أما قطام فحالما خرج سعيد وعبد الله من منزلها خلت بلبابة فقالت لها لبابة « لقد تمت لنا المعدات وآن الانتقام على غير يد هذا الجبان. ان عليا سيقتل لامحالة ولقد أحسنت بطمأنته ومسايرته . وأحسن ما رأيته من دهائك تصييره على الكتمان لانه لو اطلع عليا على خبر المؤامرة فشل المؤامرون ونجا على من الموت »

فقطعت قطام كلامها قائلة « ولكن ذلك وحده لايضمن لنا الفوز ياخالة وأنا لم التمس منه الكتمان لهذا الغرض فقط ولكنني اردت أن يبقي خبر المؤامرة مكتوماً عن كل انسان حتى عن هذين الامويين »

قالت « وكيف ذلك انى لم أفهم مرادك »

قالت « أتكونين لبابة العجوز القهرمانة ويخفى كلامي عليك . . ما الفائدة اذاً من البحث عن مجتمع أنصار علي . . »

قالت « اني لا أزال أجهل ما تريدينه قولي مامرادك »

قالت مرادي أن ابعث الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها وهو لاريب يبغتها ويقبض على رجالها وسيكون سعيد وعبد الله بينهم فاما ان يقتلهما أو يسجنهما فاذا قتلهما ظل أمر المؤامرة مكتوماً عن كل انسان واذا سجنهما ظلا في السجن الى مابعد ١٧ رمضان على الاقل فيكون قد نفذ السهم وانتقمت لقتيلي ولا يهمني بعد ذلك أمر »

فلما سمعت لبابة كلام قطام همت بها وقبلتها وهي تقول « بورك فيك يابنية والله انك ابعد مني نظراً وأشد دهاء واذا احياك الله الى سنى لم يعد ابليس يقوى على مكرك . . . » قالت ذلك وضحكت . وظلت قطام عابسة لم تعبأ بضحكها ولكنها نادت ريحان خادمها فحضر وكان جالساً في مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه أحد فلما وقف بين يديها قالت له « ألم يقتل سيداك ظلماً »

قال « كيف لاوانى مطالب بدمهما »

قالت « ألم تدر لما دعوتك »

قال « بلى انك دعوتنى لتبعثي بى الى القسطاط أخبر عمراً بن العاص بخبر هذين أو بخبر مجتمعات العلويين .. اليس لذلك دعوتني ؟ »

قالت « بلى أني دعوتك لمثل ذلك بورك بسوادك . هذا وقت الحاجة اليك . ولكنني اطلب اليك ان تبلغ عمراً ذلك بدون ان تذكر اسمي وانى واثقة بفطنتك فلا تخيب أملي . اذهب الى مصر ابلغ الرسالة وجئنى بمقتل هذين أو سجنهما وأنت حر لوجه الله »

فقطب ريحان حاجبيه وتظاهر بالعتاب وقال « ألا تعلمين يا مولاتي انك تهينيني بهذا الكلام من حيث تريدين سروري . أتظنين اني افضل الحرية على الاستعباد لك . فقد قلت قولا واسمحي لى أن اقول مثله . انى ذاهب لانفاذ مرامك فاذا انافزت فيه رجوت ان تعديني بأن لا تذكري الحرية قط »

فضحكت قطام وأظهرت الاعجاب بشهامة ريحان وقالت « سر يا اسمر انك والله خير من الف ابيض »

الفصل الحادي والثلاثون

الفسطاط

هي مدينة عمرو بن العاص بناها سنة ٢٠ للهجرة بعد فتحه الاسكندرية . وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) أن عمراً لما فتح حصن بابل حيث هو دير مار جرجس الآن أو دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقر الصلح بينه وبين المقوقس نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامه منصوبة خارج ذلك الدير بين النيل وجبل المقطم فأمر بتقويضها والرحيل فجاءه منبىء ان في فسطاط الامير يماماً معششاً تحته صغاره لاتستطيع الطيران فقال عمرو « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » [1] فتركوا الفسطاط منصوباً حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حوله . ولما تمت المدينة أطلق عليها اسم الفسطاط وهي أول مدينة بناها المسلمون في القطر المصري واتخذوها عاصمة ملكهم حتى بنيت القاهرة في القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة اليها (راجع كتابنا تاريخ مصر الحديث)

وكانت الفسطاط في العام الاربعين للهجرة وهو العام الذي جاءها فيه سعيد ورفيقه عبد الله قد عمرت وأقامت بها القبائل والافخاذ في خطط وحارات بنيت لهم . وكانت الفسطاط مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية

(١) ابن دقاق ج ٤

طولها ميلان في مايقرب من مصر العتيقة الآن . وأما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذ مجرى النيل المبارك وكان اذا جرى رست سفنه بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقه اليوم فكل مابين الدير والنيل من اليبس وما أقيم عليه من البناء انما حدث بعد الاسلام

وكان جامع عمرو الباقية آثاره هناك الى هذا اليوم مركز تلك المدينة وحوله انشئت الخطط والازقة والحارات . وكان اقربها الى الجامع المذكور دار عمرو أو هما داران الدار الكبرى والدار الصغرى . وكان المسلمون أولا ينزلون في الخيام فلما بنى عمرو داريه اهتم الناس في بناء المنازل . ولم يكن قبل الفسطاط هناك الا بعض الديورة للقبط متفرقة بين النيل والمقطم . وبنوا الخطط أو الشوراع على اسماء القبائل التى تألفت منها حملة ابن العاص في ذلك الحين ومن نزح بعدهم وأوجههن جميعا اهل الراية من قريش والانصار وخزيمة وغيرهم فبنوا لهم خطة سموها خطة اهل الراية ثم خطة مهرة وخطط لخم واللفيف والصدف من كندة وخولان فضلا عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين وهم من حضر الفتح من اهل فارس واصلهم من بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام اسلموا في الشام[1] ناهيك عن خطط اخرى لا تحصى فضلا عن الشوارع والازقة والحارات

فترى مما تقدم ان الفسطاط لم يكن يقيم فيها في اول امرها غير المسلمين وأما المسيحيون واليهود ممن كانوا هناك قبل الفتح فمن آثر البقاء تحت رعاية المسلمين أقام في الاديرة خارج الفسطاط واكبرها دير النصارى (او دير مار جرجس) وهو الحصن الذي حاصر فيه المقوقس ورجاله لما جاءهم المسلمون وكان يسمى حصن بابل او قصر الشمع . وربما اقام بعض القبط او اليهود في الفسطاط لتجارة او صناعة او كتابة لان عمراً عهد الى القبط في باديء الرأي كثيراً من اعمال حكومته وابقى الدواوين تكتب بالقبطية وما زالت كذلك الى امارة عبدالله بن عبد الملك بن مروان فأبدلت بالعربية

وكانت مدينة عين شمس (المطرية) شمالى الفسطاط خربة لم يبق من

(١) ابن دقاق ٤

ابنيتها الشامخة ومعالمها الرفيعة الا بعض الجدران الغليظة أوالاعمدةالضخمة والمسلات من بقايا الهياكل الفرعونية وهي مهجورة لايقيم فيها احد فاذا احتاج الناس الى حجارة أو اعمدة يبنون بها داراً كبيرة أو جامعاً حملوها من انقاضها

الفصل الثانى والثلاثون

سعيد وعبد الله

أما سعيد وعبد الله فانهما تأهبا للرحيل في ذلك اليوم وأصبحا على راحلتيهما وخرجا من الكوفة يلتمسان الفسطاط وهما لايعلمان ما أعدته لهما قطام من المكائد . وسارا يجدان السير يوصلان الليل بالنهار حتى أقبلا في فجر يوم جمعة على الفسطاط فأطلا عليها من سفح المقطم فاذا هي ممتدة على ضفة النيل على مسافة طويلة وراءها النيل يجري وفيه السفن راسية تحمل الغلال والاحمال بعضها قادم من الصعيد والبعض الآخر صاعد من الشمال . وفي وسط المدينة جامع عمرو حوله الابنية والدور فوقفا هنيهة يبحثان في الخطة التى يجب أن يسيرا عليها في اتمام مهمتهما

فقال عبد الله « ها اننا امام الفسطاط الآن وقد طلع فجر الجمعةالذي يجتمع فيه دعاة امير المؤمنين في عين شمس على مانعلم . فهل نظل هنا حتى نسير تواً الى عين شمس أم ننزل الفسطاط ثم نخرج منها الى عين شمس »

فقال سعيد « وما الداعي لبقائنا هناوقد يكون في بقائنا مظنةسوء ونحن لايعرف احد الا اننا من دعاة معاوية . وزد على ذلك اننا لاندري الساعة التى ينعقد فيها ذلك الاجتماع تماماً وانما علمنا باجتماعهم في يوم الجمعة فهل هو في الصباح أو في المساء أو أى متى ؟ »

قال عبد الله « لست على يقين من ساعة الاجتماع ولكنني اظنهم يجتمعون بعد صلاة العصر الى المساء وعلى كل لا أرى بأساً من النزول الى الفسطاط نصلى الصبح فيه ونجعل دوابنا في مأوى تستريح فيه . ثم أخرج انا للبحث

عن ساعة الاجتماع ومكانه واعود اليك فنسير معاً »

قال سعيد « لقد رأيت الرأي الصواب »

ونزلا بناقتيهما حتى دخلا المدينة وهي يومئذ آهلة بالناس وقد أذن المؤذنون يدعون الناس الى صلاة الصبح فأتيا المسجد وأمامه ساحة كبرى تقف فيها الدواب تشد الى أوتاد أو نخيل . فربطا الراحلتين ودخلا المسجد للصلاة وكانت الشمس قد اضحت وتقاطر المسلمون افواجاً فدخلا في جملة الداخلين

الفصل الثالث والثلاثون

عمرو بن العاص

ولم يكد يستقر بهما الجلوس حتى رأيا الناس في حركة وجلبة وقد فتح باب في بعض جوانب المسجد دخل منه رجال في ايديهم السياط يزجرون الناس . فقال سعيد من هم هؤلاء . فقال عبد الله انهم الشرطة يفتحون الطريق للامير . ولم يكد عبد الله يتم كلامه حتى دخل رجل ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج ابلج عليه ثياب موشاة كأنه العقيان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة عرفا انه عمرو بن العاص فصعد المنبر والناس ينظرون . فحمد الله واثنى على النبي صلعم ووعظ الناس وامرهم ونهاهم وحمل محضهم على الزكاة وصلة الارحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال في ذلك الى ان قال « يامعشر الناس اياكم وخلالا اربعا فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال . ثم انه لابد من فراغ يؤول اليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتحليته بين نفسه وبين شهواتها ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيجوز من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا . يامعشر الناس انه

قد تدلت الجوزاء وذلت الشعرى واقلعت السماء وارتفع الوباء وقلّ الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر فحيّ لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وانفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً واياكم والمومسات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا ايديكم وعفوا فروجكم وغضوا ابصاركم . ولا اعلمن ما اتى رجل اسمن جسمه واهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوّف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض . فقال له ابو بكر رضي الله عنه ولمَ يارسول الله قال لانهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر الناس على ما اولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فاذا يبس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحيّ الى فسطاطكم على بركة الله ولا يقدمن احد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما اطاق من سعته او عسرته . اقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم »[1] انتهى

وكان عمرو يخطب والناس يسمعون وقد تخشعوا لما قاله من الاوامر والنواهي . فقال سعيد لعبد الله همساً « والله انه لنعم الامير وشلت يد تقتله اني والله منذره بذلك متى دنا الاجل المضروب » فلم يجبه سعيد مخافة أن يلحظ أحد شيئاً مما هما فيه

(١) المقريزي ج ٢

وبعد تمام الصلاة خرج الناس وخرج عبد الله وسعيد واجتمعوا في ساحة المسجد خارجاً وتعارفوا فعرف عبد الله رجلا من غفار كان له معه صداقة فدعاه وسعيداً الى منزله ليقيما عنده فاعتذرا فألح عليهما فسارا معه لئلا يوجب ابتعادهما شبهة فأنزلهما في منزل له في خطة اسمها خطة خارجة ابن حذافة فأمر الغفاري عبداً له بتسلم الراحلتين وسار بهما الى المربط ودخل بالضيفين الى غرفة لم يريا فيها نافذة الا كوة في أعلاها فعجبا وهمّ عبد الله بالاستفهام عن ذلك وأوقفه التأدب فلحظ الغفاري استغرابه فقال له « لا تعجب لحال هذه الغرفة فان كذلك سائر أبنية الفسطاط »

فقال عبدالله « اني والله يا أخا غفار لفي عجب عجاب مما أرى فما الذي دعا الى هذه الاقفال » فقال الغفاري « اعلما ان خارجة بن حذافة صاحب شرطة مولانا الامير عمرو بن العاص هو أول من ابتنى غرفة في الفسطاط . فلما علم بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يومئذ كتب الى الامير عمرو بن العاص ان « ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً واقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فأهدمها » ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فأقرها [1] فلم يجسر أحد أن يبني غرفة بعد ذلك الا على هذا الوصف وهو بالحقيقة أضمن للحجاب »

الفصل الرابع والثلاثون

عين شمس

ثم جاءهما الغفاري بالزاد فتناولاه وبعد الاستراحة التمسا الخروج لبعض المهام وهما انما يريدان الخلوة للنظر في ما جاءا من أجله فخرجا ومشيا في وسط المدينة يتظاهران بالتفرج بمشاهدة ما فيها من الحوانيت والبيوت حتى خرجا منها فقال سعيد « انا في نحو الظهر وما العمل »

فقال عبد الله « دعني أسير وحدي الى عين شمس فانها على بضعة اميال

(١) ابن دقاق ج ٤

من هذا المكان حيث ترى هذه الخرائب وأمامها هاتان المسلتان (وأشار اليهما باصبعه) فابحث عن مكان الاجتماع فاذا عثرت عليه جئتك على عجل . فأين الملتقى »

قال « اني أقيم فى المسجد حتى تعود اليّ واحذر أن تطيل غيابك »

فسكت عبد الله ولبث برهة يفكر ثم قال « واذا أبطأت في الرجوع اليك فاطلب عين شمس وانتظرني بقرب هاتين المسلتين اللتين تراهما قائمتين هناك وأنا آتيك أو أبعث من يدعوك الينا »

قال « حسناً » وافترقا وسار عبد الله يلتمس عين شمس وقد جعل وجهته اليها المسلتين وكانتا ظاهرتين عن بعد . وعاد سعيد الى الجامع

أما عبد الله فسار حتى أقبل على عين شمس فاذا هي عبارة عن أطلال ليس فيها من الابنية الا الجدران والاعمدة فطاف بين خرائبها فلم ير أحداً ولا سمع صوتاً وقضى في ذلك ساعتين يتردد بين تلك الجدران ثم يعود الى حيث بدأ فلم ير أثراً للآدميين فظن نفسه أخطأ المكان أو ساء فهم ما بلغه من أمر ذلك الاجتماع حتى كاد يهمُّ بالرجوع وقد خاب ما أمله وخيل اليه ان دعاة علي أبدلوا مجتمعهم هناك بمكان آخر

فأسند ظهره الى جدار ووقف يفكر في ماذا يفعله وقد مالت الشمس نحو المغيب فرأى رجلا قادماً من الفسطاط فشغل عبد الله نفسه بمشاهدة بعض ما هو محفور على تلك الآثار من الرسوم الهيروغليفيه كأنه يعجب لغريب صنعها ريثما يمر الرجل ويمضي . وكان يتظاهر بالنظر الى تلك الرسوم وهو بالحقيقة يختلس النظر الى ذلك المار . وكان الرجل يظهر تارة ويختفى تارة أخرى في مروره بين الاعمدة والخرائب ثم اختفى ولم يعد يظهر

الفصل الخامس والثلاثون

الاجتماع السري

فعجب عبد الله لامره وقال في نفسه لا بد ان يكون هذا الرجل من جملة اهل ذلك الاجتماع السري وقد نزل في نفق او نحوه . فالتمس المكان الذي ظنه اختفى فيه فوجد هناك منحدراً يظهر لاول وهلة أنه مسدود فنزل فيه وهو يخطو الهوينى حتى انتهى الى ظلمة دامسة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع لغطاً عميقاً فاستبشر بالوصول الى المكان المطلوب ولكنه لم يكن يعرف مدخل تلك المغارة وخاف أن يستغشه القوم فيقتلوه

فوقف برهة يتردد بين أن يسير متلمساً او يرجع فيأتي بسعيد . ثم رأى ان يتحقق المجتمع قبلا ثم يعود فخطا بضع خطوات وهو لا يرى شيئاً أمامه فلطم رأسه بالسقف فحنى ظهره وداهمه العطاس لرطوبة الهواء فعطس عطسة دوى لها المكان وما شعر الا وقد ظهر نور ضعيف وتقدم بضعة رجال كلهم ملثمون وعليهم أردية سوداء تزيدهم وحشة فقبضوا عليه وهو لا يبدي حراكا . ونزلوا به في ذلك الدهليز الى قاعة تحت الارض واسعة وكل جدرانها وسقفها مغطاة بنسيج اسود مما يجعل المنظر رهيباً ولولا شمعات مضيئة في بعض جوانب المكان لكانت الظلمة لا تطاق لكثافتها . ونظر عبد الله الى ما حوله فرأى في وسط القاعة دكة مغطاة بملاءة سوداء لم يدر ما تحتها ولكنه لم يستطع التأمل وقد احدق به بضعة عشر رجلا التحفوا العبي تحتها السيوف وكلهم ملثمون . فخاطبه واحد منهم يسأله عما يريده

فقال « انى جئت أشاركم في ما أنتم فيه »

قال « وما ادراك ما نحن فيه »

قال « علمت انكم تدعون الناس الى نصرة الامام علي . أليس ذلك ما تدعون اليه ؟ »

قال « وما شأنك وذلك »

قال « شأني هو شأنكم . لا تسيئوا الظن بي اني قادم من الكوفة لهذه الغاية »

فقال له رجل آخر « كيف تكون أموياً وتدعي نصرة الامام علي »

فاشتبه عبد الله بصوت مخاطبه انه صوت صديقه الغفاري الذي نزل عنده في ذلك الصباح

فقال له « ألست انت صديقي الغفاري . اصدقني ولا تخف اني والله جئتكم بخبر هام اذا أسركتموني في امركم اطلعتكم عليه وتحققتم صدق قولي »

فقال الغفاري « اذا كنت صادقاً في ما تقوله تعال معي » . ومشى فتبعه الى الدكة في وسط القاعة ورفع عنها الملاءة السوداء فاذا هناك مصحف فوقه سيف مسلول وقال له « ضع يدك على هذا السيف واقسم بالله العظيم انك حليف للامام علي تنصر نصيره وتحارب عدوه »

فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف معاً فشعر ببرودة السيف فارتعشت أنامله ولكنه أقسم لهم كما أرادوا

ثم قاده بيده الى دكة أخرى رفع غطاءها وتناول عنها قارورة فيها مسحوق اسود كانه الكحل فاشتاق عبد الله لمعرفة ما فيها فقال « وما هذه » قال « هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن أبي بكر الذي أحرقتموه بالنار ظلماً فاذا شئت الهداية ونصرة الحق كما تدعي وجب عليك ان تكتحل بهذا الرماد وتبكي ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الاخذ بثأره . فهل انت قابل بذلك باق على قسمتك . ؟ »

قال « انى باق على ما تريدون وقد قلت لكم الصدق فلا تستغشوني »

فتقدم له صاحبه ففتح القارورة وأدخل فيها ميلا علق عليه بعض الرماد فاعطاه الى عبد الله فاكتحل به فهاجت عيناه وانسكب الدمع على الرغم منه فشاركه الرفاق في البكاء

ثم أزاح الغفاري لثامه وقال له « نعم اني صديقك كما قلت ولكن اعلم

انك اذا كنت على غير ما تقول فاني أكون عدوك أهدر دمك بحد هذا السيف . قل ما بدا لك »

فلما اطمأن عبد الله تذكر سعيداً فقال « ولكن لي رفيقاً أريد أن ادعوه اليكم ليشهد ما نحن فيه ويشاركنا في هذا الجهاد »

فقال له الغفاري « انك غير خارج من هذا المكان الا بعد خروجنا جميعاً فقل ما تريده »

فاطاعهم وقال « لا تعجبوا أولا لاني أموي . وقد أصاب صاحبي الغفاري باني من انصار معاوية وقد كنت مطالباً بدم عثمان ولكن طرأ علىّ طارىء سأقصه عليكم أما الآن فأخبركم أولا اني قادم من الكوفة وقد علمت ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب قد جمع رجاله هناك فاجتمع منهم حوله اربعون الف مقاتل [1] وكلهم مستعدون للنزال وبذل المال والرجال في هذا السبيل »

فقال « ان رجالنا يعدون بالآلاف ونحن وهم وأموالنا وكل ما نملكه نهدر حلالا في نصرة الامام ابن عم الرسول »

وهمّ عبد الله باتمام الحديث فاعترضه أحدهم قائلا « عرفناك أموياً من ألد اعداء الامام كما ذكرت فما الذي حملك على نصرته حتى خاطرت بنفسك وجئت هذه البلاد »

فأخذ يقص عليهم حديث أبي رحاب ولكنه لم يكد يقول كلمتين حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فوق رءوسهم وقد ارتج المكان فوقهم بالجلبة فأنصتوا ووقع الرعب في قلوبهم وخيل لهم انها دسيسة من عبد الله فهموا بقتله ولكنهم ما لبثوا ان رأوا انوار المشاعل منبعثة من مدخل الدهليز وقد انهالت الشرطة عليهم فأرادوا الدفاع عن انفسهم فلم يفلحوا فشدوا وثاقهم وساقوهم في ظلام الليل الى الفسطاط

(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل السادس والثلاثون

السجينة الامينة

ومكث سعيد في الجامع حتى دنا الغروب ولم يعد عبد الله فتردد برهة بين أن يذهب الى عين شمس أو ينتظر عود عبد الله . ثم غربت الشمس فلم ير بداً من المسير الى عين شمس كما أوعز اليه . فخرج من الفسطاط وجعل المسلتين وجهته والظلام يكاد يحجبهما عنه فمشى وقد أوجس خيفة من ابطاء عبدالله ولم يعد يرى المسلتين الا اذا برزتا في الافق ثم اختفيتا ولم يعد يراهما وخاف ان يضل الطريق . وفيما هو في ذلك سمع دبيباً وقرقعة كأن جنداً قادماً وراءه فتنحى عن الطريق فاذا بكوكبة من الفرسان مرت به مسرعة تلتمس عين شمس فاضطرب وخاف الدسيسة . والتفت الى يمينه فرأى بيتاً قائماً في بستان . فلاح له ان يتحول اليه يستفهم أهله عن الطريق . فلما دنا منه سمع صوتاً خارجاً من بعض جوانبه استوقف انتباهه فوقف وأصاخ بسمعه فسمع صوتاً رخيماً يمازجه بكاء ولم ير هناك نوراً ولا رأى أحداً في البستان فالتمس باب البيت فاذا هو موصد وقدوضح لديه صوت الباكي فتنصت فسمع صوت امرأة تبكي وتقول « الا تخاف الله ياظالم أما كفاك ماواطأت عليه من قتل البريء حتى رميت ألوفا من الناس تحت خطر القتل الفظيع . . . هل من ينبيء هؤلاء الابرياء بما وشوا به عليهم فينقذهم من خطر الموت »

فلما سمع سعيد تلك العبارات اقشعر بدنه ولم يعد يصبر على استطلاع سبب ذلك البكاء . فقرع الباب قرعاً خفيفاً فانقطع الصوت بغتة فصبر هنيهة وكرر القرع ويده ترتعش من شدة التأثر فلم يسمع شيئاً فازداد شوقا لاستطلاع ذلك السر ولكنه خاف ان يقع في مكيدة وهو غريب هناك فلبث برهة والهواجس تتقاذفه وقد حدثته نفسه ان بين ماسمعه وبين مايسعى في البحث عنه علاقة كبرى . وكان الفرسان الذين مروا به قد

بعدوا عنه ولم يعد يسمع من وقع حوافر افراسهم غير الدوي البعيد . فايقن انهم يلتمسون عين شمس ولم يفهم سبب ذهابهم اليها في ذلك الليل . وبعد التأمل بما سمعه ورآه اعتقدان في الامر سراً يهمه الاطلاع عليه

فهز الباب بيده هزاً شديداً كأنه يريد فتحه بالعنف فلم ينفتح لانه موصد ولم يعد يستطيع صبراً والوقت ضيق فقال بصوت خافت « هل في المنزل أحد يفتح الباب اني غريب ضللت عن الطريق »

فأجابه الصوت من الداخل « ليس في البيت سواي والباب مقفل لاسبيل الى فتحه »

فازداد سعيد دهشة واستغراباً وقال « من أنت أيها المخاطب اني أراك في ضيق فهل من سبيل الى انقاذك »

فأجابه الصوت « ياحبذا ذلك اذا استطعته اني حبيسة بالرغم عني . من انت ؟ »

قال « قلت لك انى غريب ضللت عن الطريق أريني وجهك أو ارشديني الى وسيلة افتح بها الباب »

قالت « عالج الاقفال بالعنف لعلك تستطيع فتحها فتنقذني وربما انقذت ألوفاً من الناس معي »

الفصل السابع والثلاثون

الشك واليقين

فثارت الحمية في رأسه واستل خنجره وجعل يعالج الاقفال وهي تساعده من الداخل حتى فتح الباب فبرزت منه فتاة محلولة الشعر عليها رداء اهل الفسطاط ولما رأت سعيدا قالت « من انت . اصدقني الخبر ؟ »

قال « بل انت اصدقيني ولا تخافي لقد سمعتك تندبين ألوفاً من الناس فمن هم أولئك الالوف »

فتفرست فيه وتفرس فيها فلم يعرفها ولا عرفته لشدة الظلام

فقالت له « من قال لك اني اندب ألوفاً »

قال « سمعتك باذني . افصحي ولاتخافي »

قالت « وما يهمك من أمر هؤلاء الالوف »

قال « أخاف أن أكون منهم . . . »

قالت « وما الذي جاء بك الى هذا المكان »

قال « كنت ذاهباً الى عين شمس فتهت وجئت هذا المنزل لاسأل أهله عن الطريق فسمعت بكاءك ويحدثني قلبي ان حديثك يهمني . قولي لقد نفد صبري »

قالت « اني أخاف العيون ولا أثق باحد بعد ان غدر بي والدي . . . فكيف أثق بالغرباء »

قال « رب غريب أقرب من القريب . قولي لاتخافي »

وفيما هما في ذلك سمعا وقع الحوافر وصوت الضوضاء من ناحية عين شمس فدخلت الفتاة الغرفة وجرت سعيدا بثوبه ولم تفه بكلمة فدخل في أثرها وقد تولته الدهشة ولبث صامتاً . ولم تمض برهة حتى دنت الضوضاء منهما وسمعا من بين الاصوات قائلا يقول « لقد وقعتم في ايدينا أيها الخائنون وعرفنا دسائسكم » وسمعا لغطاً كثيراً من هذا القبيل فظلا صامتين حتى مر الفرسان كلهم وهم يسوقون جماعة من المشاة موثقين

فلما تواروا عن البيت لطمت الفتاة وجهها وقالت « لقد نالوا بغيتهم قبحهم الله وقبضوا على الجماعة »

فقال « وأي جماعة . هل قبضوا على جماعة عين شمس »

قالت « نعم انهم قبضوا عليهم وأسفاه »

فصفق سعيد بيديه وخرج ليطل على الفرسان كأنه يريد أن يتحقق طريقهم

فقالت له « يظهر انك كنت سائراً اليهم »

قال « نعم »

فقالت « لقد نجاك الله من ايديهم ولم يكن ضلالك الا وسيلة لنجاتك »

فاضطرب سعيد واختلج قلبه في صدره وقال « بالله عليك افصحي يا اخية فقد نفد صبري وقد علمت غرضي فاخبريني عن حقيقه أمرك »

قالت « لم يعد يمكنني البقاء هنا مخافة أن يأتي أحد فيراك معي فنكون العاقبة وخيمة علينا »

قال « وهل تريدين أن نبعد عن هذا المكان »

قالت « نعم هلم بنا فاذا خلونا تحادثنا وعساك أن تتلافى أمراً لا أزال خائفة من وقوعه وهو شر عظيم » . قالت ذلك وخرجت من الغرفة فمشت أمامه وهو يتبعها حتى خرجا من البستان وأوغلا في الحقول وهو يسير في أثرها الى حيث لا يدري وكلاهما صامتان لا يفوه أحد بكلمة حتى دنوا من بناء عالي الجدران كأنه بلا باب . فقالت له هذا دير للقبط فلندخله بحجة الزيارة فنكون في مأمن ومشت أمامه الى باب صغير في أسفل الحائط مصفح بالحديد فقرعته فأطل عليها من نافذة في أعلى الحائط راهب في يده مصباح وقال « من يقرع الباب »

قالت « اننا غرباء نلتمس زيارة الدير »

ولم تمض هنيهة حتى فتح الباب وسمع لفتحه صرير فدخلاه وقد احنيا رأسيهما لضيقه فاشرفا على دهليز دخلا منه والراهب يسير بالمصباح أمامهما حتى انتهيا الى الكنيسة فنظر الراهب اليهما في نور المصباح فعرف الفتاة انها من أهل الفسطاط بل هي من أعيانهم فسر من زيارتهما ورحب بها وادخلهما الى غرفة في الجانب الآخر من الكنيسة فيها مصباح فسألهما اذا كانا يحتاجان الى شيء فقالا كلا فتركهما ورجع

الفصل الثامن والثلاثون

كشف السر

أما سعيد فتأمل الفتاة في النور فاذا هي شابة في مقتبل العمر جميلة الطلعة وقد احمرت عيناها وتكسرت اهدابهما من البكاء ولم يزدها ذلك الا جمالا .

وكانت قد ضفرت شعرها في أثناء الطريق وغطت رأسها بطرف ثوبها . فجلسا على وسادة فوق حصير وسعيد يتلهف لاستطلاع حديثها وقلبه يخفق لما يتوقعه من النبأ الغريب فابتدرها بالسؤال حالا عن حقيقة أمرها

فنظرت اليه ولم تكد تتأمله حتى قالت « ألعلك أحد الغريبين اللذين وصلا الفسطاط في صباح هذا اليوم »

قال « نعم اني هو وما أدراك بذلك »

قالت « رأيتكما مع جارنا الغفاري وها اني أقص عليك خبري الغريب وألتمس منك أن تشرع في ملافاة الخطر العظيم الذي سيدهم المسلمين قريبا »

قال بلهفة « قولي اني لهذا الامر أتيت الفسطاط فعسى أن أكون قد وقعت على ضالتي »

قالت « اني اطلعت على سر لا أظن أحداً عرفه قبلي . . . ألست على دعوة الامام علي »

قال « بلى اني على دعوته وقد جئت في سبيل نجدته »

وهمت بالتكلم ثم توقفت برهة وأطرقت فلحظ سعيد ترددها وادرك انها اساءت الظن به فقال لها « لاتظني السر الذي ستبدينه لي مجهولا لدي واذا شئت قلته لك . ولاطمئنان بالك أقول انه يتعلق بالامام علي وفيه خطر على حياته . . . »

فاطمأنت ولكنها تنهدت وقالت « اعلم ياسيدي ان والدي يصنع السلاح ويبيعه في الفسطاط وقد ربيت وأنا اسمعه يتشيع للامام علي فانغرس حب هذا الامام في قلبي وما أنا في حاجة الى امتداح والدي له وهو ابن عم الرسول وصهره ولكنني ذكرت لك امتداحه لاذكر لك التغيير العجيب الذي طرأ عليه

« فما زلنا ندعو لعلي بالنصر حتى كانت واقعة صفين منذ بضع سنين فرأيت في والدي فتوراً من هذا القبيل ولكنه لم يذكر لنا شيئا صريحا بهذا الشأن . على اني كثيراً ما كنت أراه يختلي بجار لنا من بني مراد كان

يعلم الناس القرآن وكنت أحسبه من أهل التقوى . . . (قالت ذلك وتنهدت) ولكنني وجدته وأسفاه من أهل العداء . وما زالا يتساران في أمر هذا العداء ولا يجرآن على التظاهر به لان مصر كانت لاتزال في حوزة الامام علي وعاملها محمد بن أبي بكر . فلما جاءنا ابن العاص بخيله ورجله وحارب دعاة على فقتل ابن أبي بكر رحمه الله قتلة لم يسبق لها مثيل في الاسلام استقام الامر للامويين فجاهر والدي بمعاداة على وكان جارنا المرادى يزيده كرهاً له . فعلمت أنهما تشيعا للخوارج فظللت مع ذلك صابرة كاظمة اذ لاسبيل لى الى شيء اعمله وأنا فتاة ضعيفه كما ترى . وكان والدي يظنني على دعوته . ففي ذات يوم جاءنا ذلك المرادي خاطبا ووافقه والدي ان أكون خطية له فلم اجب لاحسنا ولا قبيحا خوفاً من اكراهي على الزيجة . ولكنني صممت في باطن سري أني اذا تحققت عزمه على الزواج فررت وتركته وما زلت اماطل في كتابة العقد الى الآن »

الفصل التاسع والثلاثون

عبد الرحمن بن ملجم

وكانت في أثناء كلامها عن الزواج قد اطرقت حياء فلما بلغت الى هذ الحد رأت سعيدا مصغيا الى حديثها بكليته وهى تعلم انه انما يشتاق الى آخر الحديث اكثر مما الى اوله فخافت ان يمل فقالت « ولا اطيل عليك الحديث قبل ان اصل الى جوهره فاقول ان ذلك كله احتملته بالصبر ثم علمت ان المرادي خرج الى مكة فظننته يلتمس الحج ووددت الا يعود ولكنني مالبثت ان رأيته عائداً »

قالت ذلك وتنهدت وسعيد يتطاول لسماع ماتقول وقد دهش لغرابة الحديث

فقالت « عاد ذلك المرداي بمهمة جديدة ياليتنى مت قبل ان سمعت خبرها . . . ولكنني اذا لم أجد من يتحمل المشقة في تلافيها تلافيتها

بنفسي . . . جاءنا هذا المرادي ثاني يوم وصوله الفسطاط فاختلى بوالدي الليل كله يتكلمان وأنا لاأعلم مادار عليه حديثهما . ولكنني علمت بعد ذلك انه أوصى والدي أن يصنع له سيفاً ماضياً انفق عليه الف درهم وقضى مائة يوم وهو يشحذه فلم افهم معنى هذا الاستعداد ولا اهتممت به وبعد ان شحذه كلف والدي فسقاه السم . وقد علمت انه انفق على سقايته الف درهم أيضا [1] . . . فويل لجسم يجرحه هذا السيف ولو جرحا خفيفاً »

قتل سعيد ولم يعد يستطيع صبراً على التصريح باسم ذلك الرجل والافصاح عن غرضه بسقاية السيف وهو لايشك أنه المؤامر على قتل الامام علي . وكان قد صبر نفسه حتي يسمع ذلك من فم الفتاة ولكنه مل الانتظار فسألها قائلا « وما هو اسم هذا الرجل »

فقالت « ان اسمه عبدالرحمن بن ملجم المرادي »

فلم يذكر انه يعرفه أما خولة فتنهدت وقالت « فلما رأيت منه هذا الاستعداد وهو كتم خبره عني عمدت الى الحيلة فجاءني في صباح أمس يودع والدي وقد عزم على الكوفة فقلت في نفسي سيذهب الرجل ولا أدري السر فتظاهرت باعجابي بشجاعته واقدامه واطريت غيرته على الاسلام ونحو ذلك وسألته ان يريني السيف لاتأمل فرنده فجاء به وأوصاني ان اتقي حده لان جرحه يميت حالا فسللته بحذر كلي فاذا هو يلمع لمعاناً تقشعر منه الابدان فارتعد جسمي ولكنني أظهرت الجلد وقلت « اراك انفقت مالا كثيراً على صقله ما الفائدة من هذا اللمعان »

فضحك مستخفاً وقال « أتظنين اني انفقت كل هذا المال على مجرد صقله »

قلت « وماذا اذا اني لاأرى فيه غير اللمعان »

فقال « اني سقيته السم »

فأظهرت الاستغراب وقلت « ولماذا سممته . وما زلت أحاوله وأجادله حتى هان عليه التصريح فقال لى « اعلمي ياخولة اني سأقتل بهذا السيف

(١) ابن الاثير ج ٣

رجلا يزعمون أنه أكبر رجل في الاسلام ويقولون أنه أقرب أقرباء الرسول» قال ذلك والشر بادفي عينيه واصفرارالوجل يتخلل ما كان يحاوله من الابتسام . أما أنا فلما سمعت قوله ارتعدت فرائصي واختلج قلبي وأظنه قرأ ذلك على وجهى . كيف لا وقد ظهر لى انه يريد الامام علياً . ولكننى أحببت تحقق الظن فقلت « ومن هو ذلك الرجل » . فقال « ألا تعلمين من هو ألا تعرفين سبب كل هذه الانقسامات واذا كنت لم تفهمي بعدفاقول لك انه علي بن أبي طالب الذى يسميه أشياعه أمير المؤمنين » . قال ذلك واحمرت عيناه وتجلى الغدر في وجهه وقال « احذري أن تبوحى بذلك لاحد والا فانك تنالين جرحاً من هذا السيف » قال ذلك وهو يمزج الجد بالهزل . أما أنا فتحققت انه يقتلنى ولا يبالى لانه تجرأ على قتل أمير المؤمنين فكيف لا يقتل فتاة مثلى »

« فلم استطع جواباً وخفت اذا نطقت ان يبدو امري فصمت وقدعولت في باطن سري على السعي لابلاغ أمير المؤمنين ذلك على عجل لان موعد القتل قريب وأظنه في ١٧ رمضان لاني كثيرا ما كنت اسمعه يذكر هذا التاريخ ويعرض بذكر الكوفة ولم أكن افهم مراده بذلك . وأما الآن فقد فهمت جيداً انه عازم على قتل الامام على في ١٧ رمضان ونحن في أواسط شعبان وأخاف أن ينال هذا الرجل بغيته قبل أن يبلغ الخبرعلياً .. آه ياليتنى طير أحمل هذا الخبر اليه »

الفصل الاربعون

بوح الخفاء

وكان سعيدلما وصلت خولة الى ذكراسم الرجل وتصريحه بمقتل الامام على قد نهض وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً وايابا والحمية ملء رأسه وندم على مجيئه قبل أن يخبر الامام علياً ولكنه تذكر انه لم يكن يعرف اسم المؤامر ولم تكن ثمة فائدة من اعلامه أما الآن فانه يذهب اليه بالخبر الصريح

وكان مع شدة تأثره من حديث خولة لا يغفل عما يتجلى في وجهها من ملامح الجمال وما في حديثها من صدق اللهجة وقد أعجبه منها بنوع خاص غيرتها على الامام على فشعر بانعطاف نحوها . ولكنه تذكر عهده لقطام وما يظنه من حبها له فرأى ان لا يطلق لنفسه العنان في حب سواها . على انه لم يكد ذهنه ينصرف لحظة الى هذا الموضوع حتى عاد الى التفكير بعبدالله ومصيره وسبب وجود خولة في ذلك البيت المنفرد . فقال لها « لا أدري يامولاتي ما الذى ساقني الى منزلك حتى حظيت بك وسمعت هذا الحديث الذي انما جئت الفسطاط من أجله . ولا أخفي عليك انى كنت عالماً بعزم بعضهم على الفتك بالامام ولكنني لم أكن اعلم اسم العازم ولا من هو فجئت الفسطاط ومعي رفيق من ذوي قرابتى كان قد سبقني في صباح هذا اليوم الى مجتمع العلويين في عين شمس على أن يعود الى بخبر مكانهم فلما ابطأ سرت في اثره وأنا لا أعرف الطريق فضللت في الظلام حتى اهتديت بك ونعم الضلال ضلالى . ولكنى في قلق على رفيقى اذ يلوح لى ان الفرسان الذين شاهدناهم الليلة كانوا قادمين من عين شمس ويظهر انهم قبضوا على انصار على هناك . . ألا تظنين ذلك ؟ »

فقالت خولة لو صبرت علىّ لاتمام حديثي لكفيت نفسك مؤونة الظن ويلوح لى انك تود الاطلاع على سبب وجودى منفردة في ذلك البيت وقد اوصدت الابواب دوني . فاعلم انى لما سمعت حديث المرادي سكت وكظمت فخرج الرجل وأظنه شخص الى الكوفة ولبثت انا في حيرة لا ادري ماذا أعمل فقضيت نهار امس في الهواجس والظنون وكلما تصورت علياً مقتولا بسيف هذا الغادر يقشعر بدني . وكان والدي يخرج الى حانوته في كل صباح ولا يعود الى المساء وعندنا في المنزل عبد رباني منذ حداثتى وهو يحبنى ويكرمني وكنت قلما اكلمه فخطر لى ان اغتنم غياب والدي واكلم العبد عساه ان يطلعنى على نبأ جديد او لعلى افهم شيئاً آخر . لان حديث ابن ملجم اتعبني واقلق راحتى وليس لدي من اشكو اليه امرى او اكاشفه سري فخرجت من غرفتي لادعو العبد فلم اجده فناديته باسمه فابطأ

ولم يجب فأطللت من الدار فرأيته واقفاً مع عبد آخر يظهر انه غريب وكانا يتحادثان ويتساران . فلما رآني خجل واسرع الي فدخلت غرفتي ودخل هو في أثري وعلى وجهه أمارات البغتة كأنه سمع خبراً غريبا يريد قصه علي . فقلت « اين كنت وقددعوتك فلم تجب ؟ »

قال « كنت واقفاً مع عبد قادم من الكوفة لمهمة سرية الى الامير عمرو » فقلت « وهل اطلعك على خبر تلك المهمة

الفصل الحادي والاربعون

اتمام الحديث

« فسر عبدنا لما آنسه من ملاطفتي وأراد أن يبرهن على ثقته بي فقال « انه اطلعني على سر لاأظن أحداً يعرفه في كل الفسطاط سوى الامير وبعض شرطته » ثم اخبرني ان ذلك العبد جاء الى الامير عمرو بأن انصار علي يجتمعون سراً في عين شمس يوم الجمعة وأن عمراً عين جنداً للقبض عليهم أو قتلهم في ساعة الاجتماع . فلما سمعت ذلك لم أتمالك عن البكاء لشدة الغيظ ورأيت من أهم واجباتي ان ابلغ الجمعية تلك النية ليتحذروا . ولكنني لم أكن اعرف احداً اثق به في انفاذ هذه المهمة فعولت على الذهاب بنفسي في ساعة الاجتماع

« فأصبحت في هذا اليوم وأنا اتوقع خروج والدي الى حانوته لاتنكر وأسير الى عين شمس فاذا هو لم يخرج من البيت ورأيته في اضطراب ووجل وما علمت ان العبد اخبره بالحديث وانه اطلعني عليه فخاف والدي ان ابوح لاحد قبل القبض على المجتمعين . فلازمني في البيت الى الظهر ثم دعاني للخروج من الفسطاط للنزهة فأتينا هذا البيت وهو بيت لشريك لنا في الفلاحة ولم يكن فيه احد فلم اظهر استغرابي ولا قلت شيئا لأني كنت عالمة بأن والدي سيكون في جملة السائرين الى عين شمس فلا بد من ان يتركني فاذا تركني خرجت وأنا على مقربة من المكان . وما علمت ما اضمره لي

فانا لم نكد نرى الشمس تميل حتى خرج والدي وتظاهر بأمر هام يدعوه الى سرعة الذهاب وادعى انه اقفل الباب علي خوفاً من الغرباء أو ابناء السبيل سامحه الله وهو يعلم انى لا أستطيع النداء واستنجاد الناس لانى اذا تظاهرت بنصرة الامام كنت من المغضوب عليهم فظللت هناك حتى جئت انت ورأيتني في هذه الحال . فرفيقك لاشك انهم قبضوا عليه في جملة أولئك الانصار »

قال سعيد « هل تظنين ان عليه بأساً »

قالت « لاأظنه الا مسجوناً حتى يسألوه اسئلة كثيرة ثم اذا رأوا قتله قتلوه وكذلك يفعلون برفاقه . ولكن لابأس عليه باذن الله وسنتدبر في امره . وما العمل الآن اني اخاف اذا عاد والدى ولم يرني في البيت ان تزيد نقمته على فارى ان اذهب الى منزلنا في الفسطاط وأتظاهر بأني خفت من بقائي في البيت ففتحت الباب بأسلوب اكيفه على شكل مقبول ولا بد من تجاهلى كل ماحصل لارى مايكون . وما انت فاعل ؟ »

قال « اود ان اسرع الى الكوفة لارى بن ملجم فأقنعه أو اخبر الامام علياً »

فقطعت عليه الكلام قائلة « وكيف تقنعه وهو لايقنع بل قد يسرع في القتل وليس افضل من ان تطلع الامام علياً على الامر وهو يدبر بما يراه »

قال « وكيف افعل برفيقي هل اتركه فى السجن »

قالت « وأخاف اذا تأخرت هنا ان تفوت الفرصة والمسافة من هنا الى الكوفة بعيدة وانى لاعجب منك كيف كنت عالماً بخبر هذه المؤامرة ولم تخبر بها علياً وانت في الكوفة »

فتنهد وقال « كفي الملام قد وقع وما وقع وكنت أظن الكتمان يبعد المصيبة وفاتني ان اخبرك بأن المؤامرة ليس على مقتل الامام على فقط بل هى على مقتل عمرو ومعاوية أيضاً » وقص عليها الخبر مختصراً

الفصل الثاني والاربعون

الحب يعمي ويصم

فاستغربت خولة الخبر وقالت « مالنا ولهذين اتنا نريد الدفاع عن علي الآن ولكنني لم افهم كيف انتقل خبر قدومكم الى هنا وأنت تقول انه كان سراً مكتوماً لم يطلع عليه أحد »

فكاد سعيد يسيء الظن بقطام ولكن الحب غشى بصيرته فانتحل سبباً آخر وقال « لاادرى » وخطر له ان يقص عليها حديثه مع قطام ثم امسك عن ذلك حفظاً لعهدها وهو كما قلنا غير مرة سليم النية لايعرف الدهاء ولهذا السبب نفسه لم يطلق لعواطفه الحرية في حب خوله مع أن الاحوال تقضي عليه بحبها بالنظر لما آنسه من جمالها وحميتها مع استهلاكها في نصرة الحق

على أنه أدرك مع ذلك أن كتمان خبر المؤامرة عن على الى ذلك الحين خطأ ولكنه حمله على غلط قطام لا على سوء قصدها ومع ذلك فقد رأى الامر سهل التلافي ولا يزال ثمة باب مفتوح لانقاذ على بمجرد اعلامه . ولكن ذلك يدعو الى السفر السريع وهو لايعلم ما آل اليه حال عبد الله فقال لها « اني عازم على الكوفة بأقرب وقت فما الذى افعله برفيقي وأنا لا أدرى اذا كان حياً أم ميتاً »

قالت « غداً نعرف الحقيقة دعني اذهب الآن الى منزلنا بالفسطاط وامكث انت هنا الى الصباح »

قال « كيف استطيع البقاء هنا وحدى ولا صبر لى على استطلاع خبر عبد الله فأرى ان ادخل الفسطاط واتردد الى المسجد ولا يعرفنى احد هناك فاما ان اسمع خبراً ممن يفد على المسجد من المصلين او تبعثى الىّ بالخبر »

قالت « لك الخيار في ذلك » ونهضت فنهض وخرجا فرافقها الى

قرب منزلها وودعها وعاد يلتمس بيت الغفاري للمبيت وهو لا يدري أن الرجل في جملة المقبوض عليهم وقد أصبح بيته موضع شبهة ولا كانت خولة تعلم ذلك

وكان الجند بعد القبض على أهل ذلك الاجتماع قد ساقوهم في الاغلال الى السجن وكان عمرو ينتظرهم في داره فلم يصبر على رؤيتهم الى الصباح فلما أخبروه بالقبض عليهم أمر باستقدامهم اليه واحداً واحداً فرأى بينهم جماعة ممن لم يكن يخطر له أنهم على غير دعوة بني أمية وخصوصاً الغفاري . ولما وصل الى عبد الله عرف أنه من بني امية وتذكر قرابته من ابي رحاب ولكنه تجاهل عن ذلك كله وأمر ان يسجن كل من هؤلاء في حجرة على حدة وبعث جنداً يبغتون منازلهم ويقبضون على من فيها من الرجال لعلهم يطلعون على شيء جديد وهو معوّل على اعدامهم بعد ذلك . ولم يكن الجند يحتاج الى امر للنهب وقد اصبحت منازل اولئك العلويين وما فيها مالا حلالا لهم . فما صدقوا ان امروا بالبحث فيها حتى حملوا عليها واوغلوا سلباً ونهباً

الفصل الثالث والاربعون

البغتة

وكان سعيد قد نزل في بيت الغفاري فسأل عن صاحبه فأخبره اهل المنزل انه خرج من الظهر ولم يعد . فلم يخطر له انه في جملة المقبوض عليهم فالتمس الحجرة التي وضع فيها ثيابه وهمّ بالرقاد ولم يكد يلتقي رأسه على الفراش حتى تراكمت عليه الهواجس فأخذ يفكر في عبد الله وماذا عسى ان يفعل لانقاذه وخاف اذا ابطأ في المسير الى الكوفة ان ينفذ ابن ملجم بغيته فيذهب سعيهم عبثاً

وفيما هو في هذه الهواجس وقد طار نومه سمع لغطاً في الدار ولم تمض برهة حتى علت الضوضاء وضج الناس فوقف وتنصّت فاذا برجال عمرو قد

دخلوا المنزل وأوغلوا في النهب ومن تعرض لهم آذوه فأيقن انهم آتون الى حجرته وتحقق انهم مؤذوه فتقلد حسامه والتفت يميناً وشمالا لعله يجد مخرجاً ينجو به بنفسه فسمع صوتاً ينادبه من وراء الحجرة فاستأنس بالصوت ثم عرف انه صوت خولة ولم يكن له سبيل الى مشاهدتها غير نافذة عالية لا يشرف منها الا اذا صعد على مرقاة فاحتال في الصعود اليها وأطلّ وكان الظلام حالكاً ولكنه رأي شبحاً وسمع صوت خولة تقول له « ان الشرطة سيفتكون بكل من في المنزل واذا رأوك آذوك فاليك هذا الخمار والجلباب فالبسهما وافتح الباب واخرج فيظنوك امرأة فلا يتعرضون لك » فلم يصدق أنه سمع ذلك حتى مد يده وتناول الخمار والجلباب وتنكر بهما وتخمر وهو يرقص من الرعشة مخافة أن يسبق اجله فيدخل الشرطة قبل خروجه

فلم يكن الا كلمح البصر حتى لبس وتلثم بالخمار وفتح باب الغرفة وخرج بزي امرأة فرأى الضوضاء لا تزال مرتفعة والنهب جارياً فلم يتعرض له أحد فالتمس الشارع وراء البيت حيث كانت خولة واقفة وهو مع دهشته وبغتته لم يتمالك عن الاعجاب بشهامتها والاقرار بفضلها عليه . وفيما هو يفكر بها رآها تمشي أمامه فاقتفى خطواتها حتى وصلا الى مكان منفرد فوقفت وقالت له « الحمد لله على سلامتك وسلامة الامام علي » فلم يفهم مرادها فابتدرته قائلة « لا تعجب لقولي فان حياة الامام علي تتوقف على حياتك اذ ليس هنا من يعلم الخطر الذي يتهدده سواك نعم اني اعرفه ايضاً ولكنني لا اضمن اقتداري على الذهاب ولا آمن الاعتماد فيه على احد »

فقال « وأنا انما أبغي البقاء حيا لا قوم بانقاذ هذا الامام من القتل والفضل بالحقيقة لك انت فأخبريني كيف عرفت بالخطر المحدق بي حتى جئت بهذه الحيلة »

قالت « علمت من والدي ان عمراً أمر بنهب منازل اولئك العلويين والقبض على من فيها من الرجال والمال وأخبرني ايضاً ان هذا الغفاري كان

في جملة المقبوض عليهم وقد علمت انك نازل في منزله فجئت اليك بهذه الحيلة فالحمد لله على سلامتك »

فشعر سعيد بفضل خولة وأحس بانعطاف نحوها ولكن حبه لقطام مازال غالباً عليه قابضاً على قلبه لا يترك له سبيلا الى سواها

وبعد التأمل برهة قال « وما العمل الآن اني عازم على الكوفة عاجلا ولكنني لا أدري ما ألم بعبد الله ولا ما يؤول اليه حاله هل علمت شيئاً عنه ؟ »

فتشاغلت خولة عن الجواب باصلاح ثوبها كأنها تحاول اخفاء ماتعلمه فظنها لم تسمع كلامه فأعادالسؤال . فقالت « لايعلم المستقبل الا الله »

فلم يعجبه جوابها فقال « افصحي عما تعلمينه ياخولة »

قالت « اعلم ان عمراً أمر بقتل أولئك العلويين في فجر هذا الصباح ولكن من يدري النتيجة »

فاختلج قلب سعيد أيما اختلاج وشعر كأنك صببت عليه ماء غاليا وقال « ماذا تقولين هل يقتلون عبد الله ما العمل كيف يقتلونه »

فقالت « دع الامر لله واعذرني اني لاأستطيع البقاء معك طويلا لئلا ينتبه والدى لغيابي فلا انجو من القتل . وأما انت فحياتك في أشد الخطر فيجب عليك ان تخرج من الفسطاط حالا »

فقطع كلامها وقال « كيف أخرج وعبد الله سيقتل غداً انه صديقي وابن عمي وأعز من أخي كيف العمل يارباه »

فقالت له « لاخيرة في الواقع فان شراً واحداً أهون من شرين ومع ذلك ان الوقت ضيق لامجال فيه للسعى أو البحث عن سبيل لانقاذ حياة عبد الله اذا قدر الله قتله ونحن الآن في منتصف الليل وسينفذ القتل عند الفجر . . . » قالت ذلك وسكتت هنيهة

فابتدرها سعيد قائلا « يلوح لى ان ابوح لعمرو بعزم بعض الناس على قتله وأحذره من الوقوع في الخطر ألا تظنينه يعفو عن قتل عبد الله مكافأة لهذا الجميل »

قالت « ربما عفا ولكنه لدهائه وشدته يظن في قولك السوء فيقبض عليك ويؤجل قتل عبد الله حتى يأتي ١٧ رمضان فاذا لم يظهر صدق قولك قتلكما جميعاً . فهل انت ضامن ان المؤامر على قتل عمرو يأتي في الوقت المعين وخصوصاً اذا علم باطلاع عمرو عليه . فلا تكون النتيجة الا انك القيت نفسك الي التهلكة . ولكنني أرى ان تترك الامر الى لعلي اهتدي الى وسيلة استغفل بها والدي فأذهب بنفسي الى الامام واطلعه على هذا السر فاذا رأى ان يقبض على فليفعل والمستقبل في يد الله . أما انت فسر حالا الى الكوفة قبل فوات الفرصة ان الوقت قصير . . . . . ووقتي الآن أقصر منه . دعني اذهب الى والدي قبل ان يعلم بغيابي فيعرقل مساعي ثم أرى مايكون . وسر انت الى الدير الذي كنا فيه في أول هذا الليل وسآتيك بالخبر . وقبل ان تصل الدير انزع عنك النقاب والازار وادخل بثوب الرجال ورئيس الدير يعرفك فلا يستغشك » . قالت ذلك وانصرفت تلتمس منزلها وهويود لو انها بقيت

الفصل الرابع والاربعون

الخلوة

فلما خلا بنفسه مشى وهو غارق في بحار الهواجس لايدري الى أين يسير . فما شعر الا وقد خرج من الفسطاط ووصل الى حافة رعة ظنها لاول وهلة النيل . ثم مالبث ان رأى ضيقها فعلم انها خليج . وكان الظلام حالكاً فوقف برهة وأفكاره تائهة في عبد الله ومصيره وكلما تصور ماهو فيه من الخطر هب جسمه واقشعر بدنه

وظل واقفاً وقد نسي موقفه لانشغال باله فرأى بالقرب منه نخلة فاقترب منها وجلس على حجر تحتها وأسند ظهره اليها وجعل يفكر في حاله وحال عبد الله وما جره الى تلك المدينة من البواعث الهامة . فتذكر قطام ووعودها وما مر له معها من الاحوال . وكان الجو هادئاً لايكدره الا نقيق

الضفادع على شاطىء ذلك الخليج فاتخذ نقيقها شؤماً على عبد الله وتصور انه لايطلع النهار حتى يكون في عداد الاموات . فلما تخيل ذلك اقشعر بدنه فوقف بغتة وقال في نفسه « أأبقى أنا هنا وعبد الله في حال الخطر الشديد . . . ماذا تكون حاله مع عمرو . . هل يقتله أم يستبقيه آه . . . ماذا أعمل هل امكث في الفسطاط لانقذ عبد الله من القتل أم أسير الى الكوفة لانقاذ الامام علي . . ولكن ما الفائدة من بقائي هنا وابن العاص قد عول على قتل عبد الله في صباح الغد . . . . لابد من المبادرة الى انقاذه » قال ذلك ومشى بجانب الخليج جنوباً وهو يفكر في مجرى الماء هناك ونقيق الضفادع يعترض مجرى أفكاره . ثم تأمل في ذلك الخليج فتذكر انه خليج أمير المؤمنين وقد حفره عمرو بن العاص لما فتح مصر منذ عشرين عاماً لارسال المؤونة عليه الى الحجاز تلافيا لما كانوا يخافونه من القحط هناك . وكان قد حفره باشارة الخليفة عمر بن الخطاب [1] لما كان كرسي الخلافة في المدينة فتذكر حال الاسلام في ذلك العهد وما كان فيه من اجتماع الكلمة وما فتحته سيوف المسلمين من البلاد الواسعة في الشام ومصر والعراق في بضع عشرة سنة . وكيف تحولت تلك السيوف الباترة بعد مقتل الخليفة عثمان الى الفتنة فانقسم المسلمون فيما بينهم وشغلوا عن تأييد سلطانهم بالحروب الاهلية حتى أصبحوا يقتلون خلفاءهم بتهم ماانزل الله بها من سلطان . وأقبح ما آلت اليه تلك الفتنة أنهم تآمروا على قتل امرائهم وخصوصاً الامام علي وهو ابن عم الرسول وخيرة وادالمسلمين ولا ذنب له غير السعي في تأييد الكتاب . ولما تصور تلك الحال انقبضت نفسه وغلب عليه الكدر حتى كادت تخنقه العبرات وهو لايدري أيبكي عبد الله أم يبكي الجامعة الاسلامية أم يبكي الامام عليا أم يبكي سوء بخته الذي جره الى تلك المدينة حتى وقع في تلك الحيرة

(١) المقريزي ج ١

الفصل الخامس والاربعون

خليج امير المؤمنين

ثم وقف بغتة والتفت الى ذلك الخليج وجعل يخاطبه قائلا « ألست الخليج الذي أشار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بحفرك ؟ قل لى بمائك الذي يجري فيك هل علم ابن الخطاب لما أذن بذلك أن دولة الاسلام سيقضي عليها بالانقسام حتى يحمل عامتهم على خليفتهم فيقتلوه ثم يختلفوا على الخلافة فيقتسموها ثم يختصموا على اقتسامها . هل خطر لابن العاص يوم نزل وادى النيل وحاصر هذا الحصن المنيع حصن بابل أنه سيجرد سيفه على المسلمين ويقتل ابن ابي بكر حرقاً بالنار ثم ينقم على ابن عم الرسول فيستخرج الخلافة من يده بالحيلة . . أين أنت ياعمر ياأمير المؤمنين ياجامع كلمة المسلمين . كانت المدينة مقر الخلافة وانت على كرسيها فأصبحت منقسمة على نفسها يدعيها غير أهلها . . . آه ياربي ماهذه الحال ياليتني مت قبل ذلك . . هنيئاً لك ياأبا رحاب ان عظامك ساكنة في هذا التراب وروحك تنتظر لقاء ربها في يوم الحساب . . أما أنا الشقي فاني تائه بعدك تتنازعني عوامل لا أدري مصدرها ولا أعلم مصيرها أأبقي هنا لأرى مصير أخي عبد الله أم اسرع الى الكوفة لانبيء الامام بما تآمروا عليه ؟ . . ارشدنى ياجدى وياسندي .. أأبقي هنا ؟ وما الفائدة من بقائى هل يعفو عمرو عن عبد الله فيبقى حياً فأراه . . ؟ لا اظنه يفعل . . اذاً ماذا يفعل أيقتله ولا استطيع الدفاع عنه ؟ ؟

« آه ياخولة يخيل لى انك ملاك أرسلك ربك لترشدينى الى سواء السبيل . . فهل يتم لى السعد على يدك فتنقذين عبد الله من القتل ... »

الفصل السادس والاربعون

الاغراق

وفيما هو يحدث نفسه ويمشي الهوينا على تلك الضفة سمع لغطاً وحركة عن بعد فأجفل وتقدم نحو الصوت وهو يحدق بنظره فعلم انه بجانب فم الخليج عند اتصاله بالنيل ورأى في النيل سفنا كبيرة وسمع لغطا عميقا كأن لصوصا يهمسون فيما بينهم ويحاذرون ان يسمعهم أحد . وكان هو لايزال بلباس النساء فخاف ان يراه احد فيتحكك به فينكشف أمره فانزوى وراء جميزة كبيرة بقرب الشاطيء ثم خاف ان يدنو منه أحد فيراه فتسلق فرعا من فروعها واختبأ بين الاغصان والاوراق وهو يحاذر أن يحف الورق . حتى اذا استكن على غصن غليظ جعل يتفرس بما يراه فاذا هناك بضعة وعشرون رجلا يحيطون ببضعة وعشرين آخرين كانهم أسرى مغلولون يساقون الى قارب كبير وسمع بعضهم يقول « الى أين أنتم ذاهبون بنا في هذا البحر ألعلكم تريدون اغراقنا » فشجبه أحدهم قائلا « وما علينا اذا اغرقناكم . وانتم عصبة شريرة تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان »

فصاح آخر « أهذه أعمال ابن العاص يقتل الرجال غيلة . أما كفاه انه يلتمس الخلافة لصاحبه بالحيلة حتى يقتل نصراء الحق غرقا . . . أما تخافون الله . ألا تخافون يوم القيامة »

فصاح به آخر وقال « لاتخف يافلان اننا انما امرنا بنقلكم الى جزيرة الروضه تبقون فيها أياما » ثم علت الضوضاء فعلم سعيد انهم انصار علي الذين قبضوا عليهم تلك الليلة في عين شمس . فتحقق ان عمراً اشار بقتلهم غرقا في النيل فارتعدت اعضاؤه حتى كاد يقع من الجميزة وحدثته نفسه ان ينزل لنصرتهم . ولكن الخوف غلب عليه لعلمه انه اعزل وانهم جماعة كبيرة وكلهم مسلحون فلبث برهة كانها سنة وهو يرتجف من شدة التأثر وتنصت

لعله يسمع صوت عبد الله أو يراه فلم يسمع شيئاً ولم يكن يطمع ان يرى أحداً لشدة الظلام ولا هو يأمن أن ينجيه من ايديهم لكثرتهم وانفراده

ولم يكن الا بضع دقائق حتى اصبح الكل في القارب ثم اداروا الدفة وهو ينظر اليهم ولم يقلعوا حتى ندم على سكوته وودّ لو انه جاهر بنفسه لعله يستطيع نجدة اولئك المظلومين أو يقتل . ولكنه تذكر ان بقاءه حياً ضروري لانقاذ الامام علي فمكث برهة كأنه في حلم وهو يتردد بين الندم والاسف ويلتمس عذراً لسكوته حتى توارت السفينة عن بصره في لجج الظلام فأيقن ان عبد الله لا يلبث أن يبيت طعاماً للاسماك اذا كان بين اولئك . وهو لا بد ان يكون بينهم لانهم عصبة واحدة نالوا جزاءً واحداً

الفصل السابع والاربعون

الندم

فلبث هنيهة يفكر فيما مرّ به فاشتدت هواجسه حتى بكى ونزل من الجميزة وهو يلطم وجهه ويندب عبد الله ويبكي حاله ويوبخ نفسه لضعفه وتردده . فقال « أأرى عبد الله يساق الى القتل ولا انصره يا للجبن يا للخيانة . . . كيف أتخلى عن رجل ذهب ضحية حبه لي ولولاي لم يأت هذه الديار ولا رأى ما رآه من البلاء . . آه ياربي ما الفائدة من حياتي . . . » ثم سكت هنيهة وهو يستجمع حواسه ويتأمل في موقفه فرأى انه ارتكب خيانة عظمى . فقال « اني لا استحق البقاء حياً ولا بد من ان ألقي نفسي في هذا الماء لعلي التقي فيه حبيبي عبد الله فنذهب بقايانا معاً » قال ذلك وهمّ أن يلقي نفسه في النيل فشعر بقوة أوقفته بغتة وقد فكر في الامام على وما يحدق به من الخطر فقال « اذا قتلت نفسي انما اقتل علياً معي . . . نعم اقتله لاني اذا لم التمس الكوفة وأنبئه بعزم ابن ملجم ذهب قتيلا بذلك السيف المسموم . . . آه يا خولة أين وعدك بانقاذ عبد الله . . . ولكن ما ذنبك وأنت لا تعلمين انهم سيسرعون في اغراقه قبل انبلاج الصباح . . . انه دهاء

ابن العاص ومكره ... ولكنه سوف ينال نصيبه من اولئك المؤامرين ... يا ليتني أنبأته بالمؤامرة وجعلتها فدية لعبد الله ... ولكن قضي الامر ولا خيرة في الواقع »

الفصل الثامن والاربعون

خولة

ثم سكت وجعل يتأمل في ما حوله ولا يطاوعه قلبه أن ينظر الى جهة مسير القارب . فأراد ان يتحول الى المكان الذي أتى منه فرأى شبحاً مسرعاً نحوه فخاف وتهيأ للدفاع اذ رآه يقترب منه . فلما اقترب الشبح اذا هو امرأة فعجب لقدومها وحدها في ذلك الليل ولكنه ما لبث ان تفرس في قيافتها حتى علم انها خولة فخفق قلبه في صدره وغلب الخجل عليه لما رآه من جرأتها وقدومها في ذلك الليل وهي فتاة لعلمه أنه لا يحملها على القدوم الا السعي في انقاذ عبد الله . فحدثته نفسه أن يختبىء خجلا ولكن البغتة غلبت عليه فدنا منها وناداها . فلما عرفت صوته صاحت فيه « أين عبد الله »

فأراد أن يجيبها فاختنق صوته وسبقته العبرات

فدنت منه وهي تقول « سعيد . . . هل رأيت أحداً جاء الى هذا المكان وما الذي جاء بك الى هنا »

قال « نعم اني رأيتهم يحملون اولئك الاسرى في قارب »

قالت « وأين هم . . . اين ذهبوا بهم . . . هل رأيت عبد الله . . . هل هو معهم . . . »

قال « لقد حملوهم في القارب ولا أدري اذا كان عبد الله معهم لاني لم اسمع صوته ولا رأيته »

فصفقت بكفيها وقالت « لا بد من ان يكون معهم آه ما الحيلة الآن . . ما كنت أظن ان ابن العاص يعجل بقتلهم على هذه الصورة . . وكيف لم تحاول الدفاع عنهم . . . »

فأجابها والاعتذار والخجل يتنازعانه وقال « لم اكن اعلم ان عبد الله معهم وهبي اني علمت فكيف استطيع انقاذه وأنا فرد أعزل وهم جماعة مسلحون . . . . »

فصمتت خولة برهة ثم قالت « لقد فعلت حسناً فأبقيت على نفسك لانقاذ الامام علي لان حياته موكولة الى سرعة رجوعك »

فقال بلهفة « وأنت ما الذي جاء بك وكيف عرفت بمسيرهم »

قالت « علمت ذلك من عبدنا وكنت قد دبرت حيلة ادخل بها على عمرو لاستمهله في قتل عبد الله باطلاعه على سر المؤامرة فعلمت انه بعث بهم هذه الليلة لاغراقهم في النيل مخافة ان يترتب على قتلهم جهاراً فتنة وهو يعلم ان انصارهم كثار في الفسطاط . فأسرعت لعلي استطيع انقاذ عبد الله بحيلة . فلم يساعدني القدر . . . واأسفاه عليك يا عبد الله . . آه من أهل الظلم . . . ان عمراً قد غلب عليا بحيلته فأخرج الخلافة من يده لجهل ابي موسى الاشعري ولكنه لن ينجو بنفسه من غائلة المؤامرين . . . »

ثم دنت من سعيد وقالت « انا أعلم ان فقدان عبد الله مصيبة علينا لانه شهم ولكنه قضي ضحية واجباته على اننا نرجو ان نعوض عن خسارته بانقاذ الامام على من خطر القتل فاركب الى الكوفة على عجل وتمم المهمة التي جئت من اجلها . فها قد عرفت اسم المؤامر وانه سار الى الكوفة فاسرع ما استطعت قبل فوات الفرصة »

وكان سعيد مع شدة تأثره مما رآه تلك الليلة من الاهوال لا يغفل عما أبدته خولة من الحمية والجسارة وقد ازداد حباً لها واعجاباً بشهامتها . . .

وفيما هو يفكر في ذلك ابتدرته قائلة « اعلم يا سعيد اني خرجت الليلة من بيت والدي تحت خطر القتل وأنا احسبك في الدير كما تواعدنا وكنت عازمة على الذهاب لاستحثك في سرعة المسير ثم أعود الى والدي وانتحل له سبباً في خروجي . أما وقد التقينا هنا فاني استودعك الله والتمس منك ان تسرع في الذهاب واني عائدة الى بيتنا وسأرسل اليك جملاً مع عبدنا وآمره أن يسير في ركابك الى الكوفة »

الفصل التاسع والاربعون

السفر العاجل

فأعجب سعيد بتدبيرها وثبات جأشها ورأى نفسه ضعيفاً بين يديها ولم يستطع مخالفتها فقال « لا نلبث ان يتبين لنا الخيط الابيض من الخيط الاسود . وها اني خارج الى جبل المقطم فهل يوافيني عبدك وجملك الى هناك »

قالت « انه سيوافيك حالا سر بحراسة الله واحذر ان تفوتك الفرصة . ان ابن ملجم قد سبقك الى هناك . . هل فهمت ذلك ؟ » قالت ذلك ومدت يدها اليه فصافحها ويده ترتعش وقد نسي حاله لحظة ثم تذكر ماهو فيه من الامور الهامة . وربما اضطرب قلبه بين يدي خولة ولكن حبه قطام ما زال غالباً عليه على انه عول في باطن سره اذا نجح في مهمته ان لا يدع خولة تخرج من يده فيجعل لها مقاماً في قلبه . فقال لها « ارجو ان تذكريني وتدعي لي بالتوفيق »

قالت وقد فهمت مراده «سر اني معك وان كنت في الفسطاط وأرجو ان يجمعني بك يوم ينجو به الامام من ايدى الظالمين وينال مايستحقه من الاستقلال بالخلافة »

فاتخذ قولها تعنيفاً له لافتكاره بالحب ونحوه وهو في مهمة ارفع منزلة من ذلك

أما هي فأسرعت في وداعه وألحت عليه في سرعة المسير واكدت له ان يلاقي عبدها والجمل وراء المقطم ثم تحولت بسرعة الى الفسطاط

فلما تركته وحده حول وجهه الى التيل حيث كان القارب . وتأوه وتحسر وقال « استودعك الله ايها الصديق الحميم استودعك الله ايها الاخ الحبيب لاغرو اذا ذهبت ضحية في سبيل نصرة امير المؤمنين انك اذاقضيت

عزيزاً وأنت حي فستلق ربك باسما مفتخراً فادع لي ان القاه منتصراً على القوم الظالمين »

قال ذلك وتحول يلتمس جبل المقطم ولم يدركه حتى انبلج الصبح فلقي العبد قد سبقه الى هناك ومعه الجمل وسائر معدات السفر

الفصل الخمسون

تمام الحيلة

فلنتركه سائرا يطوي البيداء ولنعد الى قطام في الكوفة وما كان من دهائها ومكرها بعد سفره . فقد ذكرنا ارسالها عبدها الى الفسطاط للوشاية بسعيد وعبد الله ثم خلت بلبابة فقالت لها « لقد تمت لنا الحيلة في قتل هذين المغرورين فانهما مقتولان لا محالة . بقي علينا ان نعلم من هو المؤامر على قتل علي فاذا عرفناه نشطناه على قتله وساعدناه فان قبيلتي كلها تنصره في ذلك »

فضحكت لبابة وقالت « انه امر سهل فان عبدك ريحان ماهر باساليب الدهاء مثل سيدته ولا نظنه الا عائداً الينا بالخبر اليقين وأما تحريض ذلك المؤامر على القتل فهو اسهل وخصوصاً اذا رأى هذا الوجه الجميل فانه مفتتن به لامحالة فما عليك حينئذ الا ان تعديه بالزواج وتجعلي قتل علي مهراً حلالا لك . . . كيف رأيت رأيي »

فقالت قطام « بورك فيك ياخالة والله انك معبرة عن احساسي . أما وعده بالزواج فهو امر سهل علي . ولا نظننا نحتاج في البحث عن ذلك الرجل الى كبير مشقة فأنه اذا دنا الميعاد المضروب لا بد من قدومه الى الكوفة واذا جاءها فلا بد من أن يطلع احداً من اهلي على عزمه لعلمه اننا على دعوته . فاذا عرفناه هان عليَّ كل عسير »

صدق القائل « كل سر جاوز الاثنين شاع » فلم يدخل شهر رمضان حتى تحدث اهل الكوفة في حادث فظيع يخافونه على حياة امر المؤمنين وكان الناس يتداولون ذلك الخبر همساً وهم لا يعبأون به لانه غير مسند الى

شاهد ولا أحد عرف القائل فضلا عن علم العقلاء منهم ان امثال تلك الاشاعات جائزة في مثل ما كان فيه الامام على يومئذ . ولم يفت الامام وأهل حاشيته شيء من تلك الاشاعة ولكنهم لم يعبأوا بها وحملها أهله وأصحابه على اشاعات ينشرها ذوو الاغراض . ومما يحسن الاشارة اليه انك قلما ترى حادثاً فظيعاً لم تتقدمه الاشاعات المنبئة بقرب وقوعه . وهو سرٌّ لا نفهمه ومهما يكن من الامر فان أهل الكوفة كانوا يتحدثون ببلاء يخافونه على أمير المؤمنين ولكن أكثرهم كانوا لا يكترثون

ومضت أيام ودخل شهر رمضان فاصبحت قطام قلقة لتعرف من هو المؤامر على قتل الامام علي لتنصره أو تحرضه . فلما اقترب نصف الشهر ولم يأت أحد ولا سمعت بأحد ظنت المؤامرين عدلوا عن عزمهم تهيباً وفرقاً واستبطأت عبدها ريحان وقد كانت في انتظار قدومه لعلها تسمع منه شيئاً عن أولئك المؤامرين ولكي تسأله عما آلت اليه حال سعيد وعبد الله . على انها لم تكن تشك في وقوعهما في الفخ

الفصل الحادي والخمسون

عود ريحان

وأصبحت قطام في الخامس عشر من رمضان والباب يقرع وكانت لبابة تبيت عندها بعد سفر ريحان . فنهضت لبابة فسمعت جعجعة جمل عرفت انه جمل ريحان فاسرعت الى الباب ففتحته فاستقبلها ريحان فقبل يدها وهو لا يزال بلباس السفر ودخل تواً الى غرفة سيدته . فلما رأته ابتسمت له ابتسامة عوضت عليه كل شقائه . فتقدم لتقبيل يدها وهو مشرق الوجه اشارة الى نجاح مسعاه . فقالت « اني اقرأ آيات البشر على وجهك وان كان اسود اللون فاقصص عليّ تفصيل ما أتيته من آيات الدهاء والمهارة »

فقال وهو ينفض الغبار عن لحيته ووجهه « ركبت الى الفسطاط فوصلتها يوم الخميس قبل وصول سعيد وعبد الله بيوم فسرت تواً الى الامير عمرو

بن العاص وقصصت عليه خبر القادمين وان في الفسطاط جماعة من أنصار علي يجتمعون في عين شمس كل جمعة . فأمر رئيس شرطته ان يتهيأ للوقت المعين وخفت أن يهاجموا المكان قبل وصول سعيد وعبد الله ولكنهما وصلا في اليوم التالي وذهبا الى المجتمع وقبضت الشرطة عليهم جميعاً ولكنني لم أرَ سعيداً في جملة الاسرى »

فقطعت قطام كلامه قائلة « وهل قبضوا على جماعة كبيرة من أولئك الانصار »

قال « قبضوا على نحو عشرين وعبد الله معهم »

قالت « وسعيد ؟ »

قال « لم أره وأظنه تأخر عن الاجتماع فلم يحضره فنجا بنفسه »

قالت « وماذا فعلوا بالاسرى »

قال « ساقوهم الى النيل وأماتوهم غرقى في الليلة التي قبضوا عليهم فيها »

فاشرق وجه قطام ثم انقبض بغتة ولبابة تنظر اليها كأنها تتلذذ بالتأمل في ملامحها . فلما رأتها انقبضت همت بها وقالت « ما بالك ؟ ما الذي كدرك »

قالت « ان سعيداً لايزال باقياً فأخاف ان يعرقل مساعينا »

قالت لبابة « لا خوف منه لانه كما تعلمين بسيط القلب سهل الانقياد تتطلي عليه الحيلة بسهولة . وأما عبد الله رفيقه فقد رأيت فيه دهاء ومكراً فالحمد لله على نجاتنا منه »

قالت « صدقت ولكن سر المؤامرة عند سعيد فاخاف اذا جاء وانبأ علياً به أن يحتفظ علي بنفسه فيذهب سعينا هباء منثوراً »

فاطرقت لبابة برهة ثم التفتت الى ريحان وقالت « هل عرفت الرجل المؤامر على قتل علي »

قال « علمت انه من بني مراد واسمه عبد الرحمن بن ملجم »

فبغتت لبابة وصاحت « أهو ابن ملجم . . ؟ لقد هان الامر »

فقالت قطام « وهل تعرفينه »

قالت « اعرفه جيداً وهو جريء قلَّ ان يقدم على مثل هذا العمل

سواء واذا كان عبد الرحمن بن ملجم هو المؤامر فقد نلنا المرام فانه يحب الحسان ويسلمنك في سبيل مرضاتهن » . ثم ادنت فمها من اذن قطام وقالت « ولا أشك اذا رآك الا خاطبك » . ثم تحولت الى ريحان وقالت « وهل رأيته قبل مجيئك »

قال لا « ولكنني سمعت انه سافر الى هنا يوم وصولي الفسطاط وكنت اظنه وصل اليكم ولا اشك اذا جاء قدم اليكم لاني آنست من خبر حزبنا هناك مايدل على ذلك فهم يعتقدون فينا الكره الشديد لعلي وانا نريد قتله وخروج الامر من يده . ولذلك فانا لا اظن المؤامر اذا أتى الكوفة الا مكاشفاً بعض أسيادي من اخوتك وأعمامك »

فقالت « بالله ألا سرت الى أهلي وبحثت عن الرجل فاذا سمعت بخبره ائتني به على عجل واحذر ان يعلم بأنك مرسل من قبلي لهذه الغاية وأنت فطن عاقل فلا توقع نفسك في ما تلام عليه »

وخرج ريحان ولم يبدل ثيابه فتبعته لبابة الى حديقة البيت فوقفت به في ظل نخلة وهمست في اذنه قائلة « اذا لقيت الرجل قل له ان خالتك لبابة هنا وهي تريد ان تراك لامر هام . وعجله بالمجيء واذكر له اني مقيمة في منزل سيدتك قطام واحتل في حديثك بحيث يفهم منك ما عليه سيدتك من الحسن والجمال واني ربما ساعدته على الزواج بها . وانت فطن عاقل لا تحتاج الى تدريب في ذلك » . فقبل ريحان يدها وهو يضحك ويهز رأسه كأنه يقول « يظهر انك لا تعتقدين فطانتي ولولا ذلك لم يكن ثمة داع لهذا التصريح »

الفصل الثاني والخمسون

لبابة وابن ملجم

وانصرف ريحان وعادت لبابة الى قطام وملامحها تدل على اعجابها بدهاء قطام وابتسمت وهي تقول « لاريب عندي اننا فزنا بما نريد وقلبي

يحدثني ان علياً سيقتل ويشفي غليلنا منه على اهون سبيل »

أما قطام فظلت صامتة وقد قطبت حاجبيها كأنها تفكر في أمر ذي بال. فقالت لها لبابة « مابالك ياقطام ما الذي حدث لك فاوجب هذا الاهتمام »

قالت « اني خائفة ياخالة »

قالت « ما الذي يخيفك »

قالت « اني خائفة من سعيد فقد قال لنا ريحان انهم لم يقبضوا عليه في الفسطاط ولا يبعد انه اطلع على اسم المؤامر وميعاد القتل ولا أخاله الا قادماً بخبره الى علي فاذا أخبره بأمره تعرقلت مساعينا وذهب سعينا عبثاً »

فقالت لبابة « وما الرأي يا بنية »

فقالت «لا بدلنا من تدبير الامر بالحكمة وتدارك الحادث قبل وقوعه»

قالت « هات رأيك »

قالت « أرى أولا ان نسعى في امساكه عن الذهاب الى علي . اذقد يتراءى له أن يسير اليه حال وصوله الى الكوفة »

فقالت « وهذا سهل فانا نبعث ريحان فيلاقيه في مكان خارج الكوفة لابد له من المرور فيه فاما ان يؤخره عن دخول الكوفة أو ان يدعوه الينا بحجة اشتياقك الشديد اليه ! ! ولا أشك انه اذا سمع بشوقك نسي كل شيء وطار اليك . ومتى جاءنا استبقيناه بأي حيلة كانت واذا لم يبق مختاراً أبقيناه مجبوراً . ماقولك ؟ »

قالت « ارى مثل رأيك ولكننا الآن في الخامس عشر من رمضان ولم يبق الا يوم واحد قبل اليوم المعين فلا بد من المبادرة في ارسال من يوقفه خارج الكوفة أو يستقدمه الينا وريحان قد سار الى اهلي وربما أبطأ علينا »

قالت لبابة « دعي هذا الي ّ ها اني ذاهبة في أثر ريحان فابعثه الى خارج الكوفة وأبحث عن ابن ملجم بنفسي وذلك سهل علي ّ لاني اعرفه شخصياً »

قالت ذلك وتبرقعت وتناولت عكازها وخرجت تعدو ولا عدو الشباب

وخلت قطام بنفسها فتأملت بما هي فيه من الامور وراجعت في مخيلتها

مادبرته من الحيل في سبيل قتل الامام علي فرأت أنها أحسنت بارسال ريحان فاذا نجح في ايقاف سعيد ونجحت لبابة في استقدام ابن ملجم وتم لها اغراؤه وتشجيعه نالت هي بغيتها وانتقمت لابيها وأخيها . ولما تصورت وقوع ذلك انقبضت نفسها لفظاعة ذلك الامر ولكن شوقها للانتقام هون عليها كل صعب

وكانت قطام ذكية الفؤاد متوقدة الذهن ولو انها كانت حسنة الخلق رقيقة العوطف واستخدمت ذكاءها وفطنتها في سبيل الخير لأتت باعمال يعجز عنها اعاظم الرجال ولكنها خلقت شريرة شديدة الانتقام فاستخدمت تلك الجوهرة الثمينة في سبيل الاذى . وذلك كثيراً مايحدث بين الناس اليوم وغداً. فترى أناسا خصهم العناية بذكاء ومهارة وصفاء ذهن فيصرفون تلك القوى في سبيل الشر ويوجهونها الى الاضرار بالناس طوعاً لمطامعهم أو رغبة منهم في انتقام أو نحو ذلك

فأعملت قطام فكرتها بعد ماتهيأ لها من ضروب الحيل فوجدت انه لايزال ينقصها احتياط واحد لابد من تداركه . وذلك ان سعيداً ربما لا يلتقي بريحان لاختلاف في الطريق او ربما التقى به ولم يصغ الى قوله والتمس الذهاب الى الامام علي فأطلعه على سر المؤامرة . فلما تصورت ذلك خفق قلبها واضطربت حواسها ونهضت للحال وجعلت تمشي في غرفتها ذهاباً وايباباً وتخرج منها الى الغرفة الاخرى وهي تود ان تعود لبابة لتتداول واياها في هذا الامر وندمت على ارسالها في تلك المهمة قبل الافتكار في ذلك

ولما تعاظم بلبالها خرجت الى حديقة النخيل وكانت الشمس قد تكبدت السماء وانحسرت الظلال واتفق وقوع شهر رمضان في تلك السنة (٤٠ هـ) في ابان الشتاء لانه يبدأ في العاشر من يناير (ك ٢) [1] وكان يوم خروج قطام الى الحديقة يوماً صحا جوه فحسن الخروج به الى الخلاء في ساعة الظهر للاستدفاء بأشعة الشمس . فمشت بين النخيل مبتعدة عن السور

(١) التقويم العام

الذي يلي الطريق الى ما يلي البحيرة وهي لا تنتبه لما حولها من صرير أو تغريد أو نقيق ولم يكن همها الا إتمام مرامها

الفصل الثالث والخمسون

لقاء ابن ملجم

قضت في الحديقة ساعة وهي وحدها في كل تلك الدار فملت الشمس وحرارتها فعادت نحو البيت وفيما هي عائدة سمعت أناساً يتكلمون عن بعد فوقفت على أرومة نخلة كانوا قد قطعوها للوقود منذ عامين والتفتت نحو الطريق فرأت شبحين ولم تلبث ان عرفت انهما لبابة ومعها رجل غريب الزي علمت انه عبد الرحمن بن ملجم. فحولت انتباهها الى اتمام هذه الحيلة فدخلت البيت على عجل وكانت قد رأت لبابة تكلم عبد الرحمن وتشير اليها بأصبعها · ولما دخلت الغرفة عمدت الى النقاب فأرسلته على رأسها وجلست على وسادة تعودت الجلوس عليها اذا استقبلت الزائرين من الغرباء. ولبثت صامتة تنتظر دخول لبابة وما عتم ان سمعت صوت ضحكتها قبل سماع خفق نعالها. وبعد قليل دخلت لبابة وحدها فاستقبلتها قطام استقبال المشتاق ودعتها الى الجلوس

فقالت « لا أجلس قبل ان أدعو رفيقاً لي صحبته لزيارتك »

فقالت « أهلا بك وبرفاقك أجمعين. فليدخل »

فصاحت لبابة للحال « ادخل يا عبد الرحمن »

وما أتمت كلامها حتى وقف في الباب رجل طويل القامة نحيف البدن خفيف اللحية أشمطها براق العينين بحيث يكاد الشرر يتطاير منهما وعليه العباءة والقفطان والعمامة وآثار السفر لا تزال بادية على نواحي وجهه وخصوصاً الانف فقد كان شديد الاحمرار. فخلع عبد الرحمن نعاله خارج الباب وحيا ودخل. فردت قطام التحية وهي تهم بالوقوف وأشارت اليه ان يجلس فجلس الاربعاء وسيفه مستعرض على حضنه وظهر من كيفية

جلوسه أنه شديد الحرص على ذلك السيف كأنه يخاف عليه الضياع

ففتحت قطام الكلام قائلة «الى من ينتسب ضيفنا »

قال « الى بني مراد »

قالت « والنعم والبركة »

فقالت لبابة « وهو عبد الرحمن بن ملجم من القراء المشهورين قرأ على معاذ بن جبل [1] . أظنك سمعت به »

قالت « أنت تعلمين حالي ياخالة بل أنت أدرى مني بما هو شاغل بالى من الاحزان والمصائب فلم يبق لى عقل أذكر به شيئاً غير مقتل أخي وأبي .. آه من الظلام أهل العدوان » . قالت ذلك وأجهشت بالبكاء وما أسهل ما تستنزل به الدموع

الفصل الرابع والخمسون

خطبة جديدة

وكان عبد الرحمن ينظر اليها من طرف خفي ويلاحظ ملامحها فافتتن بها ايما افتنان وكان قد سمع بجمالها وود لو انها تكون له . ولما لقيته لبابة لم تذكر له شيئاً مما عرفوه عن عزمه ولكنها قالت له « علمت بمجيئك الكوفة واعلم انك تحب الحسان وأعرف واحدة منهن ليس أجمل منها في العراق فجاء ولما رآها تحقق ما سمعه فشغف بها . ومن عجيب امر هذا الرجل انه مع عظم ما انتدب نفسه له من الامر الهائل بقتل امير المؤمنين وقرب اليوم المعين لم يشغله عن مغازلة الحسان شاغل . فلما سمع كلام قطام ورأى اجهاشها قال « وما الذي يحزن مولاتي ؟ ألا أستطيع تفريج كربتها »

فقالت لبابة « لايخفى عليك ما أصابها على أثر واقعة النهروان فقد قتل فيها والدها وأخوها رحمهما الله وهي لاتمضي يوم لاتذكر تلك المصيبة

(١) ابن دقاق :

وتبكي ذينك الفقيدين ولكنني أريد ان أشغلها عن هذه الاحزان بمن يليق بها ... »

ففهم عبد الرحمن انها تلمح الى خطبتها له فقال « اني والله اكون اسعد حظاً من الجميع اذا تم لي ذلك »

فتجاهلت قطام وقالت « وما الذي تتمناه ياسيدي »

قال « لقد جئتك خاطباً وأنت في احزانك عساي استطيع تفريجها فاطلبي مني ماتشائين مما تقربه عيناك »

فتنهدت قطام ثم قالت « اني لاعجب من تسرعك في الطلب ونحن لم نلتق قبل الآن »

فقطعت لبابة كلامها قائلة « نعم انكما لم تلتقيا قبل الآن ولكن لبابة تعرفكما جيداً واذا اذنت مولاتي بكلمة فأقول انكما انما خلقتما لتعيشا معاً »

فسكتت قطام فقال ابن ملجم « ومع ذلك فاطلبي ماتشائين فيكون لك »

فظلت قطام ساكنة برهة تتظاهر بالحياء والتردد اتماماً للحيلة . ثم التفتت الى لبابة كأنها تقول لها « اني استحي أن أقول » فقالت لبابة « أنا أقول . اجعل مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبداً وقينة »

ولم تتم لبابة قولها حتى صاحت قطام « لا . لايرضيني ذلك ولامطمع لي في المال كما تعلمين »

فقال عبد الرحمن « اطلبي ما تريدين »

فتظاهرت بالتمنع وصبرت هنيهة كأنها تستخف بما اقترحه عليها من الطلب ثم قالت « ان مهري انما هو قتل علي بن ابي طالب قاتل ابي وأخي »

فابتسم عبد الرحمن ونظر اليها ويده أعلى قبضة سيفه وقال « ان ذلك وما قالته هذه الخالة سيكونان لك . ثلاثة آلاف دينار وقتل ابن ابي طالب وعبد وقينة . فان مثلك لايعز في سبيل نيلها مهر . واعلمي اني إنما جئت الكوفة لهذه الغاية . انظري الى هذا السيف (وجرده فلمع نصاله لمعاناً شديداً) اني اشتريته بألف وسممته بألف لاقتل به علياً بن ابي طالب »

فابتسمت وقالت « ولكنني ارجو ان يكون ذلك عاجلا لئلا تفوت الفرصة »

فقال « ان موعدنا قريب لم يبق منه الا يوم وليلة سأقتله في صباح ١٧ من هذا الشهر المبارك أي بعد غد فاطمئني »

قالت « وكيف عينت اليوم والساعة ألا يستحسن أن يكون ذلك غداً »

قال « ان لذلك سبباً سأذكره لك بعدئذ ولكنني اقول الآن اني مقيد في انفاذ مهمتي في صباح ذلك اليوم »

فسكتت قطام وهي تتجاهل ما علمته من امر المؤامرة

وكانت لبابة عالمة بغياب ريحان وان لابد من زاد يتناوله الضيف فاستدعت عبدها في اثناء قدومها فجاء وأعد لهم طعاماً تناولوه

وما صدقت قطام أن خلت بلبابة لحظة فأشارت اليها أنها تحب مخاطبتها في أمر ذي بال على انفراد فاحتالت هذه على عبد الرحمن حتى التمس الخروج الى السوق في شغل له وخلت قطام بلبابة للبحث في اتمام الحديث

الفصل الخامس والخمسون

مهمة ريحان

أما ريحان فان لبابة ادركته في الطريق قبل عثوره على عبد الرحمن فأمرته أن يسرع في ملاقاة سعيد خارج الكوفة وألقت اليه من أساليب المكر والدهاء ما يكفل نجاح مهمته . فسار اولا الى ساحة كبيرة في وسط الكوفة تجتمع فيها الدواب من القوافل وغيرها . ولا بد للقادم الى تلك المدينة من المرور بها أو النزول فيها

وقبل وصوله اليها سمع جعير الجمال وصهيل الخيل ولما وصل رأى الساحة غاصة بالدواب وبينها الناس في هرج بين راكب ونازل ورأى الاحمال ملقاة هنا وهناك فجعل يتفرس بالوجوه لعله يرى سعيداً او احداً من خدامه فلم ير

أحداً . فجاء بيت سعيد فسأل عنه فعلم أنه لم يأتِ بعد فخرج يلتمس الطريق خارج الكوفة وهو ينظر الى الافق لعله يرى هجاناً أو فارساً . فمشى ساعتين ولم يرَ أحداً فوصل الى شجرة كبيرة يستظل بها المسافرون للراحة قبل دخولهم المدينة ولا بد لمن كان قادماً من الشام أو مصر من المرور بها . فجلس هناك وعيناه شائعتان الى عرض الافق يفكر في حيلة تنطلي على سعيد فيستبقيه هناك أو يسير به الى بيت قطام . فغربت الشمس ولم يأت أحد وكان القمر بدراً فلم تكد تغرب الشمس حتى طلع البدر وانعكست الظلال من الشرق نحو الغرب . فاتكأ على حجر وعيناه تنظران الى الافق

قضى ريحان هناك أوائل الليل وعيناه شاخصتان وقلبه يخفق وكلما رأى شبحاً ظنه سعيداً فاشتد به البرد وهو يكابر ويتجلد . وحدثته نفسه ان يرجع فخاف أن يأتي سعيد في اثناء غيابه فيذهب سعيه هباءً منثوراً فالتف بثوبه وبعد نصف الليل غلبه النعاس وهو يتجلد ولكنه لم يقوَ على سلطان النوم فأغمضت عيناه على انه لم ينم طويلا فاستيقظ مبغوتاً فأسف لما تولاه من الرقاد فنهض وهو يخاف ان يكون سعيد قد مر ولم يره . فوقف برهة يفكر في ماذا يعمل فصبر نفسه الى الصباح فلم يأت احد فخيل اليه ان سعيداً مرّ في اثناء نومه فعاد الى الكوفة باسرع من لمح البصر فبحث في ساحتها وسار الى بيت سعيد فتحقق انه لم يأت بعد فرجع الى الشجرة وقضى معظم النهار تحتها او حولها كأنه على جمر الغضا . وهو مع ذلك صابر لا يتذمر ولا يتضجر حتى غابت الشمس وطلع القمر . فقال في نفسه : لم يبق الا هذه الليلة فاذا لم يصل الرجل لم يبق ثمة حاجة الى بقائي اذ يكون قد نفذ السهم وقتل علي . فازداد اضطرابه وتمنى أن لا يأتي سعيد فيتخلص هو من تدبير الحيل في اخذه الى قطام وهو مع ذلك لا يرجو ذهابه معه اقرب ميعاد القتل

ولم يدن العشاء حتى رأى جملين قادمين عن بعد وعليهما راكبان فاختلج قلبه واصطكت ركبتاه وزاده البرد ارتعاشاً . فلما اقتربا وقف وتقدم نحوهما

فاذا هما سعيد و بلال عبد خولة وكانا ملثمين فعرف سعيداً من قيافته وأما بلال فلم يعرفه

الفصل السادس والخمسون

ريحان و بلال

وكان سعيد قد قضي مسافة الطريق في قلق على الامام وما صدق انه أطل على الكوفة فانفرجت ازمته وعول أن يسير تواً الى منزل علي . فلما وصل الى تلك الشجرة ترجل وترجل عبده على نية الاستراحة هنيهة ثم المسير . فاستقبله ريحان وسلم عليه فلما رآه سعيد استأنس به ورد السلام ثم قال له « ما الذي جاء بك يا ريحان »

قال « ان سيدتي منشغلة الخاطر لطول غيابك » وأشار اليه ان يدنو منه ليبث اليه ما اؤتمن عليه من السر . فدنا منه على انفراد وشغل بلال بسياسة الجملين

فقال ريحان «ان سيدتي قطام تقريك السلام وتقول لك لقد أطلت الغيبة عليها انت وسيدي عبد الله »

فتنهد سعيد وقال « لاتذكر عبد الله فقد تركناه في مصر » قال ذلك وهو لايريد أن يطارح العبد في مثل هذه الشؤون انفة وترفعاً فاكتفى بالسكوت فسكت ريحان عن سؤاله وهو يعلم ان عبد الله اغرق في جملة من اغرقهم عمرو بن العاص في النيل ولكنه قال « وماذا أقول الآن لسيدتي هل أنت قادم للمبيت عندنا الليلة فانها قد أعدت لك كل وسائل الراحة »

فلبث سعيد برهة تتنازعه عوامل الشوق الى قطام وبواعث العجلة الى علي فرأى ان ميعاد القتل قد آن فاذا بات تلك الليلة في منزل قطام يتمتع برؤيتها ويشنف سماعه بحلو حديثها اصبح في الغد وقد قتل علي لان المؤامر لايتأخر عن فعلته الى ما بعد صباح السابع عشر فقال اذا ذهبت اليها الليلة أراها برهة ثم أسير الى علي قال ذلك والتفت الى بلال فرآه مهتماً

في اعداد العشاء فناداه باسمه فجاء . فلما سمع ريحان اسم بلال اختلج قلبه في صدره ولما دنا منه وتفرس فيه عرف انه عبد خولة وكان قد لقيه في الفسطاط وباح له بمهمته ولم يكن يخطر بباله يومئذ انه سيأتي مع سعيد . فارتبك في أمره وحاول اخفاء حاله لئلا يراه بلال فيعرفه . أما بلال فلما دعاه سعيد أسرع الى مابين يديه فقال سعيد « ألا ترى ان نسير تواً الى الكوفة » قال بلال « الامر لمولاي ولكنني أعددت لك طعاماً ألا تتناوله ونستريح هنيهة ثم نسير الى حيث تشاء »

قال « ولكن بعض اهلي بعثوا في استقدامي للعشاء »

والتفت بلال الى ريحان فرآه قد تقهقر الى جذع الشجرة يتستر بظلها فلم ينتبه له وكان سعيد قد أنس ببلال في اثناء الطريق واطلعه على حديث المؤامرة . فاغتنم بلال تلك الخلوة فقال لسعيد « ألا ترى يامولاى ان تتم مهمتنا التي جئنا بها من الفسطاط قبل كل شيء انى أخاف ان يكون ذهابنا الى اهلك سبباً في التأخير وهم ربما لا يعلمون الغرض الذي يدعونا الى الاسراع وربما حدث لك بعد العشاء ما يؤخرك عن تلك المهمة اما اذا انفذنا مهمتنا وأطلعنا الامام على ما خبأه له اهل البغي نمضي الى حيث تشاء هذا ما أراه والامر لك . على اني قد أعددت لك الطعام الآن فاذا شئت اكلت ثم فعلت مايتراءى لك »

فارتاح سعيد لهذا الرأي ولكنه أراد أن يخبر بلال باطلاع ريحان على سر الامر فقال له « ولا أخفي عليك ان هذا الهمام (واشار الى ريحان) من جملة الساعين في ما نحن فيه »

فقال بلال « فهو يعذرنا اذاً اذا رأى اننا نفضل المسير الى منزل الامام . تفضل الآن الى المائدة وأنا اشتغل معه في تهيئة الجملين فاذا فرغت من الطعام سرنا جميعاً »

الفصل السابع والخمسون

انكشاف الخديعة

قال ذلك وتحول نحو ريحان وكان ريحان واقفاً بجانب الشجرة وهو يود أن لا يخاطبه أحد . وحدثته نفسه أن يرجع الى الكوفة لئلا يراه بلال فينكشف أمره . ولكنه ما لبث أن رأى بلالا يدنو منه ويكلمه فردّ عليه بصوت منخفض وهو يتشاغل باصلاح نعليه وشملته لا يرفع نظره اليه . فاستغرب بلال ذلك فتقدم اليه وناداه وقال « تعال يا أخي نمكث هنيهة ريثما يتناول مولاي طعامه ثم نسير معاً »

فسكت ريحان ولم يجب ولكنه تظاهر بانه أضاع عصاه وتحول للبحث عنها وبلال يتبعه ويعجب لما يبدو منه . فلما بعد ريحان عن ظل الشجرة بانت سحنته فتذكر بلال انه يعرفه وفطن للحال انه هو الذي أسرّ اليه خبر مهمته الى الفسطاط . فانتبه ان في الامر خديعة وخصوصاً لما رآه يحاول اخفاء وجهه . فتقدم اليه وأمسكه بيده وقال « تعال يا صاحبي نمكث هنا ريثما ينهض مولانا فنسير معاً » فلم يرَ ريحان خيراً من أن يجتذب يده ويتظاهر بالغضب فتبعه بلال وهو يقول « يظهر انك لم تعرفني يا صاح ألا تذكر اننا التقينا في الفسطاط »

فصاح به ريحان « وأي فسطاط . . اني لا أعرف الفسطاط ولا أعرفك قبل الآن وليتني لم أعرفك فقد أضعت عصاي بسببك »

فسمع سعيد صياحه وكان قد جلس الى الطعام فنظر اليهما عن بعد فرآهما يتحاوران فوقف ونادى عبد قطام قائلا « لا تغضب ياريحان ان بلالاً على دعوتنا »

فلم يتهيأ لريحان غير السكوت والمجيء اليه لئلا تتأكد الشبهة عليه ولكنه أصر على نكران ذهابه الى مصر

فلما دنا من سعيد قال له « ما بالك تخاصم بلالاً »

قال « اني لا أخاصمه ولكنني أضعت عصاي وفيما أنا أبحث عنها جاءني بحديث لا أعرف له أصلا »

قال سعيد « وما ذلك يا بلال وما الذي قلته له »

قال « لم أقل له شيئاً ولكنني تذكرت اني رأيته في الفسطاط منذ بضعة عشر يوماً وهو ينكر ذلك كل الانكار »

فلما سمع سعيد ذلك استغربه وقال « يحق له أن ينكر عليك ذلك لانه لم يبرح الكوفة منذ أشهر »

فاعاد بلال النظر الى ريحان وتفرس في وجهه وقال « بل أنا على يقين مما أقول وقد لقيته هناك غير مرة ولكنه معذور في انكاره لان وجوده هناك عاد بأشر العواقب على سيدي ورفيقه »

فبغت سعيد وكانت اللقمة في فمه فلم يعد يستطيع ازدرادها وكاد يغص بريقه ووقف للحال وقال « ما تقول يا بلال أظنك تخلط في القول ان ريحان عبد قطام بنت شحنة وقد تركته هنا يوم سفري وأنا واثق بانه لم يبرح الكوفة ولعل الذي رأيته في الفسطاط عبد آخر يشبهه »

الفصل الثامن والخمسون

يحاول عبثاً

فلما سمع ريحان ما التمسه سعيد من العذر عنه اطمأن باله وقال بصوت هادىء « يظهر انه غلطان كما قلت لان البشر يتشابهون ولكنه سامحه الله جاءني مغضباً وأنا أفتش عن عصاي فاغاظني حتى سمع مني كلاماً مؤلماً فانا أطلب اليه أن يعذرني على ما فرط مني » والتفت الى بلال وهو يبتسم ابتهاماً بسلامة نيته

أما بلال فكان في أثناء ذلك ينظر الى ريحان ولا يزداد الا اعتقاداً بانه هو الرجل الذي خاطبه في الفسطاط وناداته سيدته خولة في أثناء خطابه وقص عليها خبره كما مر . فلما آنس منه ذلك اللين ظل يتفرس فيه وهو

صامت . فلما أتم ريحان كلامه قال له بلال «ربما كنت مخطئاً في ظني ولكني أسألك سؤالا أرجو أن تجيبني عليه »

قال « قل ما بدا لك »

قال « ألا تذكر انك رأيت هذا الوجه » (واشار الى وجهه هو فتفرس فيه ريحان وهو يظنه يقول ذلك بسذاجة ثم قال « لا يا أخي لا اذكر اني رأيتك قبل الآن »

فقال « ياللعجب ولكنني اثق بأني لقيتك وخاطبتك فرأيت هذا الوجه وسمعت هذا الصوت . فالظاهر انك سرت الى الفسطاط قبل هذا العام »

قال « نعم انى سرت اليها منذ بضعة أعوام »

فضحك بلال وقال « ولكنك قلت الآن انك لا تعرفها »

فارتبك ريحان في نفسه وعمد الى المغالطة فقال «دعنا من هذه الاوهام ولا تشغل بالنا بما لا طائل تحته »

وكان سعيد في أثناء ذلك يسمع كلامهما والاخلاص لا يزال غالباً عليه أما بلال فخاف أن يترتب على سكوته ذهاب سعيد مع ريحان . فقال لريحان « اذا كان الحال على ماتقول فعليك ان تساعدنا في انقاذ المهمة التى نحن قادمون بها . دعنا نذهب الى منزل الامام الآن »

قال « اننا أكثر رغبة منك في هذا السبيل ولكن الليل طويل فاذا ذهب معي مولاي الى سيدتي قطام فتراه ثم يذهب حيث شاء كان ذلك أوفق »

قال « فليذهب هو معك وأنا أمضي الى منزل الامام بالنيابة عنه »

فضاق ريحان ذرعاً وظهرت البغتة على وجهه ولم ير له مخرجاً من ذلك غير التظاهر بالغضب فقال « وماذا هذه الظنون ألعلك تسيء الظن بنا ونحن أولى منك بهذا الامر »

فتحقق بلال حينئذ ان ظنه في محله فقال « نعم اني أظن السوء بك وبسيدتك بعد هذا »

فخاف ريحان أن يفضي الامر الى انكشاف أمره فتظاهر بالغضب وقال « اني لاعجب من هذا الاحمق ويظهران مولاي صابر على وقاحته فاناذاهب منذ الآن وافعلا ماتشا آن »

قال ذلك وتحول يعدو نحو الكوفة وظل سعيد وبلال صامتين كأن على رأسيهما الطير

الفصل التاسع والخمسون

انقشاع الغشاوة

مضى ريحان وهما ينظران اليه لا يفوه أحدهما بكلمة . فلما توارى قال سعيد « ما الذي اراه يابلال أني احسب نفسي في حلم ؟ ما الذى تقوله عن هذا العبد هل أنت متحقق انك رأيته في الفسطاط ؟ »

قال « نعم يامولاي اني شديد الوثوق بذلك وقد زادني وثوقاً تناقض أقواله وتستره بعد ما اقترحته عليك »

قال « فلو كان قدم الفسطاط ما الذي يدعوه الى التستر »

قال « يدعوه الى التستر ما ارتكبه من الخيانة هناك . آه من هذا التذلل ياليتني قبضت عليه وأهرقت دمه قبل فراره من بين يدي . انه وشى بكما لعمرو بن العاص »

فبغت سعيد وبدأت الغشاوة تنحسر عن بصيرته وتذكر ما قصته خولة عليه من حديث عبدها مع عبد آخر وشى بهما الى ابن العاص . وانه استغرب يومئذ أن يتصل خبرهما الى الفسطاط وها انما قدما اليها سراً لا يعلم بهما احد غير قطام ولبابة وهذا العبد . فانجلت لديه الواقعة وخطر له ان ريحان لايسير الى الفسطاط إلا بايعاز سيدته وتذكر ماكان يؤانسه في ابن عمه عبد الله من الشك في قول قطام فندم على استسلامه لها وعض على سبابته وظل واقفاً لا يبدى حراكا وبلال واقف بين يديه صامتاً . ثم قال سعيد « آه يا بلال بورك بخولة وبورك بابن رضعته انها والله كانت ملاكا

سماوياً بعثه الله لكشف تلك الخديعة . ولكن ياويلاه قد نفذت حيلة قطام على عبد الله فمات غريقاً . . . . ولكنها لن تنفذ على الامام علي فاحمد الله على انكشاف امرها قبل انقضاء اجل المؤامرة»

ثم صمت وتذكر حبه قطام وما بذله لها من الاخلاص وما أجرته عليه من الحيل فعظم الامر لديه وأمست عواطفه تتراوح بين ما انغرس في قلبه من الحب وما انكشف له من الخديعه فلم يتمالك عن البكاء . ولكنه خجل ان يذرف الدمع بين يدي بلال فأشار اليه أن يهيء الجمال وحول وجهه الى الخلاء ومشى وقد اطلق لنفسه عنان البكاء وهاج به الاسف لما أصاب ابن عمه عبد الله من البلاء بسببه فجعل يندبه ويندب سوء حظه ويقول

« تباً لك ياقطام . أصحيح انك انفذت عبدك للوشاية بنا الى ابن العاص ليقتلنا . . . أين عهودك وأين وعودك . أين ما سمعته منك من الرجوع عن قتل الامام علي . . . وا أسفاه عليك يا أخي وحبيبي عبد الله انك ذهبت ضحية جهالتي ودهاء هذه المرأة . . . . آه ياقطام . . . . . هل يوجد في الدنيا اناس قساة القلوب الى هذا الحد (قتل الانسان ما أكفره) أتسمحين بقتل محب استهلك في سبيل هواك وتقتلين بريئاً حملته غيرته على السعي في انقاذ أمير المؤمنين . . . . وتسمحين مع ذلك بقتل أمير المؤمنين وأنت تنظرين . . .

« آه لايسمح لى الوقت ان اسير اليك فانتقم منك قبل الذهاب الى الامام . . . »

ثم وقف بغتة وانتبه لنفسه كأنه أفاق من رقاد ونظر الى ماحوله فاذا هو في ليلة مقمرة صفا هواؤها ورق نسيمها فجعل يراجع ما مر به من الاحوال والاهوال وتذكر حبه قطام فغلب عليه حسن الظن بها فقال في نفسه « ولعل قطام بريئة وربما كان ريحان صادقاً وبلال مخطئاً » فلما تصور ذلك انبسطت نفسه . والمحب الغيور كثير الظنون الا في مايؤول

الى الاضرار في حبيبه . على انه ما لبث ان تدبر القرائن والحوادث حتى رجح التهمة

وفيما هو يناجي نفسه التفت فرأى بلالا قد اعد الجملين وهم بالقدوم اليه فمسح دموعه وتحول نحوه وهو يقول في نفسه « لقد نفذت حيلتك في اخي عبدالله ولكنها لن تنفذ في الامام علي . ها أنني سائر الساعة الى بيته وسأستعين به على قتلك وقتل تلك العجوز المحتالة وذلك العبد الشرير . . »

قال ذلك وركب جمله وركب بلال اثره وسارا يلتمسان منزل الامام علي

الفصل الستون

منزل الامام علي

وكان منزل الامام علي بجانب المسجد بينهما باب السدة يدخل منه الامام للصلاة . وكان للمنزل دار واسعة فيها المقاعد والمجالس لمن يفد عليه من العمال واهل الامصار . وبجوار المنزل ساحة واسعة فيها مرابط للخيل ومواقف للجماعات لاتبرح غاصة بجماهير الناس من دعاة الامام وكلهم مستهلكون في نصرته معترفون بامامته لا يرون احداً أولى بها منه . وكان اهل العراق وغيرهم قد اجمعوا في تلك السنة على نصرته فبايعه منهم اربعون ألفاً على الموت [1] . ولعله كان ينتظر الفراغ من صيام رمضان ليحمل على معاوية بذلك الجند العظيم لايغتر بمثل ما مر به من الحيل في صفين وغيرها بعد ان رأى ما آل اليه ذلك من تأييد سلطان معاوية

وكنت اذا دخلت مجلس الامام في تلك الاثناء رأيت رؤساء القبائل يترددون عليه ولا حديث لهم الا ما كان من اجتماع كلمتهم وما يتوقعونه

(١) ابن الاثير ج ٣

من النصر وما يرجونه من احقاق الحق وكبح جماح الطامحين للخلافة من غير اهل البيت

ذلك كان شأن الكوفة في ذلك الشهر المبارك . أما علي فلم يكن يشغله عن فروض الصوم والصلاة شاغل فاذا دنت الساعة وأذن المؤذنون تكاثف الناس في صحن المسجد لسماع كلامه بما فطر عليه من البلاغة وشدة الغيرة على الاسلام والمسلمين . فاذا وقف على المنبر رأيت الناس سكوتاً كأن على رءوسهم الطير اعجاباً بما يسمعونه من درر ألفاظه وبديع حكمه وبليغ آياته وهم يعجبون لما قام في أنفس المعارضين ممن تخلفوا عن بيعته وخصوصاً الخوارج الذين اختلقوا لمعاداته اسباباً ما انزل الله بها من سلطان

فاذا فرغ من صلاة الغروب تحول الى داره ومعه جماعة من الامراء يتقدمهم اولاده وسائر أهله فيجلسون الى الاسمطة للافطار والقراء يتلون القرآن في جوانب الدار والكل يسبحون ويهللون حتى يخيل لك انهم في موقف يتوقعون فيه الحساب وما فيهم من يخاف عقاباً لما يعتقدونه من صدق دعوتهم وقيامهم بالحق المبين

وكان الامام اذا فرغ الناس من الافطار وجلسوا للاحاديث رأيته اقلهم كلاماً واقصرهم عن التهديد . وربما مكث ساعة او بضع ساعات لا ينبس ببنت شفة كأنه يفكر في امر ذي بال وربما كان تفكيره في ما يخشاه من سفك الدماء اذا حمل برجاله على الشام ونفوس الناس وديعة عنده يضن بها أن تذهب ضياعاً ولا يضن بها اصحابها في سبيل نصرته

الفصل الحادي والستون

ضمير ابن ملجم

كان ذلك شأنه خصوصاً في اواسط رمضان وعلى الاخص في ليلة السابع عشر منه وهي الليلة التي بات فيها ابن ملجم يترقب انبلاج الصبح

ليفتك بابن أبي طالب . وفي تلك الليلة فاسرع سعيد وعبده الى منزل الامام لينبئاه بعزم ذلك الرجل

وما ظنك بابن ملجم في تلك الليلة . . هل تظنه بات ساكن الجأش مطمئن الخاطر . . . هل عرف الكرى جفناه . . . كلا . لا نخاله قضى ليلته الا قلقاً مضطرباً لهول ما عول عليه من الامر العظيم . وما اعظم من ان يسفك دماً بريئاً دم رجل جمع الى كرامة الخلافة شرف النسب واحرز من العلم ما لم يحرزه احد من المسلمين في ذلك العهد ؟ أليس هو ابن عم الرسول وخليفته وصهره ؟ أليس هو ذلك العالم التقي العادل المخلص الغيور على الاسلام والمسلمين ؟ لا نظن ابن ملجم والحالة هذه قضى ليلته الا على شوك القتاد لم يغمض له جفن وقد طال ليله . وربما حدثته نفسه بالرجوع عن عزمه فغلب عليه عهده لرفقائه وتعهده لخطيبته قطام بنت شحنة وخصوصاً بعد ان أشركت معه في ذلك الفعل ابن عم لها يقال له وردان حرضته على الاخذ بناصره . ولقي هو رجلا من أشجع يقال له شبيب استحثه على ركوب ذلك المركب الخشن معه . فتواعد الثلاثة على العمل معاً في فجر الغد . فهل تظنه بعد تلك العهود والمواثيق يصغي لنداء ضميره اذا كان له ضمير . ولو أصغى لما ارتكب ذلك المنكر

على انك لو سبرت غور قلبه في تلك الليلة وهو يتقلب على فراشه وسيفه المسموم الى جنبه لرأيته يناجي نفسه ويدفع تبكيت ضميره بحجة انه عمد الى ذلك دفعاً لفتنة كان سببها تنازع علي ومعاوية وعمر على السلطة والفتنة شر من القتل

وكان نفس الامام علي حدثته نحو ذلك الزمن بخطر يتوقعه علي حياته . فكان مذ دخل رمضان يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند جعفر لا يزيد على ثلاث لقم ثم يقول « أحب ان يأتيني أمر الله وأنا خميص » [1] وأما في تلك الليلة فانهم تعشوا جميعاً في منزل الامام

(١) ابن الاثير ج ٣

وهو جالس على المائدة لا يأكل الا قليلا وأولاده بين يديه ينظرون اليه ويعجبون لحاله

وكان حاجبه قنبر رجلا كهلا من أهل الحبشة اذا نام علي بات عند بابه وكان في تلك الليلة أشد الجميع قلقاً لم يتناول الافطار ولا هدأ له بال . أكل الناس وهو جالس القرفصاء عند الباب وعيناه شاخصتان الى الفضاء يتوقع قدوم قادم وهو لا يكلم احداً ولا انتبه احد لحاله ولو سأله بعضهم عن سبب قلقه لباح له بما اطلع عليه من الاسرار التي ظن نفسه اكتشفها وهم يبحثون عنها عبثاً

وبعد صلاة العشاء ارفض المجلس فذهب كل الى منزله وناموا جميعاً الا قنبر فانه لبث ساهراً وقد أخذ الاضطراب والقلق منه مأخذاً عظيماً . وما جلس للحراسة وهو يعلم ان الامام لا يلتمس حرساً يحرسه[1] ولكنه جلس يفكر في امر أذهب رقاده وألقاه في حيرة

الفصل الثاني والستون

فخ جديد

أما سعيد وبلال فانهما دخلا الكوفة وأسرعا يلتمسان دار الامام علي وكان القمر بدراً (أو حوالي البدر) وقد تكبد السماء فأرسل أشعته على أبنية الكوفة وقد انقشعت الغيوم عن السماء على غير المعتاد في ذلك الفصل . فلما دخلا الكوفة رأياها ساكنة هادئة لانقضاء ميقات السهر . وقد نام الناس وهم يتوقعون اذان السحر لينهضوا للسحور

سار سعيد وهو يستحث جمله وقلبه يرقص طرباً لما يتوقعه من نجاح مهمته وقد شكر الله لاطلاعه على حيلة قطام قبل فوات الوقت . فلما دنا من المسجد ترجل وقال لبلال خذ الجمل وسر به الى ساحة الكوفة وامكث حتى آتيك

(١) الخميس ج ٢

فلم يسع بلال غير الطاعة فتحول نحو الساحة . ومشى سعيد على قدميه وركبتاه تصطكان من شدة الاضطراب . وما صدق انه أقبل على دار الامام ولكنه رأى السكون سائداً عليها . فوقف هنيهة يفكر في السبيل الذي يدخل به الدار وأهلها نيام فلبث برهة يتردد وهو يخاف ان يستغشه أحد لقدومه في ذلك الوقت وهو لم يدخل تلك الدار من قبل ولا لقي الامام علياً لقاء أهل الولاء . ولكنه لم يرَ بداً من الاقدام فمشى بخطوات المتردد حتى دنا من باب الدار فرأى شبحاً جالساً لم يعرفه ولكنه سر به لعلمه انه لا يخلو ان يكون من بعض رجال علي فيساعده في مهمته . على انه لم يكد يقبل عليه حتى وقف ذلك الشبح بغتة وتقدم نحوه وهو يقول « من القادم »

فقال سعيد وهو يتلجلج بكلامه « اني رسول الى الامام علي . ومن أنت ؟ »

قال « اني قنبر حاجب الامام . ومن أنت ؟ »

قال « اني سعيد الاموي أريد مقابلة الامام علي »

فصاح قنبر قائلا « أ أنت سعيد تعال معي . . »

فسرَّ سعيد لسرعة الاجابة ومشى في اثر قنبر حتى دخلا باب الدار وتحولا الى حجرة فيها مصباح فدخل قنبر اولا وايقظ اثنين كانا نائمين هناك وسعيد يتبعه بسذاجة ولم يكد يدخل الحجرة حتى رأى الرجلين قد أطبقا عليه وقيدا يديه ورجليه وهو واقف لا يبدي حراكا من شدة البغتة فلما رآهما يغلانه وقنبر واقف وقد تغيرت سحنته قال له « ما الذي تفعله ما هذه الوقاحة اين الامام علي »

قال « لقد كذب فألك ايها الوغد اللئيم انك لن ترى علياً حتى ترى الموت قبله »

فبغت سعيد وهو لا يعلم سبباً لذلك العمل فقال « ما بالكم تستغشونني وقد جئتكم في مهمة أنقذ بها الامام علي من القتل »

قال « اخساً ولا تطل الكلام انك أموي وتطلب ان ترى الامام لتقتله . اتظن قتله أمراً هنياً »

فقال « وكيف اريد قتله وأنا انما جئت لانقاذه من القتل »

فأمسكه قنبر بيده ويداه ترتعدان من شدة التأثر وقال له « أتظن حيلتك تنطلي علينا ؟ أما كفى بني أمية ما فعلوه حتى جئتم تقتلون الامام في منزله »

فبهت سعيد وقد جمد الدم في عروقه وقال « ما بالكم تسيئون بي الظن وأنتم لم تروا مني خيراً ولا شراً ألا تسمعون قولي ثم ترون رأيكم »

فقال قنبر « وما الذي نسمعه من قولك وأنت أموي وقد تعهدت بقتل الامام على مهراً لفتاة خطبتها من اهلها على هذا الشرط »

فذهل سعيد وأراد ان يدافع عن نفسه فرأى قنبر يستخرج من جيبه رقاً فلما استخرجه دفعه الى سعيد وجذبه بيده الى المصباح وهو يقول له اقرأ أليس هذا خطك ؟ »

فلما وقع نظر سعيد على الرق علم انه الصك الذي كتبه لقطام يوم خطبها فأيقن ان قطام هي التي ارسلت هذا الرق الى دار الامام لتوقع به . ورآها لفرط حيلتها وقد محت اسمها عنه ووضعت اسم فتاة اخرى فصمت ولم يجب . فاتخذ قنبر سكوته حجة عليه فصاح فيه « أجب قل . . . أليس هذا خطك ؟ »

فارتبك سعيد في امره ولكنه ما زال يرجو التخلص بما يحمله من النبأ الاكيد عن مكيدة ابن ملجم فقال له « هب انه خطي ولكنني جئتكم بخبر المكيدة التي كادها بعض الناس على الامام ألا تمهلوني ريثما أخبركم »

فلم يصبر قنبر على سماع كلامه وصاح فيه قائلا « وأي مكيدة أعظم من ان تتعهد بقتل الامام . . . امكث هنا الليلة وغداً لناظره قريب »

قال ذلك وخرج وأغلق الباب عليه

الفصل الثالث والستون

بلال

فلما خلا سعيد في تلك الحجرة ظن نفسه في منام وجعل يفكر في أمره وفي دهاء قطام وكيف اوصلت هذه الورقة الى هذا الرجل لاتمام حيلتها ولكنه لم يكترث لما عامله به قنبر وعول على مقابلة الامام في الصباح باكراً واطلاعه على سر الامر

وأما ايصال ذلك الصك الى قنبر فانما سعت فيه لبابة المحتاله باشارة قطام بعد ان تداولتا في اتمام الحيلة مخافة أن يطلع سعيد على مكيدتها قبل وصوله اليها أو أن يذهب الى منزل الامام قبل المرور بها . فاستخرجت ذلك الصك وغيرت فيه الفاظاً رفعت بها الشبهة عنها وكلفت لبابة فاتت منزل قنبر في صباح ذلك اليوم بدعوى انها دلالة تبيع الاقمشة والقت الى قنبر حديثاً لفقته بحيث تثبت الشبهة على سعيد فلا يصغي أحد الى كلامه . وكان انصار علي قد سمعوا طنيناً عن عزم بعض الناس على قتل الامام . فلما رأى قنبر الصك وعلم ان صاحبه أموي ربي في بيت عثمان وقام بنصرته لم يبق عنده شك بتهمته وخصوصاً بعد أن رآه قادماً قدوم اللص بعد منتصف الليل . فلما قبض عليه حبسه في تلك الحجرة الى صباح الغد ليرى رأى الامام به بعد ان يعود من صلاة السحر . وما علم ما خبأته الاقدار للامام قبل اتمام تلك الصلاة

أما بلال فانه مكث بالجماين في ساحة الكوفه ينتظر قدوم سعيد . فلما ابطأ عليه شغل باله ولكنه لم يظن سوءاً لما يعلمه من سلامة نية سعيد . وفيما هو جالس يفكر في ذلك سمع آذان السحر فعلم ان علياً يخرج تلك الساعة للصلاة فهرول نحو المسجد وهو على مقربة منه فدخله فرأى فيه قبة مضروبة علم انها قبة بعض النساء ممن يجلسن لسماع الصلاة . فوقف وعيناه شاخصتان لعله يرى سعيداً . فاذا برجال دخلوا وفيهم رجل ملثم وقد

التف بعباءة يخفي تحتها سيفاً فتفرس فيه عن بعد فرأى على جبهته أثر السجود فعلم انه ابن ملجم [١] فارتعدت فرائصه وحدثته نفسه أن يصيح به ولكنه خاف على نفسه وهو لا يشك مع ذلك ان علياً اطلع على مكيدته ولا يلبث أن يدخل المسجد حتى يأمر بالقبض عليه ثم رأى ابن ملجم مشى ومعه رجل آخر هو شبيب نحو تلك القبة فكلما من فيها وكان فيها قطام بنت شحنة [٢] ثم مشى ابن ملجم حتى اقترب من السدة و بلال يراعيه بنظره ويتوقع سماع الامر بالقبض عليه حالما يدخل علي

وبعد هنيهة فتح باب السدة ودخل منها علي يمشي الهوينا وعمامته على رأسه تغطي صلعته وكان ذا بطن ولحية كثيرة الشعر ضخم العضل [٣] وفي يده درة (سوط) كان يوقظ بها الناس للصلاة كل صباح فمشى الامام وابن النباح المؤذن بين يديه والحسن بن علي خلفه . فلما دخل انصت الناس و بلال ينظر اليه ولا يشك في انه سينادي من يقبض على بن ملجم . فاذا به قد وقف ونادى « أيها الناس الصلاة الصلاة »

الفصل الرابع والستون

مقتل الامام

والتفت بلال الى ابن ملجم فاذا هو لايزال واقفاً لكن رفيقه (شبيب) تقدم مسرعاً وسيفه بيده ضرب به الامام علياً فأصاب عضادة الباب وسقط السيف من يده فاجفل بلال وهم أن يسرع الى علي يخبره بأمر ابن ملجم فاذا بابن ملجم قد أقبل على علي بأسرع من لمح البصر والسيف يبرق في يده وضربه على جبهته وهو يقول « الحكم لله يا علي وليس لك ولاصحابك »

فصاح علي « فزت ورب الكعبة » ثم قال « لا يفوتنكم الرجل »

فتكاثف الناس على ابن ملجم فدفعهم بسيفه ففرجوا عنه فهجم عليه المغيرة ابن شعبة وتلقاه بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الأرض وقعد على

(١) الخميس ج ٢ (٢) تاريخ الخميس ج ٢ (٣) ابن الاثير ج ٣

صدره وانتزع السيف منه . وأما شبيب فافلت في الغلس وخرج من كندة

وانفرط عقد الناس ونظر بلال الى القبة المضروبة فرأى امرأة خرجت من تحتها واذا هي قطام اسرعت وفرت في غمار الناس . فذهل لما رآه ولكنه رجا أن لا تكون الضربة قاضية ثم تذكر ان سيف بن ملجم مسموم فيئس من حياة الامام . وجعل يتفرس في الناس لعله يرى سعيداً فلم يقف له على أثر فتقدم في جملة من تقدم الى السدة حيث كان علي مطروحاً فاذا هو يقول « احضروا الرجل عندي » فأحضروه

فقال له علي « أي عدو الله ألم أحسن اليك »

قال « بلى »

فقال « فما حملك على هذا »

قال « شحذت سيفي هذا أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه »

فقال علي « لا أراك الا مقتولا به ولا أراك الا شر خلق الله » ثم التفت الى من حوله وقال « النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلني وان بقيت رأيت فيه رأيي . يا بني عبد المطلب لا ألفيتكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتل الا قاتلي . انظر يا حسن ان أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور »

قال ذلك وابن ملجم مكتوف وكانت أم كلثوم ابنة علي واقفة بجانب أبيها فقالت لابن ملجم « أي عدو الله لا بأس على أبي والله مخزيك »

قال « على من تبكين والله ان سيفي اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم أحد »

ثم تقدم جندب بن عبد الله الى علي وقال « ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن »

قال علي « ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر »

الفصل الخامس والستون

لات ساعة مندم

ولما علم الناس ان سيف ابن ملجم مسموم تحققوا دنو الاجل وخافوا الفتنة في من يخلف الامام . فسأله جندب بن عبد الله ما سأله عمن يخلفه فأجابه علي بأنه لا يأمرهم ولا ينهاهم كما تقدم

ثم نقلوه الى داره ماشياً وهو يتوكأ على ولديه الحسن والحسين والدم يغشى جبينه وكان السم لم يفعل فعله بعد

أما ابن ملجم فكان لثامه قد وقع عن وجهه وبانت سحنته وكان اسمر أبلج في جبهته أثر السجود[1] فساقوه الى السجن ولو لم يوص أمير المؤمنين بأن لا يقتلوه الا اذا مات هو أثر الضربة لقطعوه إرباً إرباً . ولكنهم اضطروا امتثالا لامر الامام ان يسوقوه الى السجن ريثما تظهر لهم عاقبة ذلك الجرح

أما بلال فانه سار في أثر الجمع الى منزل الامام علي وقد تولته الدهشة لهول ما رآه في تلك الساعة ومما زاد أسفه وضاعف حزنه ما أصابه من الفشل بحبوط مسعاه ومسعى سيدته لانه انما كان يود نجاة الامام من تلك المؤامرة اكراماً لمولاته خولة وخصوصاً بعد ان صحب سعيداً وسمع منه في أثناء الطريق ما حدثه به جده ابو رحاب من فضائل امام علي التي يندر اجتماعها في رجل . وقد وردت في كلام أبي رحاب

على انه كان مع ذلك في شاغل عما كان فيه الناس بالفوغاء والانهماك بامر الامام وجرحه والتفكر بسعيد وحاله وقد عجب لفشل مهمته مع علمه انه انما اسرع بعد طول شقة السفر والسعي في منتصف الليل لينبيء القوم بذلك الخطر . فمشى بلال وهو يتفرس في الناس واحداً واحداً لعله يرى سعيداً بينهم فلم يقف له على أثر : على أنه ما لبث ان رأى الجمع دخلوا المنزل

(١) تاريخ الخميس ج ٢

وادخلوا الامام محمولا الى غرفته وتفرق الباقون في صحن الدار جماعات تتحدث كل جماعة منهم بحديث ذلك الصباح . ومدار ابحاثهم ما أصاب الاسلام في تلك الساعة مما لم يكن في الحسبان وما فيهم الا من يقول « ليتني أشفي غليلي بضربة في عنق ذلك الباغي »

وفيما هو ينظر في وجوه الناس لعله يرى سعيداً اذا بقنبر حاجب الامام علي قد خرج من الغرفة والدمع ملء عينيه وهو يقول . « اقتلوني أيها المسلمون اقتلوني اني جنيت على أمير المؤمنين »

فنهض الناس والتفتوا اليه وهم لا يفهمون مراده فاذا به قد اخترق الجمع ومشى الى الحجرة التي كان سعيد مسجوناً فيها وفتحها وأخرج سعيداً منها وهو لا يزال مغلولا

الفصل السادس والستون

الوصية

وكان سعيد لا يزال في تلك الحجرة وقد اقفلوها عليه ولم يدر ما أصاب الامام علياً . فلما أخرجه قنبر على تلك الصورة ورأى الجمع متكاثفاً هناك ظنه يريد به سوءاً . فقال أروني الامام علياً فأطلعه على دسيسة دبرها له أهل البغي ولا تظنوا فيّ سوءاً

فعلا صوت قنبر بالبكاء وقال . « لقد نفذ السهم يا سعيد انهم فتكوا بامير المؤمنين »

فصاح سعيد « ومن فتك به »

قال « ابن ملجم ضربه ضربة قاتلة قتله الله »

فصاح سعيد « ويلاه واحسرتاه كيف يقتله وقد قطعت البراري والقفار سعياً في تلافي ذلك المصاب .. ألم أقل لك ذلك يا قنبر ؟ »

قال « انك لم تفصح المقال وقد نفذ السهم وجرح الامام جرحاً

لا أظنه ينجو منه ولو اصيفت لمقالك لنجا امير المؤمنين ولكن وقع القضاء ولا مرد لقضاء الله »

ولم يتم قنبر كلامه حتى بكى سعيد وبكى الناس وعلا الصياح وهم مبهوتون ينظرون الى قنبر يتوقعون منه تفصيلا

أما هو فاشتغل بحل قيود سعيد بيده وهو يقول « قاتل الله تلك العجوز المحتالة انها أغرتني بك وقد نجحت حيلتها

فهم سعيد ان يقص عليهم حديثه على اثر مارآه من رغبتهم في ذلك واذا ببعض الناس يقول « ان الامام قد شعر بالراحة وهو يخاطب ابنيه الحسن والحسين »

فتحول الجمع الى غرفته كالسيل واغتنم بلال تلك الفرصة فدنا من سعيد كأنه يستفهمه عن سبب ذلك الفشل . فقص عليه الخبر باختصار ووعده باتمام الحديث في فرصة اخرى . وسار مع الجمع الى غرفة الامام فلم يستطع الدخول اليها لتزاحم الاقدام . فاطل من نافذة فرأى علياً متوسداً فراشه وهو معصوب الرأس بمنديل يغطي الجرح وكانوا قد غسلوا الدم عن جبهه ولكن آثاره مازالت ظاهرة على بعض لحيته

فتذكر سعيد جده ابا رحاب وما اوصاه به فلم يتمالك عن البكاء على انه ما لبث ان سمع علياً يتكلم فوجه اليه انتباهه فرآه يخاطب ولديه الحسن والحسين وهما جاثيان عند رأسه وأمارات الكآبة والحزن ظاهرة عليهما وهما يتجلدان تجلد الرجال وقد اصاخا بسمعهما وحولا اعينهما الى وجه والدهما الجريح والناس سكوت وكلهم آذان يسمعون مايتلوه الامام من الآيات البينات وهي آخر خطبة ألقاها . فاذا هو يقول :

« أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تبكيا على شيء زوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضائع واصنعا للاخرى وكونا للظالم خصيماً وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم »

ثم نظر الى محمد بن الحنيفة فقال « هل حفظت ماأوصيت به اخويك »

قال « نعم »

قال « فاني اوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك وتزين امرهما ولا تقطع أمراً دونهما » ثم قال « أوصيكما به فانه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما ان أباكما يحبه » وقال للحسن « أوصيك اي بني بتقوى الله واقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء فانه لاصلاة الا بطهور وأوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الحرم والحلم عن الجاهل والتفقه في الدين والتثبت في الامر والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الفواحش [١]

الفصل السادس والستون

موت الامام ومقتل ابن ملجم

وما اتم وصيته حتى تعب من الكلام وما عهدناه يتعب من أمثاله في الوعظ والخطب ساعات متوالية . ثم أمر بتلك الوصية فكتبت ودفعت الى الحسن ولم ينطق الامام بعد ذلك الا بقوله «لا اله الا الله» حتى مات [٢] فعلا الضجيج وزاد العويل والبكاء . ثم غسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وكفن بثلاثة أثواب ودفن

وأما سعيد فلما تحقق وقوع المصاب بموت علي تذكر قطام وخبثها وقال

---

(١) ابن الاثير ج ٣

(٢) هذا ماروواه ابن الاثير من أمر مقتله . وذكر صاحب تاريخ الخميس انه توفي في صبيحة يوم ١٧ رمضان مثل صبيحة بدر . وقيل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة من سنة أربعين (عن أبي عمر وابن عبد البر) وفي الصفوة قال العلماء بالسير ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان وقيل ليلة احدى وعشرين منه سنة اربعين فبقي الجمعة والسبت ومات ليلة الاحد وقيل يوم الاحد وغسله ابناه وعبد الله بن جعفر وصلى عليه الحسن ودفن في السحر . وقالوا غير ذلك مما ليس هنا مكان تحقيقه وذكروا أنه دفن في مسجد الكوفة وقيل حمل الى المدينة ودفن عند فاطمة وقيل غير ذلك (عن تاريخ الخميس)

في نفسه والله لم يقتله الا هي ولولاها لم يقتل أمير المؤمنين

وفيما هو يفكر في ذلك ويبكي جاء قنبر فقبض على يده وجره فسار في أثره وهو لا يدري ما يريد منه . وسار بلال في أثرهما حتى دخلوا سجن ابن ملجم وكان مغلولا هناك . فلما دخلوا عليه همَّ سعيد بالكلام فقال قنبر تمهل لنرى ما يقول هذا القاتل . فلما رآهم ابن ملجم قادمين عليه ظل جالساً ولم يعبأ بهم ولكنه خاطب قنبر قائلا « أظنك جئت تدعوني الى القتل لان صاحبكم مات »

قال « الى ذلك جئت ولكنني أسألك عن هذا الرجل هل تعرفه » (وأشار الى سعيد) فقال « كلا »

وكان قنبر قد أراد أن يتحقق براءة سعيد وقد شك في اشتراكه مع ابن ملجم في تلك المؤامرة . فقال له « ألم يكن لهذا الاموي شركة معك في القتل »

فتبسم ابن ملجم وقال « انه أضعف من أن يقدم على ذلك . اني لا أعرفه »

فقال بلال « ولكنك ألا تعرف قطام بنت شحنة ؟ »

قال « أعرفها وهي خطيبتي ودم ابن ابي طالب مهر لها »

فلم يتمالك قنبر عن ان صاح فيه « اخسأ يا لئيم انك ستلقى حتفك قريباً قم الى الموت »

فوقف لساعته ومشى وهو لا يكترث لما يتهدده من الاجل العاجل

أما سعيد فلما سمع قوله ان قطام خطيبته خفق قلبه غيظاً من تلك المرأة وقال في نفسه اني والله سآخذ بالثأر منها بيدي

وكان الحسن هو الذي أمر باحضار ابن ملجم ليقتله عملا بوصية ابيه فلما حضر بين يديه نظر الى ما حوله فرأى الناس ينظرون اليه بأعين تلتهب حنقاً وكل يود ان يقتله بيده فلم يعبأ ابن ملجم بما يراه . ولم يصبر حتى يخاطبه أحد منهم فنظر الى الحسن وقال « هل لك في خصلة اني والله قد أعطيت الله عهداً ألا أعاهد عهداً الا وفيت به واني عاهدت الله عند

الحطيم أن اقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما فان شئت خليت بيني وبينه . فلك بعهد الله علي ان لم أقتله ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدي في يدك »

فقال له الحسن « لا والله حتى تعاين النار [1] »

وكان الناس قد جاءوا بالنفط والبواري والنار وقالوا « نحرقه »

فقال عبد الله بن جعفر وحسين بن علي ومحمد بن الحنفية دعونا نشف أنفسنا منه . فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم ثم كحل عينيه بمسمار محمى فلم يجزع وجعل يقول « انك لتكحل عيني عمك بمكحول محمص » . وجعل يقرأ « اقرأ باسم ربك الذي خلق » حتى أتى على آخر السورة وان عينيه لتسيلان على خديه ثم أمر به فعولج على لسانه ليقطعه فجزع فقيل له قطعنا يديك ورجليك وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تجزع فلما صرنا الى لسانك جزعت قال « ما ذاك من جزع الا اني اكره ان اكون في الدنيا فواقاً لا أذكر الله » فقطعوا لسانه ثم جعلوه في قوصرة فأحرقوه بالنار [2]

الفصل الثامن والستون

سر جديد

ولما اشتم سعيد رائحة القتر المتصاعد من بقايا ابن ملجم اشتفى غليله ولكنه ما زال قوله « ان قطام خطيبتي وان قتل على مهر لها » يرن في أذنيه وازداد تعجباً من دهاء تلك المرأة واستغرب ان يكون في النساء واحدة في مثل ذلك الدهاء وتذكر ما مرّ له معها من الوعود وما ارتكبته في سبيل الانتقام لوالدها وأخيها من الجرائم وكم قتل بسببها من الرجال وعبد الله ابن عمه في جملتهم . فلما تصور ذلك كاد يتقد غيظاً وظل برهة وهو غارق في مثل هذه الهواجس لا يفتنه لما دار حوله من الاحاديث ولا فقه لاشتغال

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) تاريخ الخميس ج ٢

الناس في مبايعة الحسن . ولم ينتبه حتى ناداه بلال فلباه فقال « ألا تخرج بنا يا مولاي من هذا المكان ان لي كلاماً أقوله لك »

قال « هيا بنا » وتحولا ولم ينتبه لهما أحد لاشتغال الناس بالمبايعة

وعادا تواً الى ساحة الكوفة حيث تركا الجملين وسارا من هناك الى منزل سعيد وكانا في أثناء الطريق يلتقيان باهل الكوفة مسرعين زرافات ووحداناً الى منزل الامام علي على أثر ما سمعوه من مقتله وهما لا يكلمان احداً

وكان سعيد لم يدخل منزله منذ ذهب الى الفسطاط فلم يجد فيه أحداً لان الخدم ساروا في جملة من سار الى منزل الامام . وكان التعب قد أخذ منه مأخذاً عظيماً لطول ما قاساه من السهر والقلق بعد سفره الطويل . فدخل الدار من باب خصوصي كان مفتاحه معه وترك بلالا يهتم بالجملين . وبدل ثيابه وهو غارق في بحار الهواجس يفكر في ما رآه من الاهوال وما يتوقعه بعد موت الامام على من اختلاف الاحوال

ولما فرغ من تبديل ثيابه توسد وسادة يلتمس الاستراحة وهو يفكر في ما يتوقع سماعه من بلال ولكن التعب تغلب عليه وغلب عليه النعاس فنام . ودخل بلال عليه فرآه نائماً فتوسد مقعداً في غرفة أخرى وجعل يستعد لمكاشفة سعيد بما يجول في خاطره من الشؤون حتى نام

الفصل التاسع والستون

خولة وابن ملجم

وظلا نائمين الى الغروب فأفاق سعيد من صوت الخدم وهم يفتحون الباب بعد عودتهم الى البيت وقد بغتوا لما رأوا سيدهم هناك على غير انتظار

أما هو فعذرهم لغيابهم ودعا بلالا فوقف بين يديه فدعاه للجلوس فاستأذن في اغلاق الباب والاختلاء فأمر بعض الخدم فاضاء له مصباحاً وضعه على مسرجة وخرج فاغلق بلال باب الغرفة وجلس الى سعيد والاهتمام باد على وجهه

فقال سعيد « تكلم يا بلال ما بدا لك »

قال « أيأذن لي سيدي أن أسأله أولا ما الذي دعا الى فشل مهمته »

فتنهد سعيد وقال « ان السبب قديم يا بلال لم أكن لا قصه عليك لو لم أؤانس منك ما آنسته من الغيرة المروءة »

قال بلال « ولم يكن من شأني ان أسألك عنه لو لم ألحظ من خلال الوقائع ما يشف عن حقيقة السر ولعلي اذا اطلعت على حقيقة الحال ان آتيك بخبر جديد »

قال « لا أخفى عنك بعد ذلك ان السبب في فشلي امرأة أظنك سمعت اسمها في هذا الصباح من فم ابن ملجم »

قال « أظنها قطام بنت شحنة »

قال « نعم هي قبحها الله من داهية محتالة . فانها كانت سبباً في قتل ابن عمي وقتل الامام وابن ملجم . ولا يخفى عليك ان قتل الامام لا يقتصر شره على مجرد قتل النفس ولكننا نخاف منه الفتنة . ولا ريب انها أرادت أيضاً أن تقتلني بوسيلة دبرتها » وقص عليه حديثه مع قطام مختصراً من أول معرفته بها الى تلك الساعة

فلما فرغ سعيد من كلامه عض بلال على أنامله وتحرق ثم تنهد وسكت

فقال سعيد « ما يخطر لك يا بلال وما الذي يدعوك الى التنهد »

قال « يدعوني اليه ندمي على ما فاتني من القبض على هذه المرأة في صباح هذا اليوم لاني رأيتها في قبتها بالمسجد وقد مر بها ابن ملجم ورفيقه فكلماها قبل اقدامهما على تلك الفعلة الشنعاء ولكنني كنت أظن علياً والهفي عليه قد علم منك بما ينويه ابن ملجم فلا يترك له فرصة لارتكاب ذلك المنكر ... وقد رأيت بنت شحنة خارجة من المسجد بعد ان تحققت نيل بغيتها بقتل الامام فياليتني قبضت عليها ... ولكن ما قدر فقد كان . وقد قتل الامام وقتل قاتله والامر في ذلك لله . على انني اذا عشت فاني منتقم لك وللاسلام من هذه الفاجرة . ومن غريب الاتفاق ان ابن ملجم هذا كان قد خطب سيدتي خولة من والدها ولكنها لم تكن تحبه ولم ترض به »

ولم يكن بلال عارفاً باطلاع سعيد على ذلك الخبر من خولة فلم يشأ سعيد ان يعترف له به فتجاهل وظل صامتاً ليسمع بقية الحديث

فقال بلال « ولا شك ان سيدتي خولة اذا سمعت بمقتل هذا الغادر فرحت لتخلصها من شركه »

قال سعيد « وما الذي كان يحملها على القبول به ألم يكن لها ان ترفضه

قال « كلا يا مولاي لان سيدي والدها هو الذي أطمعه بها ووعده بزفافها اليه أما هي فقد تحققت من قرائن مختلفة انها كانت مصممة على رفضه ولو مهما كلفها ذلك من العناء »

الفصل السبعون

قلب خولة

فتذكر سعيد حديث خولة وتمثلت له صورتها كالملاك وتذكر ما آنسه فيها من الحمية والانفة والمروءة وما شعر به نحوها من الميل يوم لقيها في الفسطاط . وهو لا يزال مخدوعاً بمواعيد قطام ومشغولا بامر الامام علي فلم يترك لقلبه يومئذ مجالا للحب فلما سمع ذكرها الآن تجددت ذكراها في ذهنه فمال لسماع اخبارها وظل على تجاهله فقال وهل أنت متحقق انها كانت مصممة على رفضه ولو اغضبت والدها »

قال نعم اني واثق بما أقول وقد لحظت شيئاً آخر . . . » وسكت وهو يبتسم

قال « وما هو »

قال « ألم تلحظه أنت »

قال « كلا وما هو . قل »

قال « لحظت انك وقعت من نفسها موقعاً عظيما . ولحظت أيضاً انك لم تجهل ذلك »

قال « كيف عرفت اني لم أكن أجهله »

قال «عرفته مما رأيت من خروجها اليك غير مرة بالليل التماساً لنجاتك وهي تستجهاني ولا تنتبه لملاحظتي . ولكنك كنت مشتغلا يومئذ بلهفتك على انقاذ الامام علي من مخالب الموت ... »

فعجب سعيد لما ظهر له من اطلاع بلال على سره وتذكر أنه شعر بشيء منه يوم كان في الفسطاط وان انشغاله بلهفته على الامام وخوفه عليه مع تعلقه بقطام وعهودها حال بينه وبين تمكين علائق المودة مع خولة . فلما سمع ما سمعه من بلال ساعتئذ أحب أن يستطلع جلية الخبر فقال له « افصح عما في نفسك اني لم افهم مرادك »

فقال بلال «ان مرادي واضح مما ذكرته لك وأقول بالاختصار ان سيدتي أسرت الي يوم أمرتني أن أسير في ركابك انا اذا أتممنا مهمتنا بكشف دسيسة ابن ملجم وانقذنا الامام علياً ان اطلعك على رغبتها في عودك الى الفسطاط لانها تكون قد نجت من خطبة ابن ملجم وتكون أنت قد فرغت من مهمتك ولا أدري ما تنويه هي في رجوعك ؟ »

ففهم سعيد ما وراء ذلك فقال له « أما رجوعي الى الفسطاط فلا يخلو من الخطر علي لاني انما جئت منها فراراً من القتل . فاذا عدت انما اعرض نفسي لما هو شر من القتل وابن الغاص لا يعفو عني على اني اكره أن أرى الفسطاط بعد أن فقدت فيها ابن عمي رحمه الله . . . » وسكت هنيهة وتنهد ثم قال « هل أنت واثق بميلها الي فاني والحق يقال قد انست في خولة من الحمية وعزة النفس مع الاستهلاك في نصرة الامام ما جعل لها في نفسي مقاماً رفيعاً . ولا أكتمك ما خالج ضميري يومئذ من الميل اليها ولكنني كنت عالق القلب بقطام اخزاها الله انها خدعتني ... »

فقطع بلال الكلام عليه قائلا « لا تذكر هذه الحادثة يا مولاي اني والله أكره ان اسمع ذكرها لاني اشعر بقصوري وجهلي اللذين سببا نجاتها وهي والحق يقال أصل هذا الشر العظيم ... ولكنها انتقمت لوالدها وأخيها فارتكبت أعظم إثم حدث في الاسلام فقتلت ابن عم الرسول (صلعم)

ولكنني سوف اذيقها حتفها واسفك دمها ولو كلفني ذلك بذل النفس» قال ذلك وهو يحرق أسنانه حنقاً وأسفاً

فقال سعيد « وما ظنك بها الآن . هل هي باقية في الكوفة ؟ »

قال « لا اظنها تبقى هنا بعد ما ارتكبته وقد فضح أمرها وعلم الخاص والعام انها شريكة في القتل »

قال « والى اين تظنها خرجت »

قال « لا ادري وسأبحث عن ذلك في صباح الغد أما الآن فلنعد الى ما كنا فيه فانك اذا لم ترجع معي الى الفسطاط احسبني مقصراً بالواجب عليّ . وخولة يامولاي يندر مثالها بين البنات جمالا وعقلا وافقة ولولا والدها وتشيعه لمعاوية لأتت بما لم يأته أعاظم الرجال. ولكنه كثير التشيع لابن أبي سفيان كما قد علمت وهو وسيدي خولة يحسبانني ساذجاً لا افهم الامور ولذلك فكثيراً ما كانا يختلفان امامي ويختصمان على أمور استدل منها على ذلك »

الفصل الحادي والسبعون

حب جديد

فاحس سعيد بتجدد عواطفه نحو خولة وتاقت نفسه الى الحصول عليها ولكنه استثقل الذهاب الى الفسطاط مخافة الوقوع في قبضة عمرو بن العاص . ثم تذكر بغتة ان المؤامرين كانوا قد أقروا على قتله وقتل معاوية في مثل ذلك اليوم فقال ألم اخبرك ان اثنين آخرين تآمرا على قتل ابن العاص ومعاوية أيضاً »

قال « بلى اخبرتني ولكنني لا أخاف على ابن العاص الوقوع في ذلك الشرك »

قال « وما الذي ينجيه منه وهو لايدري بما نووه له . . . فاذا كان

المؤامر على قتله قد قتلهان علي الدخول الى الفسطاط ويكون ذلك أهون اذا قتل معاوية في الشام »

فقال بلال «ان البحث عن ذلك يحتاج الى وقت ولا بد لنامن التربص ريثما نسمع الاخبار أو ان نسير للبحث عنه بأنفسنا »

قال سعيد « لاصبر لي على التربص ولا أظنك تصبر عليه . فأرى ان تسير انت على عجل الى الفسطاط تستطلع جلية الواقع وتعود بالخبر اليقين. واذا جعلت طريقك بالشام جئت بالخبرين معاً »

قال « ذلك اليك ياسيدي . وأنت ماذا تعمل ؟ »

قال اني أود البقاء هنا للبحث عن تلك الخائنة قطام لعلي أتوق للانتقام منها واذا لم اتوفق الى ذلك عشت منغص العيش طول عمري . آه كيف يهنأ لي عيش وهذه المرأة حية وقد فعلت مافعلته معي . . . قتلت ابن عمي وامير المؤمنين وكادت تقتلني ! »

قال « بالله دع امر الانتقام الي فانى اريد ان أشفي غليلي منهـا ومن عبدها الذميم ريحان لا أراحه الله . . . ولـكنني أرى سفري الى الفسطاط أدعى الى العجلة . . . فما العمل

فأعجب سعيد بحماسة بلال وزاد ميلا اليه والى سيدته ولبث برهة يفكر في حاله وهو يزداد شعوراً بالانعطاف الى خولة ويردد في ذاكرته ماآنسه فيها من الخلال الحميدة والغيرة نحوه وكيف كان التقاؤه بها سبباً في نجاته من القتل ليلة ذلك الاجتماع . فضلا عما رآه فيها من الغيرة على امير المؤمنين . ولـكنه لم يكد ينتقل بفكره الى عاقبة ذلك السعي وحبوط تدابيره في انقاذه حتى هب جسمه وتمرمر في داخله على انه لم ير حيلة في ما مضى فقال « لقد قضي الامر يابلال ولم تبق لنا حيلة في ملافاة ما مضى فاذهب انت الى الفسطاط وعرج في طريقك الى الشام ثم عد الي بالخبر اليقين عن عمرو ومعاوية . وأما أنا فاني باق هنا أبحث عن قطام وعجوزها وعبدها واذا انت عدت من سفرك افتقدني في هذا المنزل وسترى ما يكون »

قال « وخولة ؟ ماذا أقول لها »

قال « قل لها اني لا اقدر أصف شوقي اليها وان ما عندي أضعاف ما عندها ولها مني عهد الله ان هي رضيت بي أن لا التفت الى سواها والايام بيننا »

قال « اما رضاها فانا الضمين لك به . . . » وسكت بلال وقد ابرقت أسرته سروراً بما سمعه . ثم قطب وجهه بغتة وقال « ولكن هب ان ابن العاص ما زال حياً ووالدها كما تعلم شديد التشيع له فلا أظنه يأذن بزفافها اليك اختياراً فما الحيلة ؟ »

قال « ذلك راجع الى اختيارها ومتى عدت الي بالخبر تدبر الامر في حينه أما الآن فينبغي أن لا نضيع الوقت . امض الي الفسطاط على عجل وعد الي بالخبر اليقين وعلى الله الاتكال »

فأخذ بلال يهتم بالرحيل وسعيد صامت يفكر فى ما حدث له من الهواجس الجديدة . وأصبح الحصول على خولة شغله الشاغل ولكن فشله في انقاذ الامام أثار في خاطره حب الانتقام من قطام . فصمم على الفتك بها اما بيده واما بمساعدة الحسن بعد تبوئه عرش الخلافة

الفصل الثاني والسبعون

خولة في الفسطاط

فلنترك سعيداً وبلالا في حالها ولنعد الى خولة في الفسطاط . فقد تركناها عائدة في ذلك الليل الى منزلها وكان والدها كما علمت قد حبسها في ذلك البيت على طريق عين شمس . فلما أخرجها سعيد منه كما رأيت وسارا الى الدير ثم خرجت هي وحدها لم تر خيراً من ان تتظاهر بالبكاء والخوف فهرعت الى منزل والدها باكية وكان هو لا يزال غائباً لانشغاله بمقابلة عمرو ابن العاص بشأن الدين قبض عليهم في ذلك الدهليز . فلما فرغ من امرهم وحرض ابن العاص على اغراقهم سار الى محبس ابنته فرأى الباب مفتوحاً وليس هناك أحد . فاستغرب الامر وعاد توّاً الى منزله فرأى خولة جالسة

في غرفتها تبكي . فتجاهل سبب بكائها وقال « ما بالك يا خولة »

قال « كيف تتركني وحدي في ذلك البيت ألم تخف علي أبناء السبيل »

قال « ألم تري اني أقفلت الباب وأوصدته خوفاً عليك من ذلك »

قالت « كيف تفعل بي هـذا الفعل ألعلي عاصية أمرك » واستغرقت في البكاء

فتحركت فيه عاطفة الابوة وظنها تقول ذلك عن سذاجة فقال لهـا « وكيف خرجت »

قالت « لما رأيت نفسي حبيسة هناك خفت على حياتي فجعلت اناديك واستغيث بك ثم سمعت قرقعة وضجيجاً ووقع حوافر كثيرة فازداد خوفي فصحت واستجرت فقيض الله لي بعض الناس فتح الباب بالعنف فخرجت وهرولت الى البيت وانا ارتعد من شدة الاضطراب »

فطيب خاطرها ولامها على خوفها ولكنه سر لظنه بانطلاء حيلته عليها وما زال يهون عليها حتى تظاهرت بالرضاء فتركها وخرج وهو يظنها عازمة على الرقاد . ثم سمعت خولة لغط النـاس في المدينـة فانتبهت ان الجند لا يلبثون ان يبغتوا بيت الغفاري فاذا رأوا سعيداً هناك قبضوا عليه فخرجت لانقاذه كما تقدم . وقبل خروجها اوصت عبدها ان يوصد الباب واذا سأل والدها عنها ان يقول له انها نامت واوصدت الباب وراءها لشدة ما اعتراها من الخوف في ذلك المساء . فبات والدها تلك الليلة وهو يحسبها نائمة اما هي فبعد انقاذها سعيداً عادت الى غرفتها وهي لا تزال مضطربة فلم تستطع رقاداً وجعلت تفكر في طريقة تنقذ بها عبد الله ولم تمكث قليلا حتى سمعت لغطاً في دار والدها وفهمت من خلال اللغط ان عمراً عول على اغراق اسراه تلك الليلة في النيل وسمعت والدها يضحك سروراً بذلك الاقرار . فاسفت أسفاً شديداً ولبثت برهة تفكر في ماذا تعمل حتى حدثتها نفسها لشدة التأثر ان تخرج في أثر الخارجين لعلها تستطيع انقاذ عبد الله . فاستغفلت والدها وكان قد ذهب الى فراشه وخرجت وأوصدت الباب وراءها كالمرة الأولى

وبلال نائم أمام عتبته وسارت تلتمس ضفة النيل حيث ظنت انهم سافوهم وهي عزلاء لا سلاح معها ولكنها اندفعت الى الخروج بحميتها . فالتقت هناك بسعيد ودار ما دار بينها وبينه ووعدته بارسال عبدها ليصحبه الى الكوفة كما تقدم . ثم عادت وحدها

فلما أشرفت على المنزل رأته هادئاً وأهله نيام فانسلت الى الدار فرأت عبدها بلالا نائماً فأيقظته فهب من رقاده مذعوراً وكانت تعلم باستهلاكه في مرضاتها فدعته الى غرفتها فتبعها فلما خلت به قالت « أتدري لماذا دعوتك ؟ »

قال « كلا يا مولاتي ولكنني رهين اشارتك »

قالت « أتطيعني يا بلال »

قال « كيف لا وأنا عبدك ورهين اشارتك »

قالت « اعلم ذلك ولكنني أريد أن اعهد اليك في أمر خطير فهل أنت مستعد للقيام به حتى الموت »

قال « ان الموت هين في سبيل مرضاتك . قولي يا سيدتي مري بما تشائين فقد قضيت عمري في خدمتك وأنا أتوقع مهمة ترضيك ولو الى القتل »

قالت « أسمعت ما حدث اليوم في عين شمس وما فعل ابن العاص بالمجتمعين هناك »

قال « نعم وقد ارتكب أميرنا فيه أمراً عظيما وقتل كثيرين »

قال « أما سرك ما فعله ابن العاص بأولئك العلويين »

قال « اذا كان ذلك سرك فانه يسرني »

قالت « وما ظنك بي »

قال « لا أظنك راضية عن ذلك لعلمي أنك على غير دعوة الامويين وان يكن سيدي والدك مستهلكا في سبيل التشيع لهم »

قالت « وكيف عرفت ذلك »

قال « أنت تحسبيني ساذجاً وقد قضيت في خدمتك أعواماً طوالا

واطلعت على مكنونات قلبك وأنت لا تعلمين . وأما الآن فقد دفعتني الى التصريح فأقول لك اني اعلم غرضك ولم يفتني شيء مما تقاسينه في سبيل الدفاع عن الامام علي ... وخصوصاً أمس وأنت لا تعلمين الا اني أحرس هذا الباب الموصد وأكتم خروجك منه عن والدك »

فاستغربت خولة قوله ولكنها سرت بما سمعته منه وقالت «وما مرادك بما حدث أمس »

قال « أتظنين اني غافل عما قاسيته في سبيل انقاذ ذلك الشاب الغريب الليلة وقد كان في جملة من خيف عليهم الوقوع في شرك ابن العاص فانقذته بغيرتك »

فتحققت أنه كان يراقب حركاتها وسكناتها . فتهلل قلبها سروراً فقالت « أما والحال على ما أرى فاخبرك ان ذلك الشاب مسافر الآن الى الكوفة وأريد منك أن تذهب اليه بالجملين الى سفح المقطم فاذا التقيت به هناك سر في ركابه الى الكوفة واحذر ان يدري بك أحد أو أن تذكر ذلك لاحد »

ولم تتم كلامها حتى تحول مسرعاً بهم باعداد الجملين فاستوقفته وقالت « قف يا بلال بورك فيك واسمع كلمة أخرى أقولها لك »

فعاد وقال « لبيك يا مولاتي قولي ما تشائين »

قالت « انك ذاهب مع هذا الشاب الى الكوفة لانقاذ الامام علي من القتل وستعلم تفصيل ذلك منه . وأما الآن فيكفيني أن أوصيك به خيراً واذا أنتما فرغتما من تلك المهمة ارجع به الينا فاني اكره ابن ملجم الذي يريد والدي ان يجعله خطيباً لي ... هل فهمت ؟ »

فضحك بلال وهز رأسه ولسان حاله يقول « فهمت »

فقالت « سر بحراسة الله وكنت أود أن أزيدك بياناً ولكن الوقت ضيق فاذهب وعد سالماً باذن الله واحذر ان تبوح لاحد بما سمعته أو رأيته

فخرج وهو يلتفت اليها كأنه عاتب على ما ظهر من ضعف ثقتها بأمانته

ولكنه كان يبتسم فرحاً بما كلفته به فأعد الجملين وخرج الى سفح المقطم وصحب سعيداً كما تقدم

الفصل الثالث والسبعون

نفوذ الحيلة

أما هي فلما خرج بلال عادت الى غرفتها وأوصدت الباب وراءها واستلقت في فراشها وقد تعبت مما قاسته في ذلك اليوم من المشاق وكان يجب أن تنام لو لم يشغل خاطرها ما شغله من الامور الهامة . ويتخلل ذلك شعور داخلي جديد لولا الحشمة واهتمامها بانقاذ الامام لصرحت به . ألا وهو انعطافها الى سعيد لما آنست فيه من الرغبة في انقاذ الامام على واستهلاكه في سبيل ذلك مع مافي قلبها من النفور الشديد من ابن ملجم حتى كرهت والدها من أجله ومن أجل تشيعه للامويين

قضت بقية تلك الليلة لم يغمض لها جفن وهي تارة تفكر في سعيد وقلبها يخفق انعطافاً له وخوفاً من فشله في مهمته . فجعلت تقدر الوقت اللازم لسفره الى الكوفة فرأت أنه اذا أسرع لا يفوته الوصول اليها قبل الاجل المسمى للقتل . وكان يعترض تسلسل افكارها خوف مما ربما يطرأ عليه في الطريق فيعيق وصوله فترتعد فرائصها فرقاً من قتل الامام . وفي قتله ضربتان كبيرتان الاولى موته والثانية عود ابن ملجم اليها . ولكنها كانت تتعزى بأن ابن ملجم اذا ظفر بقتل الامام لا ينجو من القتل . ثم تحول ذهنها الى والدها وخروج عبدها بالجملين وأعدت اعذاراً تنتحلها في سبب خروجه فلم تجد خيراً من أن تدعي فراره الى حيث لا تعلم

وكان والدها قد أفاق في أثناء الليل وهي غائبة فجاء غرفة ابنته ليرى حالها فرأى الباب موصداً فسأل العبد عن ذلك « فقال ان سيدتي باتت مبغوتة وقد تولاها الخوف على غير المعتاد في تلك الليلة فاوصدت الباب وأوصتني أن أنام خارجاً »

فقال والدها في نفسه « مسكينة خولة يظهر ان رعبها من ذلك الحبس لا يزال مؤثراً عليها » وعاد الى فراشه وهو مقتنع بصدق ما قاله العبد

وفي الصباح جاء الغرفة فرأى الباب لا يزال موصداً ولكن بلالا ليس أمامه فقرعه فنهضت خولة وفتحته وهي تتظاهر بالذبول لطول استغراقها في النوم . فامسكها والدها بيدهاووضع يده على كتفها وهو يقول « أعلك لا تزالين خائفة يا بنية »

قالت « كلا يا سيدي اني تحت جناحك في أمن وطمأنينة »

فقال « بورك فيك تعالى تناول الطعام » ثم نادى بلالا فلم يجبه أحد فقال « أين بلال »

فقالت « لا أدري لعله خرج الى السوق في غرض »

فصبر هنيهة فلم يحضر فأرسل بعض الخدم في أثره فلم يقف له على خبر ثم علم بضياع الجملين ولما انقضى معظم النهار ولم يعد بلال ولا الجملان اشكل عليه أمره

فقالت خولة « يظهر انه أخذ الجملين وفر » فبعث الناس في أثره الى ضواحي المدينة فلم ينبئه أحد بخبره فصدق فراره

الفصل الرابع والسبعون

خولة ووالدها

أما خولة فلما تحققت انطلاء الحيلة على والدها عادت الى هواجسها وتذكرت المهمة التي سار فيها سعيد وأخذت تفكر في أمره وهي خائفة ان يتأخر في الطريق عن الوقت المعين لقتل الامام فيذهب سعيها هباء منثوراً ولكنها كانت مع ذلك مطمئنة الخاطر بنجاتها من ابن ملجم لعلمها انه وان فاز بقتل الامام علي فلا ينجو من سيوف اشياعه وهم كثار في الكوفة

على انها باتت منشغلة الخاطر على سعيد بعد ان فرغت من تدبير الحيل في ارساله لانها لم تتحقق وقوعها من نفسه مثل وقوعه من نفسها وودت

لو يسرع عبدها بلال بالرجوع لترى ما تم . ولكنها حسبت الايام الباقية ريثما يرجع فرأت الاجل لا يزال بعيداً فصبرت نفسها ولبثت تنتظر ما يأتي به القدر

وبعد مضي أيام من ذلك جاء والدها ذات مساء بعد عودته من حانوته وعلى وجهه امارات البشر فتوسمت في طلعته خبراً جديداً فمالت الى استطلاع ما في خاطره لعلها تعلم منه شيئاً يهمها . فقد جلسا الى المائدة فاحتالت في اجتذاب حديثه فذكرت له مامر في تلك الاثناء من القبض على اولئك العلويين وتفننت في استرضائه فابتسم واللقمة ملء فيه وكأنه يريد ان يقص عليها قصة بعد ان يزدرد تلك اللقمة . فكفت هي عن الطعام ولم تعد تستطيع صبراً على سماع الحديث

فلما ابتلع اللقمة تنحنح ومسح شاربيه ولحيته والتفت اليها وقال وهو لا يزال يبتسم « لقد عودتني يا خولة ان أحاذرفي الكلام بين يديك في ما أخشى افشاءه »

فتظاهرت بالاستغراب وقالت « اني لاعجب يا أبتاه من سوء ظنك بي مع علمك اني فتاة منحجبة في هذا البيت لا أعرف من أهل الدنيا أحداً سواك فكيف تقول انك تحاذر ان تذكر بين يدي ما تخاف افشاءه . أي سر بحت به الي فافشيته » قالت ذلك وكادت تجهش بالبكاء

فتأثر والدها من منظرها ولكنه عاد فابتسم وقال لها « لم أقل انك تبوحين بالسر ولكن . . . . . » وسكت

فقالت « ولكن ماذا يا أبتاه انك والله تظلمني بظنونك ويسوءني ان لا يكون لي نصيب من الثقة حتى ولا من والدي الذي لا اعرف أحداً سواه »

قال « لا أخفي عنك يا ابنتي انني كنت ولا أزال اعتقد أنك ميالة الى الاعداء . . . . و . . . . »

فابتدرته وهي تتظاهر بالبغتة والاستغراب وقالت « وأي اعداء تعني . . أعوذ بالله من هذه التهم . . . فكيف تقول ذلك . . . » وتنحت عن المائدة وتظاهرت بالاعراض

فقال « اعترف لك اني أراك ميالة الى حزب العلويين وأنت تعلمين ان علياً حاربنا وقتل جماعة كبيرة منا في النهروان وغيرها . . ولا ألومك لانعطافك نحوه لانني كنت أنا أيضاً مثلك وقد كنت في جملة المتشيعين له ولكني اصبحت بعد واقعة صفين ناقماً عليه لما ارتكبه في مسألة الحكمين بحيث اخرج الخلافة من يده وجعل لمعاوية يداً دونه . . . . »

الفصل الخامس والسبعون

خبر جديد

فادركت انها اذا أقرت بحقيقة ميلها ألقت نفسها في تهلكة فلم تر خيراً من المبالغة في الانكار فقالت « وما أدراك اني ما زلت على القديم اذا كنت قد عدلت عنه ومن أكون أنا حتى أخالفك في مثل ذلك »

قال « لو لم تكوني كذلك لما كان ثمة داع لتمنعك عن القبول بابن ملجم زوجاً وانت تعلمين ان هذا الرجل قد عاهد نفسه على القيام بعمل لم يقدم عليه أحد غيره من المسلمين في هذا العصر . انه كما تعلمين قد تعهد بقتل على . . . »

فاجفلت عند سماعها ذلك التعريض وحدثتها نفسها ان تبوح بحقيقة ميلها ولكن خافت ضياع الفرصة وهي انما افتتحت الحديث لتستطلع ما في نفس والدها فانكرت تهمته كل الانكار وقالت « ان ما تنسبني اليه من امر ابن ملجم ظلم يا مولاي فاني لم ارفض هذا الرجل وهو لايزال خطيبي متى عاد من رحلته هذه . وكيف تقول انى لم أقبل به وأنا لم أفه بكلمة في هذا الموضوع »

فضحك والدها وهو يتشاغل بتقطيع فخذ من الضأن بين يديه وقال وهو ينظر الى تلك الفخذ « نعم انك لم تفوهي بكلمة ولكنني فهمت من مجمل حالك انك غير راضية به » وكان قد أتم تقطيع اللحم فقدم لها قطعة فأبت ان تتناولها وأعرضت دلالاً وحنقاً

فقال لها « خذي كلي ياخولة ولا يسوءك قولي اذا كان صحيحا »

قالت « وهو انما ساءني لاني اراني به مظلومة واظنك بناء على هذه الظنون قد عاملتني معاملة العدو فحبستني في ذلك البيت المظلم سامحك الله »

قال « لقد اذكرتني حديث تلك الليلة وما كان فيها من الاهوال وهو الامر الذي جئت لاقص خبره عليك ولكنني لا اقول كلمة قبل ان تصدقيني الخبر هل انت على ولاء والدك تأمرين بامره . ام ماذا »

فتظاهرت بالغضب وقالت « اني لا اراك بهذه الظنون الا تريد ن تبعثني على الشكوك وتلجئني الى الانحراف وانا لا علم لي بما وراء هذا البيت ولا أبغي من هذه الحياة غير مرضاتك »

فمد يده وهو لا يزال قابضاً على قطعة اللحم وقال لها « خذي إذاً هذه اللقمة واصغي لما أقوله لك »

فتناولت خولة اللقمة من يده وقالت « تفضل » ووضعت اللقمة في فيها وهي لا تعرف كيف تمضغها لانشغال خاطرها بما ترجو سماعه من والدها فاذا هو يقول « اعلمي يا خولة ولا أزيدك علماً ان اميرنا حفظه الله علم منذ أيام باتين أتيا من الكوفة لمخابرة بعض كبار العلويين الذين كانوا يجتمعون سراً في خرائب عين شمس فبعث جنداً من شرطته فقبض عليهم وهم في مجتمعهم تحت الارض . ألا تعلمين ذلك ؟ »

قالت « لحظت شيئاً منه بعد حدوثه »

الفصل السادس والسبعون

عبد الله حي

قال « فاعلمي اننا وجدنا في جملة المقبوض عليهم في تلك الليلة واحداً من ذينك الاثنين اسمه عبد الله . واما الثاني فانه نجا ولا ندري من هو والظاهر انه لم يكن في ذلك الاجتماع لان عمره كان طويلا . أما الاول فانه سيق في جملة من سيق تلك الليلة الى دار الامارة . وربما بلغت ان

الامير عمراً رأى أن يقتل أولئك المبغوض عليهم وقد كنت انا في جملة من أشار عليه بذلك مخافة الفتنة اذا ظلوا احياء . فامر عمرو باغراقهم في النيل وعبد الله معهم وقد عدت انا من حضرة الامير وهم يتهيأون لا رسالهم الى النيل وعلمت في الغد انهم اغرقوهم »

فلم تر خولة بحديثه شيئاً لم تكن تعرفه ولكنها علمت ان الحديث لم يتم فصبرت نفسها وتظاهرت بخلو الذهن من هذا الموضوع وهي تبدي الاستغراب

أما هو فقال «وما زلت اعتقد انه اغرقهم جميعاً الى اليوم وانا في منزل الامير فرأيت في بعض جوانبه غرفة مقفلة كنت كلما جئته في هذه الاثناء أراها مغلقة فلم اهتم بشأنها فلما كان عصر هذا اليوم دخلت على الامير وانا عائد من عملي فذكرت له امر ابن ملجم ومهمته وطفقنا نتحدث في ما عسى ان يكون من امره في الكوفة فلما وصلنا الى ذلك رأيته يبتسم وتوسمت في وجهه خبراً فرغبت اليه ان يطلعني على ما حدث وانت تعلمين ما لي من الدالة عليه . ولكنني رأيته يتردد في الامر فألححت عليه فقال لي « أتعلم من هو المقيم في هذه الغرفة »

قلت « لايامولاي لا اعلم وليس من شأني السؤال عما في منزل الامير »

فضحك عمرو حتى رقصت لحيته وقال « اني حبست فيها رجلا سينقذ حياتي من القتل »

فعجبت لقوله واستغربت ما يشير اليه ولبثت انتظر الافصاح فقال لي « اعلم ياصاحبي اني حبست في هذه الغرفة عبد الله الاموي الذي كان قدومه سبباً بمقتل العلويين منذ أيام »

فلما سمعت خولة ذكر عبد الله علمت انه رفيق سعيد وخفق قلبها فرحاً بنجاته من القتل ولكنها استغربت سبب تلك النجاة على انها ظلت متجاهلة وهي تتوقع سماع تتمة الحديث ووالدها يتشاغل عن اتمامه بالمضغ والابتلاع وكان اكولا

فلما خلا فمه من الطعام عاد الى الحديث فقال « فاستغربت ما يقوله وقلت ما الذي عساه أن ينجيك به من الموت » فاخبرني قائلا « ان ابن ملجم خطيب خولة الذي قات لي انه عازم على قتل علي انما هو مؤامر رجلا آخر على قتلي وانهما تواعدا على قتل علي وعمرو في يوم واحد » قال عمرو ـ فلما « قال لي عبد الله ذلك استغشيته ولم اصدق قوله لغرابته ولعلمي ان ابن ملجم من رجال دعوتنا وخصوصاً بعد أن خطب ابنتك فقلت في نفسي لو صح حديث هذا الاموي لما خفي ذلك الحديث عنك وانت لو علمته ما كتمته عني فلم أر خيراً من ان استبقيه وأحبسه في منزلي ريثما يأتي الاجل المضروب لقتل هذين الاثنين وهو يوم ١٧ رمضان فاذا تحققنا قوله افرجنا عنه والا ضربنا عنقه »

قال والد خولة « فلما سمعت قول عمرو استغربته كل الاستغراب وخفت ان يكون عمرو قد ساء الظن بي فاقسمت له الايمان المغلظة اني لم اكن عالماً بغير عزم ابن ملجم وسألت عمراً هل عرف اسم المؤامر على قتله فقال ان ذلك الاموي لم يكن يعرف الاسم . ولم أعد اعرف يا خولة كيف أؤكد له صدق اخلاصي له مخافة ان يبقى على سوء ظنه بي فبالغت في اظهار الغضب من ابن ملجم وقلت له اني لو عرفت خداع هذا الرجل مارضيت به صهراً وانا منذ الآن محرمه من خولة » ولما قلت له ذلك التفت الي وقال « لا يكفيني هذا الوعد وانا أعرف خولة وأعرف مقامها وطالما كنت اريدها لاحد أولادي وأما الآن فاني اطالب اليك اذا صدق هذا الاموي بقوله ان تكون ابنتك خولة عروساً له لان الرجل أموي وكان على دعوتنا ولكن بعض الناس أغروه على التشيع لعلي »

الفصل السابع والسبعون

عريس جديد

فلما وصل الى ذلك الحد علمت خولة ان عبد الله لايزال حياً واطمأن بالها عليه وعلمت انه لم يذكر خبر المؤامر الثالث على قتل معاوية مخافة ان يرسل عمرو بخبره الى الشام فينجو معاوية منه

ولكنها لما سمعت ذكر خطبتها له اطرقت حياء وتظاهرت بالسكوت وقلبها يخلج فرحاً بنجاتها من ابن ملجم . ولكنها تذكرت حبها سعيداً وما بعثت اليه مع عبدها بلال فاحتارت في امرها على انها لم يسعها الا كتمان كل ذلك والتظاهر بالاستغراب فقالت وهي تهز رأسها استغراباً اصحيح انهم تآمروا على قتل عمرو أيضاً انها لمصادفة غريبة »

قال « بالحقيقة انها مصادفة يندر مثالها ولكن ما قولك باقتراح عمرو عنك »

فسكتت ولم تجب

فقال « ما معنى سكوتك وانت تعلمين اننا لانستطيع رد ذلك الاقتراح »

قالت « دع ذلك الآن فانه ليس بالامر المهم وماخولة الاجارية حقيرة لانستحق هذا الاهتمام ولنصبر الى الاجل المسمى لنرى مايكون »

فقال « اننا صابرون ولكنني ارجو أن يكون خطيبك الجديد اهلالك وليس مثل ابن ملجم الخائن على اني ادركت من خلال حديث عمرو ان عبد الله رجل صادق وهو مع ذلك أموي ربي في منزل الخليفة عثمان ولكنهم أغروه على التشيع لعلي ثم عاد الى ما كان عليه. واذكر اني رأيته ليلة قبضوا عليه فاذا هو شاب في مقتبل العمر واظنك سترتاحين اليه »

فظلت خولة ساكتة فحسب والدها سكوتها قبولا فسكت وكانوا قد فرغوا من الطعام فنهض ونهضت خولة ففسلت يديها والتمست غرفتها وهي

تفكر في ما سمعته من والدها وتحسب نفسها في حلم

فلما خلت بنفسها تذكرت سعيداً وحبها له وجعلت تتقاذفها الهواجس وهي تخاف أن يحملها عمرو على الاقتران بعبد الله قبل أن تعلم مصير سعيد في مهمته الى الكوفة وقد اعجبت بدهاء عبدالله لانه باح بخبر المؤامرة على قتل عمرو وكتم أمر المؤامرة الثالث وهو معذور في ما باح به انقاذاً لحياته. ولكنها خافت أن لاتتم نبوته فلا يأتي المؤامر في الاجل المعين فيقتل عبد الله . على انها كانت اذا تصورت صدق نبوته ونجاته من القتل يخفق قلبها لاضطرارها عند ذلك الى القبول بعبد الله زوجاً لها وهي تحب سعيداً فهاجت أشجانها وارتبكت في أمرها وجعلت تبحث عن طريقة تنجو بها من هذا التردد فلم تر خيراً من الصبر لما يأتي به القدر

الفصل الثامن والسبعون

نجاة عمرو

اما عبد الله فكان قد جنح الى هذه الحيلة أملا بالحياة وهو مع ذلك يخاف أن يتأخر المؤامر عن الوقت المعين لسبب من الاسباب فيذهب سعيه عبثاً

وظل عمرو أياماً لايخرج للصلاة فلما كان فجر ١٧ رمضان شكا من بطنه فلم يخرج واتفق خروج خارجة بن أبي حبيبة صاحب شرطته للصلاة وهو لايعلم بخبر المؤامرة ولا أمره عمرو بالخروج ولو علم بخروجه لمنعه على انه لم يكن يحسب المؤامر يأتي لقتله في الفجر وهو يصلي بل كان يحسب انه يراقب خروجه في أثناء النهار الى بعض الاماكن. ولكن منية خارجة عاجلته فخرج في فجر ذلك اليوم الى الجامع ليصلي في الناس ولم يكد يبدأ بها حتى هم به رجل من الوقوف وهو يحسبه عمراً فضربه بالسيف

فقتله [1] فقبضوا عليه وساقوه الى عمرو . فلما رآه عمرو بغت وصاح به « ويلك قد قتلت صاحب شرطتي قتلت خارجة بن ابي حبيبة » فاجابه الرجل بقلب لا يهاب الموت « والله اني كنت احسبه أنت »

فقال له عمرو « أردتني وأراد الله خارجة . من أنت ياغادر ؟ »

قال « اني عمرو بن بكر »

قال « وممن أنت ؟ »

قال « من تميم »

فقال « اقتلوه » فقتلوه وقد أسفوا لمقتل خارجة ولكن المقدر كائن لا يمحى

أما خولة فانها باتت ليلة ١٧ رمضان على مثل الجمر وهي تتوقع أن تسمع خبراً جديداً في اليوم التالى ولم تكن تتوقع ان يفعل المؤامر فعلته في الفجر فأصبحت وقد ضجت الفسطاط بخبر خارجة وجاءها ابوها فأخبرها به ولسان حاله يقول « لقد صحت أقوال عبد الله فتأهبي للاقتران به »

اما هي فانها تحققت وقوع المحظور ولم تعد تدري ماذا تفعل وندمت لانها لم تخرج من بيت والدها سراً قبل ذلك اليوم على انها لم تكن من الجهة الاخرى موقنة ببقاء سعيد على عهدها أو انه رضي بها وكانت لما لقيته في الفسطاط لم تتحقق ميله نحوها . فوقعت في حيرة ولكنها كانت من الجهة الاخرى في قلق على الامام على لاتدري هل نجا كما نجا عمرو أم ذهب فريسة ابن ملجم وودت لو ان عبدها يعود في ذلك اليوم بالخبر اليقين لتعلم كيف تتصرف

(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل التاسع والسبعون

ضياع قطام

فلنعد الى سعيد وبلال في الكوفة فقد تركنا بلالا يتأهب للقدوم على الفسطاط وسعيداً يفكر في ماذا يفعل بعده وكان قد أمره بالذهاب الى الفسطاط على ان يبقى هو هناك حتى يعود اليه بالخبر عن عمرو . ثم رأى أن المسافة بعيدة ربما لا يصبر عليها . فقال له « لقد أمرتك بالرجوع الى الفسطاط ولكني أرى الاجل بعيداً فاني شاخص الى دمشق فاذا سرت الى الفسطاط واطلعت على ماجريات الاحوال وافني الى دمشق فانى اكون هناك في انتظارك في المسجد بعدعشرين يوماً سواء تمكنت من الفتك بقطام الخائنة أم لا ولكنني أكون قد اطلعت على مصير معاوية »

فودعه بلال ومضى وصبر هو الى الغد فخرج الى الكوفة يلتمس بيت قطام فرآه مقفراً ليس فيه أحد فوقف عند باب الحديقة وجعل يتأمل بنخلاتها وطرقاتها وتفكر في ما مر له هناك من الاهوال وما طلى عليه من خيانة قطام غير مرة فشعر بضعفه وتذكر آخر مرة زارها بها في ذلك المنزل ومعه ابن عمه عبد الله فأسف لفقده وازداد به الميل للانتقام من قطام . ففكر في أمرها وفي المكان الذي عساها ان تكون قد انصرفت اليه فخطر له ان تكون قد سارت الى أهلها فى جوار الكوفة فخرج للبحث عنها فلم يقف لها على خبر قبل البحث وخاف أن ينقضي الاجل الذي ضربه لبلال فيعود اليه فى دمشق ولا يجده فخطر له ان قطام ربما سارت الى دمشق تلتجىء الى معاوية بعد ان نجحت فى قتل مناظره علي فسار يلتمس دمشق على ناقة تسابق الرياح

أما قطام فكانت فى الليلة التي وصل بها سعيد الى الكوفة قد علمت بقدومه من ريحان إذعاد اليها بما دار بينه وبين بلال عبد خولة وحكى لها ما فضحه بلال من سره وكيف كان ذلك سبباً فى انكشاف امره لدى

سعيد فلم يعد يصدقه ويذهب معه الى منزلها فحنقت على بلال وعلى سيدته ومازج ذلك الحنق غيرة من خولة . لان قطام اللعينة مع كرهها لسعيد لم تكن تصبر على من يحبه وخصوصاً لما علمت أن خولة كانت عوناً على عرقلة مساعيها فى قتل الامام علي فأضمرت لها السوء ولكنها شغلت عنها تلك الليلة بما كانت فيه من انتظار الفتك بعلي وكان ابن ملجم باثتاً عندها . فلما كان الفجر خرجت هي وعجوزها وعبدها وضربت قبتهـا فى المسجد كما تقدم وفى ذلك من الجرأة والوقاحة ما فيه ولم تكن تخاف انكشاف حيلتها ولو تعمد سعيد أن يكشفها لما دبرته من الحيلة فى ايصال الصك بعد تحويره الى قنبر حاجب الامام علي مع لبابة المحتاله كما علمت

الفصل الثمانون

نجاة معاوية

فلما قتل الامام علي على ما تقدم ورأت ابن ملجم مقبوضاً عليه وكانت تتوقع له ذلك من ذي قبل فرت بعبدها وعجوزها الى مكان خارج الكوفة وقد شفت غليلها بقتل الامام . ولكنها ما زالت ناقمة على سعيد وزادت نقمتها عليه بعد ما علمته من أمر خولة فعولت على اللحاق بالفسطاط لتشي بها الى عمرو بن العاص لاعتقادها أنه يقدر خدمتها له حق قدرها لانهـا أنبأته بمجتمع العلويين . وهي لا تشك انها بمجرد وشايتها على خولة وانها من انصار علي يقتلها عمرو اذا كان لا يزال حياً. واذا كان قد قتل فتدبر حيلة اخرى . فلما خطر لها ذلك استشارت لبابة سراً فاستحسنت رأيهـا وحرضتها على المسير الى الفسطاط واستشارت ريحان فقال لها اني فى ركابك رحلت أو أقمت فأثنت على غيرته بألفاظ ملؤها التمليق والرياء وأصبحت فى اليوم التالي تلتمس الفسطاط على أن تمر بدمشق وتستطلع حال معاوية وما كان من امره بعد ١٧ رمضان حتى اذا كان قد نفذ السهم وقتل معاوية تحمل ذلك الخبر الى عمرو تحرضه على التماس السلطان لنفسه

فلما وصلت دمشق سمعت ان المؤامر على قتل معاوية واسمه البرك بن عبد الله التميمي الصريمي قعد لمعاوية في فجر ١٧ رمضان في مسجد دمشق . فلما خرج معاوية للصلاة شد عليه بالسيف فوقع السيف في اليته [1] فسيق البرك الى معاوية « فقال لمعاوية ان عندي خبراً أسرك به فان اخبرتك فنافعي ذلك »

فقال له معاوية « نعم »

قال « ان أخاً لي قد قتل علياً هذه الليلة »

فقال « فلعله لم يقدر على ذلك »

قال « بلى ان علياً ليس معه أحد يحرسه »

فأمر به معاوية فقتل وجعل يطبب جرحه

فلما علمت قطام بنجاة معاوية لم يبق لديها الا الشخوص الى الفسطاط للايقاع بخولة

الفصل الحادي والثمانون

عبد الله في دار الامير

أما عبد الله فانه مكث في محبسه وقلبه واجف مما قد يطرأ من تغيير خطة المؤامر . وقد خطر له الاحتياط من ذلك فلما باح لعمرو بالسر اشترط عليه ألا يطلع أحداً عليه لانه اذا شاع وعلم المؤامر به ربما غير خطته فيقدم الميعاد أو يؤخره فيظهر ذلك من عبد الله مظهر الكذب . وهذا الذي دعا عمراً لكتمان أمر المؤامرة عن كل واحد حتى عن صاحب شرطته . وأما والد خولة فقد كان من أكثر الناس تقرباً من عمرو وأعظمهم غيرة عليه فكان عمرو يساره في مثل هذه الشؤون ولولا رغبته في معاتبته على خيانة صهره ابن ملجم ما كشف له الامر

فلما كان ليل ١٧ رمضان أخذ القلق من عبد الله مأخذا عظيما لعلمه انه

(١) ابن الاثير ج ٣

لينشذ بين الحياة والموت . فأصبح ذلك اليوم وهو لا يزال محبوساً لا نافذة في محبسه يطل منها أو يسمع ما يجرى على انه سمع لغطاً لم يفهم منه شيئاً صريحاً فتربص حتى جاءه الخفير بالطعام على جاري العادة فاستفهمه فطمأنه باختصار فسر ولبث الى مساء ذلك اليوم

وبعد العشاء جاء بعض رجال عمرو الى محبس عبد الله فتحه ودخل عليه فحل قيوده ودعاه الى الامير فمشى في أثره وقد انبسط وجهه لما كان من نجاته بعد ان كان في عداد الاموات . فقاده الرجل الى قاعة في صدرها عمرو بن العاص على وسادة وفي يده درة (سوط) يلاعبها بين اصابعه وليس في القاعة أحد سواه . فلما أشرف عبد الله على القاعة نزع حذاءه في الخارج ودخل تواً الى مجلس الامير وهم بتقبيل يده باحترام فامسكه ابن العاص بيمينه واجلسه الى جانبه وهو يقول بصوت منخفض « لقد كانت نجاتنا على يدك فوجبت علينا كرامتك ولكن للاسف ان صاحب شرطتنا وقع في الشرك الذي كان منصوباً لنا ولو علمنا الساعة أو المكان المعينين لتلك الفعلة الشنعاء لاستطعنا تداركها أو لو اطلعت خارجة على سر الامر فربما كان نجا بنفسه ولكنني لا أظنه كان يستطيع ذلك وهو لا يعلم الزمان والمكان المعينين »

فقال عبد الله « اعلم يا مولاي ان كتمان هذا الامر يتوقف عليه حياتي إذ لو شاع خبر اطلاعك على هذا السر لغير المؤامر خطته فربما أخر موعده اسبوعاً أو شهراً فكنت أنا المقتول بدلا من خارجة لانك تسيء الظن بي فتقتلني . ومع ذلك فهو القضاء يجري الى حيث لا نعلم »

ولم يتم كلامه حتى دخل بعض الخدم يقول « ان في الباب أبا خولة »

فقال عمرو « ادخلوه »

فرجع الخادم ودخل أبو خولة وهو صاحبنا والد خولة ولم يكن هو من مصاف الامراء ولا من القواد الانداد حتى تكون له تلك المنزلة عند عمرو ولكنه نال تلك الحظوة خصوصاً بعد ان اطلع عمراً على عزم ابن

ملجم على قتل علي . ثم ما زال يتردد على دار عمرو ويبذل ما في وسعه لخدمته فعدّه عمرو من أصحابه

فلما دخل ابو خولة القاعة حيا وقبل ان يجلس قال له عمرو « اغلق الباب ومر الخدم انا لا نريد أحداً يدخل علينا » . ففعل ودخل . فدعاه عمرو الى جانبه وعرّفه بعبد الله فاعجب ابو خولة بعبد الله لانه كان شاباً جميلا مع نباهة وذكاء وسر لما دبره عمرو من مصاهرته له . وأما عبد الله فكان لا يزال خالي الذهن من ذلك

فلما جلس الثلاثة التفت عمرو الى عبد الله وقال له « لقد عرفتك بصاحبنا ابي خولة ولم أتم لك المعرفة فازيدك علماً انه من أعز أصدقائي وقد كتمت امر المؤامرة عن كل أحد سواه ولكنني اشترطت عليه شرطاً أظنه يعود عليك بالمنفعة وقد فعلته مكافأة لك على خدمتك لي »

فوقف عبد الله متأدباً وقال « يأذن لي مولاي بكلمة »

قال « قل »

قال « لا ارجو ان تحسب لي فضلا بما بحت لك به فاني والحق يقال انما فعلته استبقاء لحياتي فلا تظنني أغش نفسي »

الفصل الثاني والثمانون

عبد الله وخولة

فأعجب عمرو بحرية ضمير عبد الله وقال له « لم تزدني بهذا التبرؤ الا رغبة في مكافأتك ان ابن العاص لا يجهل قدر الرجال ولا هو ساذج لا يفهم انك لو لم تقع بين يديه وتشعر بقرب الاجل ولا ترى لك مخرجاً بغير هذا الافشاء لما فعلته . ولكنني مع ذلك أشعر بجميل لك علي فأريد مكافأتك عليه وخصوصاً بعد ان رأيت من صدق لهجتك ما أكد لي انك لو كنت من أنصارنا لكان لنا بك نعم النصير وأنت على ما بلغني أموي فليس تشيعك للاموين معقولا . . » قال ذلك وفي صوته غنة استفهام كأنه يستفهم عن سبب

تشيعه فسكت عبد الله . ففهم عمرو انه يريد الكتمان فغير الحديث وقال له « ولكنك لم تسألني عن المكافأة التي اعددتها لك »

قال « قلت لك اني لا استحق مكافأة فهما اكرمتني به كان فوق ما استحق »

قال عمرو « هل انت متزوج »

قال « كلا يا مولاي »

قال « اعلم يا عبد الله ان في الفسطاط فتاة يتحدث بجمالها وتعقلها أهل هذه المدينة هي ابنة صاحبي هذا (وأشار الى والد خولة) ولا أخفي عنك انها كانت مخطوبة لعبد الرحمن بن ملجم وهو أحد المؤامرين على قتل عمرو وعلي ولا ندري ما كان من أمره اليوم فانه موعد القتل . . . »

ولما قال عمرو ذلك تذكر عبد الله ما كان قادماً من أجله مع سعيد وكيف فشلت مهمتهما فاحس كأنك تصب ماءً غالياً على ظهره ولكنه تجلد وصبر نفسه الى آخر الحديث

فاتم عمرو كلامه قائلا « ان خولة هذه كانت مخطوبة لابن ملجم على ان يقترن بها بعد عودته من الكوفة ولا ريب ان ذلك الخائن كان عالماً بتواطؤ عمرو بن بكر على قتلي فكتم ذلك في قلبه وسار ولم يطلعني على شيء منه فاعتبرته شريكا في قتلي فحرمته من خولة ولي دالة على والدها لانها بمنزلة ابنتي وقد طلبت منه أن تكون لك عروساً ومتى رأيتها تتحقق انا قد أزوجناك زهرة الفسطاط وخيرة بناتها . ثم التفت عمرو الى أبي خولة وقال « ولا نظننا فرطنا بخولة فان هذا الشاب من سلالة الامراء ويكفي انه أموي وبينه وبين الخليفة معاوية نسب قريب . أما ابن ملجم الخائن اذا عاد الينا فلا أبقاني الله ان ابقيته حياً . ولكنني لا أظنه الا مقتولا في دار ابن أبي طالب فاز في مهمته او لم يفز » قال ذلك والغضب باد على وجهه

ففرح عبد الله بما ناله من الحظوة في عيني عمرو وارتاح بما بلغه عن خولة ولكنه مازال منشغل الخاطر على ابن عمه سعيد وما كان من أمره بعد ان فارقه في مسجد الفسطاط يوم اجتماع عين شمس . وحدثته نفسه

أن يسأل عمراً عنه مخافة أن يكون وقع في أيدى رجاله ولكنه لبث ساكتاً يتردد وقد نسي اقتراح عمرو . فظنه عمرو غير راض به فقال « ما بالك لم تجب ألعلك لم ترض خولة والله انى أرضاها لاعز أبنائى »

فابتدره عبد الله قائلا « عفوك يا مولانا كيف لا ارضى بما رضيته انت لي وما سكوتى الا لاني اعتبرت اقتراح الامير أمراً نافذاً لاخيرة لى فيه فماذا أجيب . أما اذا تعطفت في سؤالى فاني راض ولكنني ارجوان تكون هي راضية بهذا الرجل الغريب »

فقال أبو خولة « ان خولة جاريه بين يدي مولانا الامير وما يرضاه لها لا مندوحة لها عنه وأنا وهي طوع ارادته »

الفصل الثالث والثمانون

تتمة الحديث

واستولي السكون على تلك الجلسة لحظة ثم التفت عمرو الى عبد الله فقال « وقد كنت اظنكما اتيين جئتما معاً الى الفسطاط ولكنني لم أرسواك »

« ولم يتم عمرو كلامه حتى علت البغتة على وجه عبد الله ونظر الى عمرو قائلا « وهذا هو الامر الذي شغل بالي في أثناء حديث مولاي . ان رفيقي هو ابن عمي بل هو أخي وقد كلفت برعايته جئنا معاً الى هذه المدينة ولكني يممت عين شمس وحدي وتركته في المسجد على ان استطلع المكان وأعود اليه فقبضوا علي ولم اعد اعرف شيئاً عنه الى الآن فهل عثر احد من الشرطة عليه فقتلوه »

قال عمرو « لم اسمع عنه شيئاً ولا اخبرنى أحد بخبره والظاهر انه نجا بنفسه لما سمع بما وقع لكم في ذلك الاجتماع »

فاطمأن بال عبد الله على سعيد ولكنه ظل مشتاقاً لاستطلاع حقيقة حاله . فود لو انه يسير حالا الى الكوفة فيستطلع كل شيء ويتحقق ما وقع للامام علي ولكنه خجل من ابداء رأيه وهو في مجلس عمرو فكيف

يتظاهر برغبته في شؤون علي مع علمه بما بينهما من المسافة فرأى ان يجعل السبب في اسراعه البحث عن ابن عمه فقال « لقد أوضحت لمولاي ما أنا فيه من انشغال البال على ابن عمي هذا فهل يأذن لي الامير بالانصراف الى الكوفة استطلع حاله ثم أعود وأكون في خدمتك الى الممات فقد أوليتني جميلا لا أنساه لك »

قال عمرو « ويكون ذلك بعد كتابة الكتاب. فاذا عقدنا لك على خولة وصرت من أصهارنا سر الى حيث شئت »

وكان عمرو لفرط دهائه وحسن سياسته قد ادرك ان رجلا حراً صادقاً مثل عبد الله لا يفرط فيه . لانه اذا اخلص الخدمة كان نفعه عظيما . فلم ير لتقييد قلبه خيراً من أن يبادئه بالجميل وان يزوجه ببنت صاحبه وهو يحسب خولة على دعوته فاذا كانت هي زوجته حببت اليه الرجوع الى حزب الامويين . ولا سيما وهو لا يعلم بعد هل نجح ابن ملجم بمهمته في الكوفة أم لا . فلما اقترح على عبد الله كتابة الكتاب قبل السفر قبل عبد الله واطاع فضرب عمرو أجلا لذلك أسبوعاً وقال « فتقيم عندنا في أثناء ذلك ضيفاً كريماً فاذا آن الزمن عقدنا لك على خولة ثم تتصرف للبحث عن ابن عمك »

فوقف عبد الله ثم جثا بين يدي عمرو يهم بتقبيل يده وقال « لقد غمرتني بفضلك فما أنا مستطيع الشكر على نعمتك » والتمس الخروج فاذن له

وخرج أيضاً أبو خولة وهو يكاد يطير فرحاً لما آنس من كرامة عمرو . وسره النصيب الجديد لابنته فسار تواً الى المنزل وكانت خولة جالسة هناك على مثل الغضى تتقاذفها الهواجس بعد أن تحققت نجاة عمرو وعلمت بما فرضه من زواجها بعبد الله . وهي مع حبها له تفضل البقاء على حب سعيد وهو أول من وقع في نفسها موقع الحبيب في أحوال قضت بذلك فلما كان المساء وأبطأ والدها في الرجوع الى البيت انشغل بالها ولبثت تنتظر عودته بفارغ الصبر لعلمها انه لا بد من مروره بعمرو على اثر ما كان من

بجانه في ذلك اليوم . وحسبت لابطائه الف حساب . وأشد ما خافته من ذلك الابطاء أن يكون سببه المداولة في أمرها وأمر عبدالله وهي لاتريد ذلك

الفصل الرابع والثمانون

البشارة الغير السارة

فلما انقضى العشاء ومضى بعده ساعتان سمعت قرع الباب وعلمت انه قرع والدها فدق قلبها دقات متسارعة وعلت وجهها صفرة الوجل فظلت مستلقية على الوسادة في غرفتها ولم تمض برهة حتى فتح باب الدار . فتحول والدها تواً الى غرفتها فقرعها فنهضت لتفتح له وركبتاها تصطكان من الاضطراب . فلما فتحت له الباب دخل والمصباح في يده فوضعه على مسرجه وجلس اليها وعلى محياه امارات البشر والسرور وهو يحسب نفسه جاءها ببشرى عظيمة . فرآها مضطربة الحواس قلقة الخاطر مع انها كانت تحاول التجلد ولكن القلق والاضطراب غلبا عليها فقال لها « ما بالك يابنية ما الذي أزعجك »

قالت « لا يزعجني شيء ولكنني قلقت لغيابك وانا وحدي في هذا البيت لا ارى فيه احداً غير الخدم »

قال وهو يبتسم « لقد دنا الوقت الذي لا تكونين فيه وحدك »

فتجاهلت مراده وقالت « يظهر انك علمت بما أقاسيه من الوحدة فعولت على ان لا تتركني وحدي »

فضحك لسذاجتها وقال لها « ليس هذا قصدي يا خولة ولكنني أذكرك باقتراح الامير الذي اطلعتك عليه منذ بضعة ايام فانه قد تم اليوم بعد ان صدق قول عبد الله الاموي فجمعني عمرو به الليلة في داره فرأيته شاباً جميلا عليه مهابة الامراء وقد ترين الشجاعة والانفة تتجليان في وجهه ويكفي ان عمراً سحر به وبالغ في اطرائه أمامي . فهذا هو خطيبك ومتى كتب الكتاب طبعاً لا تكونين وحدك »

ولم يتم كلامه حتى صبغ وجهها احمرار الخجل وظلت صامتة ثم اخذ العرق ينسكب عن جبينها كاللؤلؤ المنثور وهي مطرقة لا تفوه بكلمة

ولم يكن سبب اضطرابها مجرد الخجل كما ظن والدها ولكنها اصبحت آلة تتقاذفها الهواجس حائرة بين أن تطيع عواطفها او تطيع والدها واميرها . ولو انها لم تبعث الى سعيد بخبر حبها له مع بلال لكانت المعضلة أقرب الى الحل واذا رفضت عبد الله رفضاً باتاً تغضب عمراً ووالدها . وهي مع ذلك لا تدري مصير سعيد ولا ما آلت اليه مهمته بعد خروجه من الفسطاط مع بلال ولم ترَ حلاً غير الاصطبار فصبرت حتى يعيد والدها السؤال فتستمهله

أما هو فلما آنس فيها ذلك الاضطراب حمله محمل الخجل وهو عادي في الفتيات في مثل هذه الحال . فوضع يده على شعرها المسدول على كتفها وقال لها « لا تخجلي يا بنية ان والدك يخاطبك وليس أحد سواه وقد تم الامر على يد الامير وهو شرف كبير لنا كما تعلمين »

فاجابت وهي لا تزال تنظر الى الارض وقالت « وهل ضرب لذلك أجلا »

قال « لقد ضرب أجلا لذلك أسبوعاً »

قالت « فليكن ثلاثة اسابيع على ما أرى »

قال « ما الداعي الى هذا التأجيل فاني أخاف أن يغضب عمرو . فاطيعيني وأنا حامل تبعة ذلك . فان عبد الله شاب يندر مثاله وأنا أفتخر بمصاهرته وليس هناك محل للاعتراض » قال ذلك وفي كلامه نغمة الجفاء على عادته معها اذا اراد الاصرار على أمر . فخافت اذا جادلته ان لا تحسن العقبى فسكتت ثانية وأظهرت الارتياح . فلما رآها كذلك قال لها « بورك فيك يا بنية وبعد اسبوع تكون كتابة الكتاب وتتم معدات الزواج »

فظلت ساكتة وقد عولت على اتخاذ وسيلة أخرى للتأجيل

الفصل الخامس والثمانون

الخطبة الجديدة

أما عبد الله فانه خرج من محبسه يلتمس مكاناً يقيم فيه ولم يكد يخرج من دار الامير حتى ادركه بعض رجال عمرو وناداه فعاد . فقال له « والى أين »

قال « اني ألتمس مكاناً أقيم فيه »

قال « لقد أوصانا الامير ان نعد لك منزلا في داره فانك ضيف عليه

فازداد عبد الله امتناناً من عمرو وفرح بتلك الدعوة لانه غريب لا يدري كيف يذهب . وتبع الرجل الذي كلمه الى غرفة فيها فراش وغطاء وبعض الآنية وسأله هل يحتاج الى طعام فاعتذر وسار تواً الى فراشه

ولما خلا بنفسه جعل يفكر بنجاته وصورة ابن عمه سعيد لم تبرح من مخيلته طول ذلك الليل . على انه اطمأن على حياته ولكنه مال بكليته الى استطلاع خبر مهمته ليدرى ما تم للامام علي

وكانت ذكرى خولة تعترض هواجسه وود لو يراها ليستطلع ما يكون من حظه معها ولكنه لما تذكر اطناب عمرو بها تحقق لياقتها على انه ما زال مشتاقاً لرؤيتها

ولما أصبح سار الى المسجد فصلى الصبح وهو يتوقع أن يرى والد خولة لعله يدعوه الى منزله فيتخذ ذلك وسيلة لرؤية خولة ولو خلسة . وكان والد خولة قد مر بالجامع في ذلك الصباح عمداً لهذه الغاية فلقيه فسلم عليه ودعاه للعشاء فقال له « اني في ضيافة الامير ولا يليق بي قبول الدعوة الا بعد استئذانه »

فقال « أنا استأذنه عنك »

قال « حسناً » وافترقا . فمشى عبد الله في شوارع الفسطاط واسواقها فمر ببيت خولة وهو لا يعرفه . وكانت خولة قد أصبحت في ذلك اليوم

وهي لا تزال قلقة البال فخرجت تمشي في الدار فوقع نظرها على عبد الله وهو مار ولم تكن رأته بل ذلك الحين ولكنها استنتجت من لباسه وقيافته مع مشابهته سعيداً انه هو عبد الله خطيبها فاختلج قلبها في صدرها ونفرت لاول وهلة ولكنها أرادت أن تتبين حاله فتفرست فيه وهو ماش فرأته معتدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيته وسرت به لمشابهته بسعيد ولكنها ما لبثت أن نفرت منه لما تذكرت أنه سيحرمها من حبيبها ومازالت تتبعه بنظرها حتى توارى ولم يتنبه

الفصل السادس والثمانون

الزيارة الاولى

عادت خولة الى غرفتها وهي منقبضة النفس وقضت نهارها لم تذق طعاماً ولما كان الغروب آن زمن رجوع والدها من شغله وكان الخدم قد أعدوا المائدة له ولضيفه وخولة لا تدري . وما عتم أن دخل الدار وتنحنح على جاري عادته كأنه ينبه أهل المنزل الى مجيئه . فتظاهرت خولة بارتياحها لقدومه ولكنها عولت على التمارض على انها ما لبثت أن رأت مع والدها شاباً عرفت انه عبد الله فخفق قلبها وغلب عليها الاضطراب وتوارت في غرفتها وقد بردت اطرافها

وأما والدها فانه ذهب بضيفه الى غرفة الضيوف فتركه هناك وجاء الى خولة فرآها مستلقية على الفراش وقد امتقع لونها فتحفزت للنهوض وهي تتظاهر بالضعف . فقال « ما بالك يا خولة »

قالت « لا بأس علي غير اني أشعر بانحطاط وانحراف لا أدري سببهما

فدنا منها وهمس في اذنها قائلا « ليس ثمة داع الى الانحطاط وقد جاءنا ضيف عزيز »

قالت وهي تتجاهل « مالي وللضيوف اني لا أستطيع النهوض ولا يطلب مني ملاقاة الضيوف »

قال « اننا لا نكلفك ملاقاتهم ولكن هذا الضيف أصبح من أقربائنا ولا بأس من ملاقاته عملا بأمر الامير عمرو بن العاص »

فقالت « ولكنني منحطة القوى . دعني أنام الآن وسألاقيه في فرصة اخرى وأنا صحيحة ان شاء الله »

قال « ولكنني كنت أظنك اكثر رغبة مني في رؤيته بعد أن قصصت عليك أمر خطبته لك . أيليق بنا بعد هذه الخطبة أن نظهر له هذا الجفاء »

فتحيرت خولة ولم تدر بماذا تجيبه وهي تخاف غضبه لما تعلمه من سوء خلقه وسرعة حمقه فظلت صامتة

فأمسكها بيدها وأنهضها فوقفت بالرغم عنها وسارت في أثره وهي مطرقة فلما وصلا الى باب الغرفة وقف بها وقال لها « ضعي خمارك على رأسك وانزعي هذا الذبول واستقبلي الرجل بما يليق بأمثالك لئلا يبلغ عمراً عنا ما يدل على مخالفة رأيه فتقع تحت طائلة غضبه »

فرأت خولة من الحكمة أن تتجلد وتتصبر لئلا يحمق والدها فيسمعها ما يكدرها فخفت الى خمارها فوضعته على رأسها وأصلحت ثيابها بما يليق ان تقابل به الضيوف وخرجت في أثر والدها حتى دخلا على عبد الله

الفصل السابع والثمانون

الزفاف الكاذب

وكان عبد الله قد لحظ من ابطاء أبي خولة في غرفتها انه يستدعيها فأصبح مشتاقاً الى رؤيتها وهو لا يطمع أن يرى وجهها دفعة واحدة لما كان يتوقعه من حيائها ولكنه قنع بأن يرى قامتها ومجمل حالها . فلما أشرفت على الغرفة وتبين جمالها واعتدال قوامها انفتح قلبه لها وحمد الله لتوفقه الى مثلها بعد نجاته من الموت . فدخلت وحلت بما يجدر بمثلها في مثل هذا المقام وجلست على وسادة بجانب والدها . وكان عبد الله يسارق اللحظ اليها فلا يزداد الا اعجاباً ولم تمض تلك الليلة حتى علق بها ووقعت

من نفسه موقعاً سامياً لما آنسه من جمالها مع ما بدا له من ذكائها وتعقلها في اثناء الحديث مما يندر مثاله في امثالها من ربات الخدور . فخرج بعد العشاء وقلبه منشغل بخولة وقد ندم لتأجيل الاقتران

قضى عبد الله في مثل ذلك بقية الاسبوع وهو يتردد على بيت خولة ويزداد تعلقاً بها . ولم يصدق ان آن يوم الزفاف . فدعاه عمرو اليه وقال « أريد أن أعقد لك عليها في داري وتقيمان عندنا حتى يتراءى لكما مفارقتنا » فعل عمرو ذلك التماساً لما عزم عليه من استجلاب عبد الله الى جانبه . فسر عبد الله بذلك وأثنى على الامير ولما كان الوقت المعين زفت خولة الى عبد الله وكتب كتابها عليه على جاري العادة يومئذ وعبد الله اكثر الناس سروراً بهذا النصيب ولولا ما يجول في خاطره من سعيد وغيابه مع قلقه على حال الامام على لعد نفسه من أسعد خلق الله لانه آنس في خولة ما طالما تاقت اليه نفسه في النساء من التعقل والرزانة مع الجمال والذكاء

ولما فرغوا من العرس وارفض الاجتماع ادخلوا العروسين الى غرفة خاصة بهما

الفصل الثامن والثمانون

كشف النقاب

فلما خلا عبد الله بخولة تقدم لنزع الغطاء عن وجهها فامسك النقاب ورفعه فاذا بها قد أعادته الى ما كان عليه فظنها تداعبه على سبيل المزاح فضحك وقال لها « يظهر انك لا تحبين عبد الله »

قالت وهي مطرقة « يعلم الله اني لا أكرهه »

فمد يده الى النقاب ثانية وحاول رفعه فمنعته . فاشتبه في أمرها فامسك يدها وقال بلهجة الجد ونغمة المحب العاتب « ما بال خولة تمنعنا مما أحله لنا الشرع ودعانا اليه القلب »

وكانت خولة واقفة بجانب الفراش فابتعدت عنه وأسندت ظهرها الى

الحائط وهي تبالغ في ارسال النقاب وظلت مطرقة ولم تبد جواباً

فاستغرب عبد الله سكوتها وتمنعها على هـذه الصورة وظن في الامر خديعة فأظهر الجد وتبعها وهو لا يزال قابضاً على يدها حتى وقف بجانبها وقال لها « ما الذي أراه يا خولة ؟ ما الذي تحدثك به نفسك ؟ ان كنت انما تفعلين ذلك لمجرد الحياء فهو غلو لا محل له وقد عقد كتابنا بحضور أمير مصر ونخبة الاعيان والامراء . وان كنت رضيت بي مكرهة وأنت تحبين سواي قولي »

فلما قال ذلك رفعت رأسها اليه وجذبت يدها من يده بلطف وقالت « نعم اني أحب سواك ولـكنني قلت لك اني لا أكرهك بل احبك محبة الاخ لا محبة الزوج »

فبغت عبد الله وعلته الدهشة وكاد الغضب يغلب عليه لو لم يصبر نفسه ريثما ينكشف له سبب تمنعها . فنظر اليها نظر الغاضب وقال « لقد رأيت منك العجب وأعجب ما أراه احتقارك اياي بما لم أكن أتوقعه منك بعد أن كتب الـكتاب . هلا كشفت لي عن سبب ذلك ؟ »

قالت وقد أمسكت النقاب وأزاحته عن وجهها « اني لا أعتبر هـذا الحجاب واجباً بيني وبينك ولا أنا خائفة من اطلاعك على ما في ضميري ولـكنني أسألك سؤالا اذا اجبتني عليه بحت لك بسر الامر »

فمال بكليته اليها وقد اعجبته جسارتها وحريتها ولم يزده كشف النقاب الا احتراماً لها فقال « اسألي فاني مجيبك »

قالت « كيف رضيت بعقد قرانك وابن عمك غائب »

فقال « وأي ابن عم تعنين »

قالت « اعني ابن عمك سعيداً الذي جئت معه الى الفسطاط ألا يهمك أن تعرف ما آلت اليه حاله »

الفصل التاسع والثمانون

استطلاع السر

فاستغرب ذلك منها ولم يكن يعلم اطلاعها على شيء من ذلك فقال « من أين لك أن تعرفي ابن عمي وما جئت من اجله الفسطاط »

فنهدت وقالت « عرفته بقدر من الله واني اعجب من نسيانك تلك المهمة التي جئتما من أجلها . هل تظن الامام علياً نجا من القتل ؟ »

فازداد عبد الله استغراباً ونسي ما كان يعد به نفسه من قربها وهاجت به اشجانه وتذكر ابن عمه فقال « لقد اذهلتني يا خولة بما سمعته منك فافصحي عما في ضميرك واخبريني كيف عرفت ابن عمي وما العلاقة بينه وبين تمنعك الليلة »

قالت « أتعدني بالكتمان وحفظ الذمام »

قال « نعم أعدك وعداً صادقاً فافصحي إذ لم يبق لي صبر على هذه الرموز »

فنهدت وعلت وجهها حمرة الخجل وهمت بالكلام فارتج عليها وعبد الله يتأمل ملامحها ويراقب ما يبدو منها وظل صامتاً فلم يسمع منها شيئاً . فقال لها « بالله لا تطيلي السكوت فقد نفد صبري قولي ما بدا لك فرجي كربتي »

قالت « أقول ولا اخشى لوماً اني أحببت سعيداً قبل أن أراك وهو أحبني على ما أظن وحبنا مؤسس على اشتراكنا في الاستهلاك بسبيل الامام علي . وقد سار سعيد غد الليلة التي اغرق بها عمر اصحاب عين شمس وهو يظنك في جملة الغرقى . ولا أظنه اذا عرف بقاءك حياً الا طائراً من الفرح » وقصت عليه حديثها مع سعيد من أوله الى آخره

ولم تكد خولة تتم حديثها حتى استولت الدهشة على عبد الله وخيل له انه في منام ولما تحقق ان خولة تحب سعيداً وقد آنس منها ذلك الثبات في حبه أحس لساعته انه لم يبق له حق في زواجها وازدادت هي رفعة في عينيه

فقال لها « اعلمي يا خولة اني من هذه الساعة اعدك أختاً لي واني مساعد لك على اقترانك من سعيد فانه بمنزلة أخي . وقد اوصيت بكفالته وصية مقدسة وقد احسنت بما بسطته من حقيقة حالك وعليه فاني مسافر في الغد الى الكوفة لابحث عنه واستطلع ما تم للامام علي مع ذلك الغادر »

الفصل التسعون

الوفاق التام

فابتدرته خوله قائلة « لا تعجل يا عبد الله ان ذهابك ذاهب عبثاً لانا لا نلبث بعد قليل أن نسمع الخبر من عبدي بلال الذي رافق سعيداً الى الكوفة فقد اوصيته بالعودة حالا وأظنه يصل الينا بعد ايام . وأما الآن فاكتم ما دار بيننا واجعل انك زوجي ريثما نرى ما يكون »

فالتفت عبد الله اليها وقد ازداد اعجاباً بحميتها وثبات جأشها وقال « انى اهنىء اخي سعيداً بهذا النصيب وأرجو ان يكون قد نجا من مكايد أولاد الحرام » أراد بذلك قطام فانه ما زال يسيء الظن بها وقد ادرك انها هي التي وشت بهما الى عمرو بن العاص

فقالت « اني اتوقع رجوع بلال لاسمع منه ما آلت اليه حال الامام علي ومعاوية هل نجا احد منهما . اما عمرو فقد نجا والفضل في ذلك راجع اليك ... »

فقال « ولكنك تعلمين اني انما بحت بذلك لعمرو التماساً للبقاء ولم اذكر له المؤامرة على قتل معاوية لئلا يبعث اليه بمن يحذره فينجو »

قالت « اني لم أملك قط ولكن هذه ارادة المولى . فالآن لابد من التربص فامض الى فراشك واني متوسدة هذا البساط »

قال « لا والله انك لا تبيتين الا على الفراش وأنا أولى بهذا البساط »

وباتوا تلك الليلة وقد سرت خولة بنجاتها مما كانت تخافه . وأما عبد الله

فانه بات معجباً بخولة كل الاعجاب وقد أسف لخروجها من قبضته بعد أن عرف فيها هذه الخصال . ولكنه لم يأسف لانها ستكون نصيب أخيه وقضيا تلك الليلة بأمثال هذه الهواجس ولم يناما الا قليلا

وأصبحا في اليوم التالي والناس لا يعلمون الا انهما زوج وزوجة وظلا مقيمين في دار الامير حتى قدرت خولة دنوالوقت الذي كانت تتوقع رجوع بلال فيه فالتمست المضي الى بيت والدها مخافة أن يأتي بلال في أثناء غيابها فيطرده والدها أو يتهدده ولا يراها هناك فيعود من حيث أتى

فوافقها عبد الله واستأذنا عمراً في الذهاب الى هناك فاذن لهما فاستقبلهما والدها بالترحاب

الفصل الحادى والتسعون

قدوم بلال

ولم يمض يومان على مكثهما في بيت خولة حتى قدم بلال وكان وصوله الفسطاط في أثناء النهار ووالد خولة في حانوته ودخل بلال الفسطاط متنكراً فمر بحانوت سيده ونظر اليه خلسة فاذا هو هناك فهرول الى البيت ودخل تواً الى غرفة سيدته بلا استئذان فوجد عندها شاباً لا يعرفه ورآها بجانبه كأنها جالسة الى شقيق أو قرين . فبغت لذلك ولكنه اشتغل بما آنسه من ترحابها به فقالت له « اغلق الباب وادخل » ففعل ودنا منهما وهو ينظر الى عبد الله شزراً . فادركت خولة ما يجول في خاطره فقالت له لا تسيء الظن ان هذا أخي بعهد الله فاقصص علينا خبرك سريعاً وقل لنا أول كل شيء كيف فارقت الامام علياً »

فسكت ولم يجب

فالحت عليه وقد علتها البغتة

فاجابها بصوت مختنق « ان علياً قد ذهب ضحية الخائن »

فصفقت خولة كفاً بكف وصاحت « والهفي عليك يا أبا الحسن » وقال

عبد الله مثل ذلك . ثم قالت « وما جرى لابن ملجم » قال « انه قتل شر قتلة لعنه الله »

فقال عبد الله « وكيف فارقت سعيداً »

قال « فارقته بخير وعافية وقد سار للبحث عن تلك الخائنة اللعينة »

قال عبد الله « أو تعني قطام »

قال « نعم وما ادراك أني أعنيها وكيف عرفتها يامولاى »

قالت خولة « ألم تعلم من هذا الشهم »

قال « كلا »

قال « ألم يذكر سعيد امامك انه فقد ابن عمه هنا »

قال « بلى »

قالت « هذا هو ابن عمه عبد الله »

فبهت بلال وغلب عليه البكاء من الفرح وصاح « انت حي يامولاي ... آه من لي بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك . والله اني حاملها اليه الساعة بعد أن أسر الى سيدتي كلاماً اؤتمنت اليه »

الفصل الثاني والتسعون

ابلاغ الرسالة

فالتفتت اليه وقالت « قل يابلال ليس على عبد الله سر وهو أخي كما قلت لك . قل كيف فارقت سعيداً »

قال « فارقته يامولاتي وهو مشتاق لرؤيتك ولم يأت معي مخافة أن يكون أميرنا نجا من المكيدة فلا يأمن على حياته . وقد علمت وأنا مار في الفسطاط الساعة انه نجا وقتل غيره خطأ ولا أدري كيف حال سيدي والدك معك فلا آمن عليكما منه »

قالت « اعلم يابلال ان عمراً نقم على ابن ملجم ورضي عني وهو يحبني حبه لاولاده . أما سعيد فلا هو يعرفه ولا والدي رآه فاذا جاء لم يكن

عليه بأس وشأنه في الفسطاط شأن كل غريب يدخلها . فاقصص علينا خبر ابن ملجم والامام علي وكيف قتلا » وأمرته بالجلوس فجلس متأدباً وقص عليهما الخبر بتفاصيله . فلما بلغ الى حديث قطام وما أرادته من قتل سعيد هاجت في نفسها حاسة الغيرة والانتقام وقالت « قبح الله هذه المرأة اني أعرفها وأسمع بدهائها فكيف انطلت حيلتها على سعيد »

فابتدرها عبد الله قائلا « إني والله توسمت فيها الشر منذ رأيتها » وقص عليها ما كان من أمره معها . فانكشفت لهما الحقيقة وشكرا الله على نجاة سعيد ولكنهما أسفا على مقتل الامام علي ثم استدركت في حديثها فقالت « وهل سمعت شيئاً عن معاوية ومقتله »

قال « لقد مررت بدمشق في طريقي فعلمت انه نجا أيضاً . وقص عليها خبره كما سمعه فعجبت لمجاري القضاء كيف سمحت بقتل الامام علي وبقاء معاوية وعمرو

فقال عبد الله « وأين سعيد الآن »

قال « هو في انتظاري بدمشق فاذا أمرت مولاتي عدت اليه حالا وجئت بها على عجل وأرجو ان يكون قد ظفر بتلك الخائنة وانتقم منها واذا لم يظفر هو بها لست تاركها حتى انتقم منها فقد هاجت دمي بما ارتكبته من الخيانة »

قالت خولة « بورك فيك يابلال فعليك الآن أن تستقدم سعيداً على عجل »

فقال « وهل آتي به الى هذا البيت »

فاستصوبت خولة سؤاله لان مجيئه الى بيت والدها يوجب العراقيل فنظرت الى عبد الله كأنها تستفتيه في الامر فاشار اليها أنه يريد البحث في ذلك سراً

فالتفتت الى بلال وقالت له « اخرج الآن قبل أن يأتي والدي وهو ناقم عليك لاعتقاده انك فررت بالجاين من داره وانتظر عبد الله في المسجد الليلة وهو ينبئك بما تفعله »

الفصل الثالث والتسعون

العزم على الكوفة

فخرج وبقي عبد الله وخولة على انفراد فقالت خولة « وما العمل يا عبد الله أخاف اذا جاء سعيد وأردنا فسخ عقدنا أن ينفتح علينا باب للأخذ والرد ونحن نود كتمان الامر فما الرأي »

قال « أن نلتمس من عمرو الخروج من الفسطاط والذهاب الى الكوفة فقد كنت التمست منه السفر فاخرني الى ما بعد كتابة الكتاب . فهم لا يعرفون الآن الا انك امرأتي والرجل يذهب بامرأته الى حيث شاء . فاذا سرنا الى الكوفة وأوصينا بلالا أن يوافينا بسعيد الى هناك تنازلت له عنك وعقدت له عليك ولا رقيب علينا ولا واش . واذا طاب لنا العود الى الفسطاط عدنا بعد ذلك والا فاننا نمكث في الكوفة الى ما شاء الله »

فصمتت خولة برهة وهي تفكر في الامر فرأت رأي عبد الله مصيباً فقالت « نعم الرأي رأيك ولكنني تعودت الفسطاط وألفت الاقامة في وادي النيل ولي فيه الاهل والاصدقاء فاذا أتيح لي البقاء فيه كان ذلك افضل لي وابقى »

قال « لا انكر عليك ذلك وهو ميسور لك فيما بعد وأما الآن فلا أرى خيراً من الذهاب الى الكوفة »

قالت « وأخشى مع ذلك أن لا يأذن والدي بذهابنا الى هناك اذهو عالق بي وليس له سواي فلا أخاله الا ملحاً علينا بالاقامة هنا »

قال « اننا نطاوله ونماطله حتى يأذن بانصرافنا ولو بعد حين ونوصي بلالا أن يخبر سعيداً بالتربص في الكوفة ريثما نأتيه ولو ابطأنا »

قالت « افعل ما بدا لك والله الموفق في كل حال »

وقال فلنعد الآن الى دار الامير ومتى كنا عنده كان خروجنا من

الفسطاط سهلا لانه هو الذي وعدني باخلاء سبيلي للبحث عن ابن عمي سعيد فأذكره بوعده ولا أظنه الا مؤذناً بانصرافي معك »

قالت « ولكننا نبيت الليلة هنا ونصبح الى دار الامير »

قال « حسناً » ولما كان العصر خرج الى المسجد فوجد بلالا في انتظاره فأوصاه ان يذهب بسعيد الى الكوفة ويتربص به هناك حتى يأتيا اليهما

فانبسط وجه بلال وابتسم ثم قال « ان هذا ما كنت أرجوه من مولاي لانني اذا كنت في الكوفة توفقت الى الانتقام من قطام اللعينة »

فضحك عبد الله وقال « وأوصيك اذا أنت ظفرت بها ان لا تعفو عن عجوزها لبابة فانها قهرمانة شريرة »

الفصل الرابع والتسعون

دعوة غريبة

أما عبد الله فلما رأى نفسه بباب المسجد والصلاة قائمة والناس يدخلون أفواجاً فدخل في جملة الداخلين . فرأى عمراً على المنبر يعظ الناس وهم صامتون فوقف حتى فرغ عمرو من خطابه وانقضت الصلاة فتحول للخروج . ولم يكد يتحول من صحن المسجد حتى اعترضه بعض الشرطة قائلا « تمهل يامولاي ان الامير يستوقفك لامر يريد ان يخاطبك بشأنه »

فقال « وأين هو الامير »

قال « كان في المسجد كما رأيته وقد تحول الآن الى داره من باب في المحراب »

قال « وهل هو يريد مقابلتي الآن »

قال « نعم »

فاضطرب عبد الله لذلك الطلب وخاف ان يكون مبنياً على مخاطبته بلالا اذ ربما كان احداً عارفاً بمهمته أو غير ذلك . ولكنه مشى حتى اقبل

على مجلس عمرو وكان اذا وصل المجلس دخل بلا استئذان . فلما همّ بالدخول اعترضه الحاجب قائلا « تمهل ريثما نستأذن لك » فوقف عبد الله ودخل الحاجب ثم عاد فاستفهم عن الجواب فقال « ان الامير يريد الخلوة بك على انفراد هذه الليلة فاذا اتيت في العشاء تعال وحدك »

فاستغرب عبد الله ذلك الشرط وأشكل عليه المراد منه فاستزاد الحاجب ايضاحاً « هل المراد أن يأتي وحده بمعنى ان لا تكون خولة معه »

قال « اظن هذا هو مراده فانه قال ليأت وحده لكلام سألقيه اليه على انفراد »

فعظم الامر على عبد الله وحسب لذلك الف حساب . ولم تكن الشمس قد مالت الى الغروب فعاد الى البيت والهواجس تتقاذفه وظهرت عليه أمارات الانقباض فلما أقبل على خولة ورأت على وجهه آيات الاضطراب ابتدرته قائلة « ما بالك يا عبد الله ما الذي غير وجهك اني أراك متغيراً وأرى في وجهك انقباضاً قل رعاك الله ما اوجب ذلك »

قال وهو يحاول التجاهل « ليس فيّ شيء مما تقولينه لكن يظهر اني تعبت من سماع العظة في المسجد وملات من مسافة الطريق وليس ذلك من الانقباض في شيء وكيف ينقبض عشيرك وأنت مصدر السعادة وينبوع الهناء »

فلم تقنع بقوله ولكنها سكتت على أن تستطلع السر بعد قليل بلباقة . وغيرت الموضوع فقالت « وهل رأيت بلالا »

قال « نعم وقد أوصيته بما يقوله لسعيد »

قالت « وهل سافر »

قال أظنه يستريح الليلة خارج الفسطاط ويرحل في الغد باكراً »

وفيما هما يتحادثان جاء والدها فدخلوا جميعاً وعلى وجه والدها ظواهر الغضب وكانت خولة تعرف غضبه بمجرد النظر الى وجهه . فلما رأته كذلك زاد اضطرابها وجعلت تفكر في سبب غضب الاثنين . فخطر لها انهما تخاصما ولكنها لم تكن تجد سبباً لذلك . ولم تجسر على سؤال والدها ولا أرادت

الالحاح على عبد الله في الاستفهام فتركت ذلك الى الاختلاء به

وبعد قليل مدت المائدة فجلسوا اليها وليس فيهم من يتكلم كلمة الا ما تدعو اليه الحال من طلب شيء أو الاستفهام عن شيء يتعلق بالطعام ونحوه

الفصل الخامس والتسعون

غرفة عمرو

وكان عبد الله لما جلس الى المائدة لم يغير ثيابه كالعادة فلما نهضوا عن العشاء أخبر خولة ووالدها انه منصرف في حاجة تقتضي غيابه ساعة . وكأن طلبه هذا جاء طبق ما يرجوه ابو خولة فلم يسأله عن سبب ذهابه ولا استدعى سرعة رجوعه

فازدادت خولة حيرة وظلت ساكتة ولم يخطر لها أن لذهاب عبد الله علاقة بما بدا لها في وجهه من الانقباض . ولكنها رافقته الى باب الدار وتوسلت اليه ألا يطيل الغياب . فاجابها انه لا يدري ساعة رجوعه لانه لا يعلم ما يكون من دواعي تأخره ولم يشأ ان يبوح لها بسبب ذهابه ولا ترك لها فرصة الاستفهام فودعها وخرج وهو يسرع في مشيته وأفكاره تائهة في ما عساه أن يكون غرض عمرو من دعوته على هذه الصورة

ولما وصل دار عمرو خفق قلبه مخافة أن يسمع من الحاجب خبراً جديداً يزيد بلباله فلم يكلمه الحاجب الا بقوله ان الامير ينتظرك في غرفته الخصوصية

فمشى عبد الله الى تلك الغرفة وهو يقدم قدماً ويؤخر اخرى حتى وصل الى الباب فاذا هو مغلق ففرعه ووقف ينتظر فتحه ثم سمع خطوات تسرع نحو الباب يتخللها همس لم يفهم منه شيئاً . وبعد هنيهة فتح الباب فاذا بعمرو نفسه يفتحه بيده فبغت لما رآه أمام عينيه وعلى وجهه دلائل الغضب . فحياه عبد الله فلم يزد عمرو على قوله « وعليك السلام » وسار الى صدر الغرفة فتبعه عبد الله وهو ينظر الى جوانب المكان لعله يرى فيها

أحداً . فلم يجد فالتبس عليه الامر لما سمعه من الهمس وهو واقف خارجاً . ولكنه رأى في بعض جدران الغرفة باباً عليه ستار وان ذلك الباب يستطرق الى غرفة أخرى فظن بعض نسائه كانت عنده فلما علم بقدومه صرفها من الباب الآخر واستقبله

وكان عبد الله يفكر في ذلك وهو ماش في أثر عمرو حتى جلس عمرو على مقعده فوقف عبد الله بين يديه ينتظر أمره بالجلوس فاشار اليه فجلس على وسادة بالقرب منه وهو ينتظر مايقوله وقد نفد صبره

الفصل السادس والتسعون

الاستنطاق

فصبر عمرو لحظة وفي يده درة (سوط) يلاعبها بين يديه كانه يتشاغل بها عن قلق يخامر ذهنه ففتح عبد الله الحديث قائلا « كيف حال مولاي الامير وما الذي يأمر به عبده فقد لبيت دعوته وأنا راج أن يكلفني أمراً اقضيه له جزاء لبعض ماله على من الفضل »

فالتفت اليه عمرو وهو يمشط لحيته بانامله وقال « انما دعوتك لاسألك سؤالا واحداً وأرجو أن تصدقني في الجواب عليه بما احسبني اجزلته لك من الجميل وأبقيت عليك بعد أن رأيت الموت رأي العين »

فوقف عبد الله احتراماً وقال « يعلم الله اني لاأنسى جميلا أوليتني اياه باغضائك عن جريمة اقترفتها ثم بانعامك على بحياتي وهي خير هبة فكيف لاأصدقك القول » قال ذلك وقلبه يخفق خوفاً من سماع ماقد يكون سبب نقمته عليه

فاقعده عمرو وقال « بلغني اليوم من مطلع على أحوالك انك انما جئت الفسطاط مع رفيقك سعيد للفتك بي فهل ذلك صحيح ؟ »

فنهض عبد الله ثانية وقال ولهجة الصدق بادية على وجهه « كلا يامولاي ان مابلغك من ذلك محض افتراء »

قال « وما الذي جاء بكما اذاً »

قال « أما وقد سألتني عن ذلك فاسمح لى أن أقول الحق وأرجو أن تثق بصدق قولى »

قال « قل الصدق ولا تبال فلا بأس عليك الا اذا رأيت في كلامك عوجاً فلا تلم الا نفسك »

قال « أقسم برأس الامير اني لاأقول غير الصدق ولكن حديثي طويل فهل ابسطه كله »

قال « أجبني أولا على سؤالى مختصراً فاذا رأيت مايدعو الى التفصيل طلبته. سألتك عما دعاكما الى المجيء للفسطاط والاجتماع بتلك الزمرة المعادية »

قال « انما جئت للبحث عن المؤامر على قتل الامام علي »

قال « ولماذا »

قال « لكي أبذل جهدي في زجره وانقاذ الامام من الموت »

قال « كيف تفعل ذلك وأنت أموي على ما أعلم »

قال « لقد الجأتني يا مولاي الى بعض التفصيل . ألم تعرف جدي أبا رحاب »

قال « بلى أعرفه وقد سمعت بوفاته قريباً »

قال « نعم انه مات وقد كان الى يوم مماته يكره علياً ويدعو الى قتله ولكنه في يوم مماته استحلفني واستحلف ابن عمي سعيداً ان لا نبغي شراً لعلي بل اذا رأينا سبيلا الى الدفاع عنه أن نفعل فلما سمعنا بالمؤامرة علمنا أن المؤامر على قتل علي من أهل مصر ولكنا لم نعلم من هو فجئنا للبحث عنه وردعه بالتى هي أحسن . ولم نر سبيلا لمعرفته الا بواسطة أصحاب عين شمس لانهم على دعوة علي »

فقال « ألم تكن عالماً أيضاً بمؤامرة رفيق ابن ملجم على قتلي »

قال « بلى ولولا ذلك لم أستطع اطلاعك عليه »

قال « وكيف انك لم تطلعني عليه حال قدومك ألا تعلم انك تعد بذلك مؤامراً على قتلي ؟ » قال ذلك ولحيته ترقص من شدة التأثر ولسان حاله

يقول لقد حجتك وأكدت خجيا تك

فقال « نعم اعلم ذلك ولكن حلمك قد وسعنى من قبل وعفوت عما مضى وغمرتني بانعامك فاذا رأيت أن تعود الى مطالبتى به كان لك الامر ولكنني لاأخال الامير عمرو بن العاص اذا عفا عن مذنب أن يرجع عن عفوه »

فلما سمع عمرو كلامه أفحم وسكت

وشعر عبد الله عند ذلك بقوة انبثت فيه وثارت الحمية في رأسه فهم أن يستأنف الكلام فابتدره عمرو قائلا « ولكن بلغني انك عرفت خولة قبل أن أخطبها لك وانها كانت عالمة بخبر تلك المؤامرة فكيف لما ذكرتها لك ليلة الخطبة تجاهلتها »

فارتبك عبد الله في الجواب وكاد يعثر لو لم يثبت جأشه وقد عول على الصدق فقال « حاشا يامولاي أن أخدعك فاني ورأسك وكل غال عندي لم أكن أعرف هذه الفتاة قبل أن ذكرتها لى وأمرت بان تكون زوجتى »

قال « وما تقول في سابق اطلاعها على خبر المؤامرة »

فتحير عبد الله في الجواب ولكنه فقه لباب يتخاص منه فقال « ذلك ليس لى أن أجيب عنه فان خولة جاريتك وهي تجيب عن نفسها . ادعها الى مابين يديك واسألها ولا أشك في أنها تقول الصدق . ولكنى أرغب الى مولاي أن يخبرني عمن وشى بنا اليه لعلنا نكذبه بين يديك »

قال « سأجمعكم جميعاً وأسمع احتجاجكم جهاراً فاذا سمعت أقوالكم جازيت كلا بما يستحقه . اذهب الى فراشك عندنا وغداً لناظره قريب » قال ذلك ونظر نحو الباب ونادى « ياغلام » فدخل رجل فقال له خذ عبد الله الى غرفة يبيت فيها الليلة وأتنى به غداً متى دعوته »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج عبد الله والحاجب يسير أمامه حتى دخل به غرفة في دار الامير التمس المبيت فيها ولكنه لم يغمض له جفن طول ذلك الليل

الفصل السابع والتسعون

الجلسة الخصوصية

وما أصبح عبد الله محير في هل يخرج الى الامير أم ينتظر أمره . ولبث جالساً حتى كان الضحى واذا بالحاجب قد جاء يدعوه الى مجلس الامير في غرفة خاصة غير مجلسه الاعتيادي فمشى وهو يفكر في ماذا عسى أن يكون من أمر تلك الجلسة ومن هو الواشي وهل تستطيع خولة الدفاع عن نفسها بما يضمن نجاتها

ولاحت منه التفاتة الى ساحة الدار فرأى هناك عبداً تذكر انه رآه ولم يلبث أن عرفه فاذا هو ريحان عبد قطام فاختلج قلبه في صدره وقال في نفسه انها والله وشاية هذه الخائنة وأظنها أرسلت عبدها الى عمرو كما أرسلته في المرة الماضية لعنها الله

وما زال ماشياً وهو يفكر في ذلك وقد تغيرت سحنته من عظم التأثر فرأى الحاجب دخل بابا فدخل هو في أثره فاذا هو مقبل على قاعة في صدرها الامير عمرو بن العاص كأنه جالس للقضاء وعليه جبة بيضاء وعلى رأسه عمامة كبيرة وقد قعد الارباء على وسادة من الدمقس وفي يده الدرة والسبحة معاً . فتقدم عبد الله تواً اليه فحياه ولم يلتفت الى سواه . فامره بالجلوس بيرود ظهر الفرق بينه وبين مقابلاته الاولى : فجلس عبد الله في بعض جوانب الغرفة وأرسل نظره فرأى الى جانبه عمه ابا خولة وعن يسار عمرو ثلاث نسوة قد أرسلن النقاب على رءوسهن فلا يظهر منهن غير العيون من ثقوب فيه . فعرف منهن خولة ولم يكن يجسر على التفرس بالاخريين حياء . فجلس وهو يسترق اللحظ ويفكر فخطر له ان احداهن قطام جاءت هذه المرة لقضاء حيلتها بنفسها . ثم ما لبث أن عرف الاخرى فاذا هي لبابة العجوز فتحقق انهما وشتا به وبسعيد . وكانت قطام قد أبطلت الحداد على والدها وأخيها بعد قتل الامام علي فارتدت كساء من

الحرير المزركش بالقصب صنع بلاد فارس أحمر اللون ناصعه لايستطيع لبسه الا الاغنياء وكان نقابها مزركش الاهداب بما يدل على بذخ وترف . وتصور عبد الله جمالها وفصاحتها وحيلتها فعلم انها غلبت على رأي عمرو وأقنعته أن عبد الله وخولة يستوجبان القتل او نحوه فأخذ يتأهب للجواب

ومضت برهة والكل صامتون وعمرو ينظر الى الارض والدرة في يده كانه ينكث البساط بها ويده الاخرى على لحيته يلاعب شعرات منها بين أنامله والاهتمام باد بين حاجبيه . ثم رفع بصره ونظر الى الباب ونادى غلامه فدخل فقال له « لاتستأذن لاحد بالدخول علينا ولا تدع أحداً يقترب من هذا الباب »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج

ثم التفت عمرو الى أبي خولة وقال « أهـذا جزاء التفاتى اليـك يا أبا خولة »

فوقف أبو خولة وقد بغت وقال « وما ذلك يامولاى . اني لاأعرفنى الا ملخصاً لك خادماً لمقاصدك »

قال « ربما كنت كذلك ولـكن خولة هذه (وأشار اليها) تواطىء الناس على قتلي وتسعى في انقاذ ابن أبي طالب »

فلما سمع أبا خولة قوله مشى مسرعاً حتى أمسـك ابنته وقال « انى لاأعرفها الا جارية من جواري مولاي فاذا ارتـكبت شيئاً من ذلك فانى أذبحها بين يديك ودمها هدر لك » قال ذلك وجذبها كأنه يريد ايقافها وتقديمها الى عمرو . أما هي فظلت جالسة ولم تبال

فقال له عمرو « عد الى مكانك ودعها تدافع عن نفسها فاني لا أريد أن أعاقبها الا بعد المحاكمة فاذا صح ماقيل عنها كان القتل أخف قصاصها »

فلما سمع عبد الله تلك اللهجة الشديدة اختلج قلبه في صدره وخاف عاقبة تلك الجلسة ولـكنه تجلد وصبر

الفصل الثامن والتسعون

دعوى قطام

• ثم التفت عمرو الى خولة وقال « ماتقولين ياخولة »

فوقفت وقالت بصوت راثق وجأش ثابت « ماذا أقول ياسيدي وأنا لاأعرف التهمة التي وشى بها اليك الواشون . فاذا سمعتها ذكرت لك الحقيقة ولك الامر بعد ذلك فاذا استوجبت القتل فما أنا خير ممن قتل من رجال الاسلام في هذه الفتنة ! ! »

فعجب عمرو لتلميحها الى أعظم ماحدث في تلك الاثناء فقال لها «مالك ولهذا الكلام يا خولة قولي ما جوابك على سؤالي »

قالت « اذا كان الامير حرسه الله قد جعل دمي حلالا ان ثبتت التهمة عليّ فليس أقلّ من أن أسمع نص الدعوى الموجهة اليّ »

قال « لقد صدقت وانى مطاوعك في جرأتك حتى تبدي كل مالديك من أساليب الدفاع ولا أظنك أخيراً الامقرة بجنايتك لانها ثابتة ثبوت النور في النهار اجلسي استريحي »

فجلست

فقال عمرو وقد وجه حديثه الى قطام « ما قولك ياقطام بخولة وما تعرفينه عنها »

وكانت قطام كما بينا في فصل سابق لما ارتاح بالها من أمر علي وقتله وعلمت مما دار بين خادمها وبين بلال خادم خولة انها تحب سعيداً وهي التي وجهت عبدها معه واستحثته في الوصول الى علي قبل انقضاء الاجل المضروب لقتله . فحملتها الغيرة وهاجها حب الانتقام وطاوعها خلق السوء الذي فطرت عليه أن تأتي الفسطاط تشي بخولة وسعيد وهي لاتشك انها تثبت الجناية عليهما فتتقرب بذلك من عمرو فتنال حظوة في عينيه فتقيم عنده مكرمة أو يتزوجها أحد أبنائه وكان عمرو يعرفها من ذي قبل . فاسرعت

الى الفسطاط ومعها عجوزها وعبدها فوصلت أمس وأسرعت الى عمرو وبشرته بمقتل الامام علي ووشت اليه بخولة وانها كانت مواطئة لسعيد على انقاذ الامام علي وانهما كان يعلمان خبر المؤامرة على عمرو وسكتا عنها وقد كان في امكانهما لو اخلصا الخدمة لعمرو ان يطلعاه عليها . فاغارها عمرو اذناً مصغية وبعث الى عبد الله كما تقدم . ثم رأى من الحزم أن يجمع الجميع ويسمع جدالهم ومدافعتهم قبل ابداء الحكم

فلما قالت خولة قولها في تلك الجلسة والتمس عمرو من قطام أن تبسط التهمة نهضت ومشت خطوتين نحو الامير وثوبها المزركش يجر وراءها تيهاً وبذخاً . ثم وقفت وقالت بلسان فصيح « اما مايسألني الامير عنه فلا احتاج في اثباته الى دليل . وتفصيل الامر ان مولاي الامير يعلم اخلاصي له ورغبتي في خدمته حتى انني حالما سمعت بمجتمع العلويين في عين شمس بعثت اليه رسولا يخبره بخبر ذلك الاجتماع . ولو لم اجد من أبعثه في تلك المهمة لجئت بنفسي . ولم أذكر هذا الشاهد الصغير الا دليلا على اخلاصي . اما خولة واطلاعها على خبر المؤامرة فأمر لا شك فيه لاني أعلم علم اليقين أن سعيداً ورفيقه هذا (وأشارت الى عبد الله) لما قدما الفسطاط كانا عالمين بخبر تلك المؤامرة وقد سمعت ذلك منهما باذني : وهما انما أتيا للاجتماع مع العلويين . وبعثت يومئذ عبدي بخبر ذلك الى مولاي الامير فلما عاد عبدي اخبرني ان جند الامير قبضوا على العلويين وان عبد الله وسعيداً في جملتهم ولم يكن يعلم ان سعيداً نجا بمساعدة خولة هذه . أما انا فاني عرفت ذلك لما عاد سعيد الى الكوفة مسرعاً لاطلاع علي بن أبي طالب على خبر المؤامرة غيرة منه عليه وقد ترك حياة الامير عمرو بن العاص في خطر القتل . وكان رفيقه في عودته بلالا خادم خولة هذه فانه صحبه الى الكوفة . فالتقى بهما هناك عبدي ريحان واتضح له من خلال الحديث ان بلالا وخولة عالمين بسر الامر . ولما لم ينجح مسعاها في انقاذ الامام علي قنعا بأن يكون مولاي حرسه الله قد أصيب بما أصيب به ذاك . ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه من مخالب الموت وحرسه بعين عنايته . فترى يا مولاي مما قدمته ان

خولة كانت عالمة بخبر المؤامرة كما كان يعرفهـا عبد الله وسعيد فلو كانت مخلصة لمولانا الامير ما كتمتها عنه »

فقال عمرو « وما الذي يؤكد لنا أن سعيداً وعبد الله لما اتيا الفسطاط كانا عالمين بالمؤامرة على قتلي »

وكانت لبابة العجوز صامتة الى تلك الساعة فلما طرح عمرو هـذا السؤال ابتدرته هي قائلة « لا شك انهما كانا عالمين لانهما أخبرانا بها ليلة سفرهما الى الفسطاط »

الفصل التاسع والتسعون

دفاع خولة

وكانت قطام تتكلم وخولة مطرقة تفكر بماذا تجيب . أما عبد الله فانه لعن الساعة التي اتت بها تلك الخائنة وخاف على خولة أن تتلعثم او تفحم لان الادلة قوية

أما والد خولة فلم يكد يسمع حديث قطام حتى استشاط غضباً وصاح في خولة بأعلى صوته « الله عليك يا خائنة لقد فهمت الآن تلاعبك ونفاقك » ثم التفت الى قطام وقال « واي متى لقي عبدك عبدي مع ذلك الرجل في الكوفة »

قالت « ليلة ١٧ رمضان »

فأطرق برهة ثم أقترب من خولة وجذبها بيدها الى وسط القاعة وقال لها بنغمة الانتهار « لقد انكشف لي القناع وعلمت سفر بلال كما تزعمين أرسلته مع حبيبك ليساعده على انقاذ ابي تراب (علي بن أبي طالب) وقلت لي انه فرّ بالجماين والظاهر انه اخذهما معه ليركب هو ورفيقه عليهما » ثم التفت الى عمرو وقال « ان ابنتي يا سيدي تستحق القتل اقتلها او دعني اقتلها بين يديك »

فوقف عبد الله للحال وقد ثارت فيه الغيرة على خولة وهو يظن سكوتها

خوفاً أوارتباكا لانه لم ير ملامحها من وراء النقاب فأمسك أباها بيده وقال برزانة وسكينة يخاطب عمراً « التمس من مولاي الامير الذي أمر أن تكون خولة زوجة لى أن يوقف أباها عند حده فهو الآن لايملك من أمرها شيئاً . أما اذا اقترفت هي ذنباً تستوجب عليه قصاصاً فالامر فيه لمولاي وليس لاحد سواه »

وكان عمرو قد اقتنع بثبوت الجريمة على خولة ولكنه أحب أن يسمع دفاعها ورأى عبد الله يتكلم بحق وعدل فقال لابي خولة « دع خولة فانت كما قال عبد الله لاتملك من أمرها شيئاً »

فتنحى أبوخولة وهو يلهث ويدمدم ولحيته ترتعش في صدره. وتنحى عبد الله أيضاً وخولة لاتزال واقفة . أما قطام فقد أزاحت خمارها فبان الابتهاج على وجهها لنجاح مهمتها

فقال عمرو « مابالك ياخولة لاتدافعين عن نفسك . أليس ماقالته قطام عنك صحيحاً ؟ هل كنت عالمة بخبر المؤامرة على قتلي »

قالت « نعم »

قال « وهل ساعدت سعيداً على انقاذ الامام علي فارسلت معه خادمك وجمليك »

قالت « نعم كل ذلك صحيح »

فتعجب عمرو وسائر الحضور من صراحة اقرارها وقد كانوا يتوقعون انكارها أو تلعثمها أو على الاقل سكوتها فلما رآها تجيب بهذه الصراحة قال لها « وكيف تظهرين هذه الغيرة على صاحب الكوفة (علي) مع علمك أن والدك لايريد ذلك ثم لايخطر ببالك أن تخبري والدك بخبر المؤامر على قتلي لكي يطلعني عليه . ألا تعلمين أن عملك هذا يعد خيانة تستوجبين عليها القتل . وها اني لا ازال أطيل بالى عليك لاسمع دفاعك فاخبريني أولا كيف تكونين على غير مايريده والدك وأمير بلادك . ثانياً كيف تسعين في انقاذ علي بن أبي طالب ولا تسعين في انقاذ أمير مصر »

وقبل أن تهم خولة بالجواب اعترضتها قطام قائلة « أرى مولاي الامير

يتعب نفسه بما لاطائل تحته . هل بعد اقرارها الصريح من باب للنجاة ؟ ولا دواء لهذه الخائنة إلا القتل »

فقالت خولة وهي تنظر الى قطام شزراً « سوف يتضح لنا من هي الخائنة وقد يجدر بك التأدب في حضرة الامير فانه أعلم منك بقواعد الاحكام »

الفصل المائة

صدق اللهجة

ثم وجهت خولة خطابها الى عمرو قائلة « أرجو من الامير أن يطلق للسانى الحرية لاقول كل مايجول في خاطري »

قال « قولى مابدا لك »

قالت « أما سبب مخالفتى والدي في رأيه وتحزبي للامام علي رحمه الله فهو لاني صادقة مخلصة في فكري وقولى وهو المنحرف المتقلب. وما كنت لاصف والدي بهذا العيب لو لم يضطرني الى ذلك »

قال عمرو « وما معنى هذا »

قالت « يعلم مولاي الامير ان والدي ربي في نعم الامام على وأنا في حجره مع اعتقادنا انه ابن عم الرسول (صلعم) وانه على الحق في أعماله »

فأراد والدها أن يقطع حديثها فاعترضه عمرو وألزمه السكوت فقالت « فلما كانت واقعة صفين كان والدي في جملة من خالفه في امر التحكيم من الخوارج . فهو الذي انحرف عنه . أما أنا فظللت على رأيي ولا أزال عليه الى اليوم »

فقال عمرو وهو معجب بجسارتها « ولكن علياً شارك الجهال في قتل الخليفة عثمان فقتلوه ظلماً ونحن انما قمنا نطالب بدمه »

قالت « أما مقتل الخليفة عثمان فارجو من مولاي الامير أن لا يلجئني الى الخوض في شأنه لانى ربما اضطررت الى ما أتجنب ذكره »

قال « وما الذي يخيفك بعد ماأبديته من الجرأة »

قالت « يخيفني غضب الامير لامر هو داخل فيه »

قال « قولي كل مايبدو لك ولا تخافي »

قالت « أما مقتل الخليفة عثمان رحمه الله فلا أظن مولاي عمراً الامن جملة الراضين به »

فبغت عمرو وقال « وكيف تقولين ذلك ياخولة ؟ »

قالت « ألم يكن مولاي في جملة المحاصرين لعثمان ؟ ألم تقل له قد ركبت يا عثمان أموراً ركبناها معك تب يا عثمان وارجع الى الله [1] . فاسمعك هو كلاماً جارحاً . ثم لما قال لك انى تائب قلت له رأيناك تتوب ثم تعود »

قال « وهل يؤخذ من ذلك اني كنت أريد قتله »

قالت « كلا ولكنه يدل على انك كنت ناقماً عليه »

قال « انما كنت ناقماً ليرجع عن أعماله ويبقي على خلافته »

قالت « لو كان هذا هو قصدك فقط لما فرحت بقتله »

فذهل عمرو من سعة اطلاعها على خفايا الامور ولكنه لم يستطع الا استفهامها فقال و« وكيف تقولين اني فرحت وما دليلك على ذلك »

قالت « دليلي قريب اذا أمنني الامير قلته »

قال « قولي »

قالت « ألم تكن في فلسطين يوم قتل عثمان ؟ فكنت اذا لقيت الراعي حرضته على قتله ؟ ألم تحرض علياً وطلحة والزبير عليه ؟ فلما جاءك رجل أخبرك بمقتل عثمان ألم تقل أنا عبد الله اذا حككت قرحة نكأتها ؟ »

فلما سمع عمرو قولها استغرب جرأتها وغضب لتصريحها بامور كان يود كتمانها ولكنه سبق فأمنها وكان داهية يحول معاني الكلام كيف شاء فقال لها « لقد أعجبني دفاعك ياخولة ولكننا لسنا في معرض الدفاع عن علي أو عثمان ولا يهمنا انحرافك أو انحراف والدك وانما نحن في اطلاعك على خبر المؤامرة على قتلى ثم سكوتك الى آخر ساعة ووالدك بين يدي كل

(١) ابن الاثير ج ٣

يوم فكأنك اشتركت في المؤامرة » قال ذلك وهو يحسب نفسه قد غلبها وسد عليها أبواب الدفاع . وكان أشد الناس خوفاً عليها عبد الله وقد خيل له انها لم تعد تستطيع دفاعاً بعد اقرارها السابق

أما هي فهمت بالكلام فاذا بقطام تقول « اني لاعجب من حلم الامير وما يرجوه من دفاعها عن ذنب اعترفت به صريحاً »

فلم تعبأ خولة بقول قطام ولكنها أجابت عمراً قائلة « اني لاأنكر عليك عظم هذا الذنب بالنظر الى ما كنت ترجوه من قيامي بامر الخوارج وموافقة والدي على تأييد أمركم والتصديق على دعواكم ودعوى معاوية وانكم على الحق . وقد قدمت لمولاي باني فعلت ذلك وأنا على دعوة الامام على فذنبي من هذا القبيل لايعد شيئاً بالنظر الى ماتستوجبه هذه المرأة (وأشارت الى قطام) التى انماجاءت بهذه الوشاية غيرة عليك وضنا بحياتك فاتهمتني بالخيانه لاني على زعمها كنت عالمة بخبر المؤامرة ولم أخبرك بها ـ فما الذي منعها هي عن إخبارك بذلك يوم أرسلت عبدها عبد السوء للوشاية باصحاب عين شمس . فاذا كانت هذه المرأة صادقة في دعواها ألم تكن هي أولى مني باطلاعك على ذلك الامر ؟ اسألها وانظر في جوابها »

الفصل الحادى والمائة

فشل الظالمين

فانتبه عمرو كأنه في سكرة وصحا منها بغتة فرأى خولة مصيبة بدعواها فالتفت الى قطام لفتة استفهام فلم يسمع منها جواباً . فقال لها « ماتقولين ياقطام لماذا لم تخبريني بخبر تلك المؤامرة »

فارتبكت في أمرها ولكنها أجابت وهي مبغوتة وقالت « لاني لم أكن عارفة بخبرها يومئذ »

فتبين عمرو التلاعب في كلامها ولكنه أراد تحقق ذلك فقال لها

« ولكنك قلت الآن انك سمعت خبر المؤامرة منهما فهل سمعته قبل ارسال عبدك الينا أو بعده »

فانخدعت قطام بسؤاله فأجابت على الفور « لم أسمعه الا بعد سفر عبدي وكنت عازمة على ارسال غيره فلم أتمكن لمشاغل خصوصية انتابتني »

فتقدم حينئذ عبد الله وهو يكاد يرقص فرحاً بخذلان قطام وقال « ولكن عبدك ياملبحة لم يسافر من الكوفة الا بعد سفرنا لانه انما قدم الفسطاط ليخبر الامير بخروجنا من الكوفة »

فأشار عمرو اليه فسكت وعاد هو الى السؤال فقال « وزد على ذلك ان هذه العجوز تقول انكما سمعتما ذلك الخبر منهما ليلة سفرهما . فما تقولين بذلك »

فغلب الحنق على قطام فقالت « هذه عجوز حمقاء غلب عليها الخرف فلا يعتد بقولها »

فغضبت لبابة لعقوق قطام واهانتها اياها على هذه الصورة وهي تعتقد فضلها عليها فقالت لها « أنا لم أقل ذلك الا بعد قولك . . تباً لك من امرأة خائنة . كيف تقولين ان الخرف غلب على وأنت انما غلب عليك النفاق »

فاشتد حنق قطام ولم تعد تعي ماتقول لفشلها وخجلها فقالت « اخرسي يامجنونة ولا تتكلمي بين يدى »

فقالت لبابة « بل انت مجنونة وأنت الخائنة واذا لم تلزمى حدك اطلعت الامير على كل سرائرك وفضحت أمرك »

فقالت « وماذا عسى أن تقولى وأنت خادمة لايعتد أحد بأقوالك »

وكانت لبابه قد تحققت وقوع قطام في شر اعمالها فارادت أن تخلص نفسها وتنجو بحياتها فلم تر ذريعة أهون عليها من ايقاع قطام باباحة اسرارها بالاقرار . ولا غرابة في ذلك فان من كان مثلها ميت الضمير سيء الخلق لاذمام يزجرها ولا عقل يعقلها يسهل انقلابها من الشيء الى ضده فقالت

على الفور » ان اسرارك كلها تحت قدمي هذه واذا أذن مولاي الامير كشفت له كل شيء »

فسرت خولة وعبد الله لذلك الخصام . أما عمرو فرأى لحسن سياسته وتعقله ان خولة ممن يحرص على بقائهن وانها اذا كانت على دعوته لا يخشى انقلابها . وأما قطام فانها اذا أخلصت له اليوم لايأمن أن تخونه في الغد فقال للعجوز « قولى ياخالة ما تعرفينه »

فأخذت لبابة تتلو حديث قطام مفصلا من أوله الى آخره والكل مصغون صامتون ففضحت اسرارها فتحقق عمرو ان ارسالها عبدها اليه لم يكن حباً به ولا نصرة لحزبه بل انتقاماً من سعيد وعبد الله . وتبين لديه ان هذين انما اندفعا للدفاع عن علي بوصية جدهما أبي رحاب واتضح له جلياً ان قطام خائنة لا يوثق بقولها ولا يعتمد عليها وأن بقاءها في قيد الحياة شر على العالمين . ولم يكن اعتقاده بلبابة بأحسن من اعتقاده بقطام لانه رأى خيانتها رأي العين فصمم على التخلص من كاتبهما

وكانت قطام في أثناء حديث لبابة واقفة وقوف الصنم وقد جمد الدم في عروقها واصطكت ركبتاها . وكانت في أول حديث لبابة تهم بتكذيبها وعمرو يسكتها ثم سكتت من تلقاء نفسها . فلما فرغت لبابة من حديثها نادى عمرو « ياغلام » فجاء فأمره أن يسوق قطام وعجوزها الى غرفة يسجنهما فيها

الفصل الثانى والمائة

العفو العام

فلما خرجت قطام ولبابة من المكان عاد السكوت الى الجلسة وكل في مكانه وعمرو غارق في بحار التأمل ففكر في خولة وشهامتها وصدق مودتها فرأى انها اذا كانت على دعوته لايخشى ضررها بل قد تكون أكبر عون له اذ يندر مثلها بين النساء وغلب على اعتقاده انها بعد مقتل الامام علي

لم يبق لها سبيل لنصرته فتفضل ان تكتسب رضاء عمرو . وخصوصاً اذا عفا عنها وعن زوجها عبد الله

وبعد السكوت هنيهة خاطبها قائلا « والآن ما قولك يا خولة ما الذي نفعله بك »

قالت « لا أبالي يا مولاي بعد ان بسطت لك الحق ان تفعل بي ماتفعله فقد صدقتك القول بصراحة لا أظن احداً يتجرأ على مثلها . فاذا أمرت بقتلي فاني لا ازيد عدد الموتى ولا أقلل عدد الاحياء ولا فائدة من بقائي ولا ضرر من مماتي وقد قلت لك في اول حديثي انه قد قتل ودرج تحت التراب من لا أقاس بأنملة من انامله . فهل أنا افضل من أبي بكر وعمر وعثمان أم أنا خير من ابن عم الرسول (صلعم) فاذا شئت اقتلني وأرحني من حياة لا عدل فيها ولا حق ... ولكنني اطلب اليك اذا قتلتني ان لا تعفو عن تلك الحائنة الغادرة » قالت ذلك ودمعت عيناها

فتأثر عمرو من صدق لهجتها وثبات جأشها فقال لها « واذا عفوت عنك »

قالت « واذا عفوت فالعفو من شيم الكرام وتكون حياتي هبة من عندك »

فتقدم عبد الله للحال وجثا بين يدي عمرو وقال « ارغب الى مولاي كما وهبني حياتي أن يهبني حياة هذا الملاك الطاهر فتكون أيضاً هبة من فضله »

وكان والد خولة لا يزال واقفاً وقد سحر بما أبدته ابنته من الحمية والشهامة وخجل لانه لم يكن صادقاً في اخلاصه لعلي مثلها . فلما رأى عبد الله يلتمس العفو لابنته تقدم هو ايضاً وقبل يدي عمرو وقال « لقد كنت يا سيدي أشد نقمة منك على خولة ولكنني أراها والله خيراً مني وأراني أصغر منها فالتمس لها العفو ايضاً » قال ذلك ونادى خولة فدنت فقال لها « قبلي يد الامير واستغفريه » ففعلت

وتصافح ابو خولة وعبد الله وعادا الى مقاعدهما وقد تذكر عبد الله

ابن عمه سعيداً وعلاقته بخولة فقال في نفسه إنهـا فرصة لا ينبغي ضياعها فخاطب عمراً قائلاً « أما وقد وهبتنا حياتنا جزاء لصدق لهجتنا فلا يسعنى والحالة هذه الا أن أتم الصدق بكشف سر لا يزال مكتوماً »

الفصل الثالث والمائة

كشف السر

فلما قال ذلك علمت خولة انه سيتكلم بشأن سعيد فخفق قلبها وغلب الحياء عليها فانزوت في بعض جوانب الغرفة

أما عمرو فقال لعبد الله « قل ما بدا لك »

قال « انت تدعوني الآن زوج خولة وما أنا والله الا اخوها »

فبغت عمرو وأبو خولة وقال عمرو « كيف لا وقد كتب كتابك عليها »

قال « نعم انها زوجتي بالكتاب ولكنها لا تزال بكراً وقد آختيهـا فهي اختي بعهد الله والرجل لا يتزوج أخته »

فازداد استغراب عمرو وقال « وكيف ذلك افصح ياعبد الله »

قال « لان خولة أحبت ابن عمى سعيداً قبلى ولا بد انكم لحظتم ذلك من خلال حديث قطام ولكننى لم أعلم ذلك الا بعد كتابة الكتاب ونظراً لحبي الشديد لابن عمى وقد كلفته بوصاية جدي أبى رحاب أمسكت نفسي عن خولة وآختيها . واعترف لمولاي الامير انتا تواطأنا على الخروج من الفسطاط الى الكوفة بحيلة وسعيد ينتظرنا هناك فأزف له خولة »

فلما سمع عمرو كلامه ازداد اعجاباً بشهامته وصدق مودته ونظر الى أبى خولة كأنه يستطلعه رأيه في الامر فاذا هو لم يكن اقل اعجاباً بتلك الشهامة ولكنه لم يتمالك عن ان نهض وضم عبد الله الى صدره وقبل رأسه وقال بورك فيك من صديق صادق فاذا صارت خولة أختاً لك فاقض لها ما أنت قاض ..

فقال « اذا أمر مولاي بعثنا الى سعيد وهو في الكوفة مع بلال العبد فيقدمان الينا فيكتب الامير كتابه بأمره »

فقال عمرو « ان ذلك على الرحب والسعة » وأمر غلامه أن يمد عبد الله بما يريد من استقدام سعيد

فجهز عبد الله رسولا وكتب الى سعيد يستقدمه ويبسط له واقعة الحال وأوصى الرسول أن يجعل طريقه بدمشق لان سعيداً كان فيها فلعله لا يزال هناك

واستأذن ابو خولة وابنته بالانصراف الى بيته فاذن لهما فخرجا وخولة تفكر في قطام وكانت قبل هذه الجلسة تريد الانتقام منها ولكنها لما رأت ما كان من فشلها انفثأت حماة انتقامها . على أنها تذكرت ان بلالا اقسم ان يقتلها ناهيك بحقد سعيد عليها فعولت ان تستعطفه لكي يعفو عنها ويكتفي بما أصابها من الفشل والاهانة

وأما عبد الله فاستبقاه عمرو عنده بقية النهار وبات تلك الليلة ضيفاً في دار الامير وقد ارتاح باله من كل قبيل . ولكنه كان يفكر في قطام وما أصابها من البلاء وكيف سيقت الى السجن مهانة وقد انكشف امرها وافتضح سرها فخفت نقمته عليها واكتفى بأن تبقى مسجونة حتى يرى ما يكون من امرها بعد قدوم سعيد

وفي الصباح التالى بعث عمرو اليه ليتناول الطعام معه فذهب وفي أثناء الطعام تحدثا بحديث قطام وعجوزها فذكر عبد الله ما يجول في خاطره من الشفقة عليها فقال له عمرو « والله حلم لم يسبقك اليه معن . وما ظنك بخولة هل تقول قولك ؟

قال « لا أظنها الا على رأيي بلا تواطؤ »

الفصل الرابع والمائة

الجريمة والفرار

فأحب عمرو ان يجرب ذلك فبعث الى خولة فلما جاءت سألها عن رأيها في قطام

فقالت مثل قول عبد الله تقريباً

فقال لها عمرو « اني والله لاعجب من هذا التوارد وانه دليل صريح على طيب عنصركما وقد كنت لو أردتما قتلها قتلتها لانها شريرة تستحق الشنق . فارى اذا أن أسجنها في سجن مظلم لتذوق جزاء ماجنته يداها »

ثم نادى غلامه فحضر فأمره أن ينقل قطام الى سجن مظلم وأن يأتي بالعجوز اليه

فذهب الغلام ثم عاد وعلى وجهه أمارات البغتة

فقال له عمرو « ماوراءك هل فعلت ماقلته لك »

قال « كلا يامولاي »

قال « ولماذا »

قال « لاني وجدت الغرفة مفتوحة وليس فيها غير جثة المرأة العجوز

قال عمرو « وقطام ؟ »

قال « لم أقف لها على أثر »

فصاح عمرو « تباً لتلك اللعينة الخائنة هيا بنا نفحص الامر بنفسنا

قال ذلك وأسرع لساعته وتبعه عبد الله وخولة حتى أتوا باب الحجرة التي كانت قطام مسجونة فيها . فاذا بتلك العجوز المسكينة صريعة لاحراك بها فارسل عمرو الى طبيبه ليتفحص سبب وفاتها فجأة وبعد الفحص قال « انها ماتت خنقاً بعنف بعد جهاد ودفاع لانه رأى في فيها حجراً ملفوفاً بمنديل كان القاتل سد به فاها لئلا تستغيث فيسمعها الخفراء فينكشف أمره »

فقال عمرو « ومتى كان ذلك »

قال « أظنه وقع في منتصف الليل أو نحوه »

فحول عمرو انتباهه الى باب الحجرة وتأمل خلعه فتبين له انه خلع من الخارج لانه رأى آثار معالجته بأداة من الخارج . فقال « يظهر أن قطام ليست وحدها القاتلة لان يداً عالجت الباب وفتحته فمن فعل ذلك يارى »

وكانت خولة لما رأت لبابة ماثلة وقطام قد نجت أسفت لما كانت تبغيه من العفو عنها وتضاعفت نقمتها عليها ولو حضرت بين يديها في تلك الساعة لقتلتها بيدها

وكان عبد الله يشارك عمراً بالبحث فلما رآه يبحث عمن خلع الباب انتبه لساعته وقال « لقد كشفت الغامض وعرفت القاتل انه ريحان عبد قطام فقد شاهدته في دار الامير امس قبل المحاكمة ولم اسمع ان الامير أمر بالقبض عليه . احتال بخلع الباب وساعد سيدته على قتل العجوز انتقاماً لها أو خوفاً من لسانها »

فصاح عمرو للحال « لقد أصبت كبد الحقيقة انه ذلك العبد بعينه ثم امر بالجثة فحملت ودفنت وعاد الجميع آسفين لنجاة تلك الخائنة من بين ايديهم ولكنهم عزوا انفسهم بصفاء المودة بينهم وخصوصاً خولة وعبد الله فانهما كانا يتوقعان قدوم سعيد ولا ينغص عيشهما الا فرار قطام ومقتل الامام علي . على أن عمراً عول على البحث عنها ومعاقبتها

الفصل الخامس والمائة

غوطة دمشق

أما بلال فلما بعثه عبدالله ليتربص مع سعيد في الكوفة سار الى دمشق فرأى سعيداً بانتظاره هناك فحكى له ماقر القرار عليه واستهضه للمسير الى الكوفة فاستمهله يومين ريثما يقضي بعض الحوائج . وفي أصيل اليوم الثاني

حملا احمالهما وخرجا على جليهما على أن يبيتا تلك الليلة في غوطة دمشق ويصبحا في اليوم التالى عن طريق الكوفة

وفي خروجهما من باب المدينة لقيهما رسول عبد الله القادم لاستقدامهما الى القسطاط وهو يعرف بلالا فأوقفه ودفع الكتاب الى سعيد فقرأه سعيد وهو لا يصدق لعظم ماناله من الفرح للقبض على قطام مع رضاء عمرو وما توسمه من شوق خولة اليه

أما بلال فتأسف للقبض على قطام في غيابه مخافة أن يعفو عن قتلها أو أن يقتلها أحد سواه وهو يود أن يقتلها بيده ليشفي منها غليله

فقال سعيد للرسول « كنا خارجين الآن الى الغوطة لنبيت فيها ونصبح الى الكوفة فأرى بعد ان حملنا احمالنا أن نظل في طريقنا الى الغوطة فنبيت هناك ونصبح في الغد نلتمس القسطاط » فساروا جميعاً حتى وصلوا بعد الغروب الى بحيرة صغيرة حولها أشجار الحور وقد ملت نقنقة الضفادع يتخللها حفيف الاشجار وصفير الصراصير وهبوب الريح وتغريد الطيور مما يشرح الصدور ويندر مثاله في غير تلك الغوطة

فحطوا احمالهم واشتغل بلال ورفيقه باعداد العشاء مما حضر ولا يخلو الطعام هناك الا بالفاكهة

وكان بلال يعرف صاحب ذلك البستان وقد نزل عنده ليلة قدومه من القسطاط فترك سعيداً والرسول ومشى بين الاشجار تحت جنح الظلام يلتمس بيت البستاني ولم يمش برهة حتى اخطأ الطريق لتكاثف الاشجار وجعل يتلمس في مسيره وهو لا يزداد الا ضلالا وبعداً حتى أصبح وبينه وبين رفاقه ميل وبعض الميل وهو لا يدري فوقف يتفرس من بين الاشجار لعله يرى نوراً او يتبين المنزل من وراء الافق . ولبث برهة يعمل فكرته ويحاول ان يعرف الجهة التي ترك فيها رفاقه لكي يعود اليهم ولو بلا شيء

وفيما هو يفكر وقد هدأ الجو وسكنت الطبيعة لا يسمع فيها غير نقنقة الضفادع عن بعد واذا بصوت اجفله وهو جعير جمل عقبه جعير جمل آخر

فعلم ان القادمين ركب امسى عليهم المساء قبل الوصول الى المدينة . فمكث ينتظر وصولهم ليخاطبهم ويستفهم منهم عن الطريق . وكان قد اسند ظهره الى شجرة فتطاول بعنقه وتنصت ليتحقق الجهة التي سمع الصوت منها فسمع لفظاً وكلاماً الفت انتباهه فأصاخ بسمعه فاذا بقائل يقول « دعنا ننزل هنا ياريحان فاذا اصبحنا دخلنا دمشق لاني أخاف ان يستغشونا اذا دخلناها في الظلام ... ألا نظنا في امان هنا ؟ »

وسمع الجواب « نعم يا مولاتي »

فاقشعر بدن بلال عند سماعه ذلك الصوت وقد ادرك لاول وهلة انه صوت قطام وخصوصاً لما سمعها تخاطب ريحان بما يمازجه خوف . وتحقق للحال انها آتية فراراً من سجن الفسطاط

الفصل السادس والمائة

النزول

وكانت قطام لما أرسلت الى سجنها قد حقدت على لبابة كما قد علمت . ونظراً لما فطرت عليه من اللؤم والقساوة لم يكن أهون عليها من قتل لبابة ولم تعبأ بما كان لها في خدمتها من التعب . وكان ريحان يومئذ واقفاً في دار الامارة فلما رأى سيدته ولبابة سائرتين مخفورتين علم انهما في ضيق فراعى القوم ببصره حتى عرف الحجرة التي حبسوهما فيها . وعمل فكرته لانقاذهما وكانوا عند اول وصولهم الفسطاط قد نزلوا في دار الامارة فاحتال في اخراج الجمال والامتعة الى مكان خارج الفسطاط . ولما توسط الليل غافل الناس وجاء الى سجن قطام وقد تهيأ لمعالجة الباب . فسمع لفظاً فاذا هو خصام احتدم بينها وبين خادمتها . فاستعجل في فتح الباب بالعنف ودخل فلما رأته قطام اشارت اليه ان يساعدها على قتل لبابة فصاحت هذه « تبالك يا ظالمة يا فاجرة اني أتوب الى الله عما ركبت في سبيلك من الذنوب . وأما أنت فلا نجاك الله من عواقب آثامك و . . . . » فابتدرها ريحان حالا فسد فاها

وختقها وخرج بسيدته من باب كان قد عرفه واسترضى بوابه . فلما بعدا عن الفسطاط تحول بها الى مأمن كان قد أعده عند موقف الجمال . فركبا وهي تثني على شهامته . تخيرها في الجهة التي تسير فيها فاختارت دمشق لان فيها أناساً من أهلها كانوا قد هجروا الكوفة بعد واقعة النهروان وفشل الخوارج وأقاموا في دمشق

فسارا حتى اتيا الغوطة في تلك الليلة بعد وصول رسول عبد الله ببضع ساعات كما قد رأيت . وكان بلال لما تأكد انهما قطام وريحان لم يعد يعلم كيف يفرح . وقال في نفسه لقد أجاب الله سؤالي . والله اني سأذيقها الموت بيدي هذه . وجس منطقته فرأى الخنجر فيها . فلبث مستظلا بالشجرة ليرى ما يكون منهما . فاذا هما قد سارا خطوات قليلة حتى اتيا الى قناة لانحدار مائها خرير وبجانب القناة شجرة من الصفصاف يستظل بها المارة في اثناء النهار . فنحولا عن الجملين وضرب ريحان القبة كالعادة وأوقد النار ثم قال لمولاته « استريحي يا سيدتي ريثما ألاقي البستاني وآتي اليك ببعض الزاد والفاكهة وأنت هنا في مأمن »

قالت « سر ولا تطل الغياب »

قال « حسناً » وانصرف

الفصل السابع والمائة

وعلى الباغي تدور الدوائر

وكان بلال واقفاً ينظر اليه . فلما رآه توارى نظر الى قطام على بصيص النار فاذا هي قاعدة وقد كشفت عن وجهها وعنقها وشمرت عن ساعديها ثم رآها نهضت وضفائرها مدلاة على كتفيها وظهرها وفي اطراف الضفائر دنانير معلقة اذا تصادمت في أثناء المشي سمع لها رنين . ومشت الى حافة القناة ودمالجها وخلاخلها تخش خشيشاً . فخاف بلال اذا ابطأ ان تفوته الفرصة فوثب عليها وهي تهم بالجلوس على حافة القناة وأمسك بطوقها وجذبها اليه

فوقعت على قفاها فجثا على صدرها . فصاحت « ريحان » وقبل ان تتم كلامها وضع بلال قبضته في فيها وقال لها « لم يبق لك في هذه الحياة الا دقائق قليلة فاعلمي قبل ان تفارقيها اني بلال خادم خولة وسعيد وأني منتقم للامام علي » فاشارت بعينها انها تريد الكلام فاستل الخنجر وصوبه الى عنقها وقال لها تكلمي بهدو واذا رفعت صوتك أغمدت هذا الخنجر في عنقك »

قالت « ارحمني يا بلال واشفق على حياتي »

قال « لا يرحمني الله ان رحمتك وأنت قد ضافرت ابن ملجم وحرضته على قتل الامام علي . واردت قتل شابين من خيرة الشبان . ولكن حيلتك لم تنطل فيهما . وأخيراً جئت الفسطاط لاغراء أميرها على خولة . . كيف ارحمك يا خائنة »

قالت « ذلك قد مضى يا بلال وأنا تائبة فاعف عن قتلي ولك كل ما أملكه »

قال « هل يتوب الهر ! ! . وأما العفو عن قتلك فوالله لو عرفت قصاصاً أعظم من القتل لقاصصتك به لان القتل قليل على فاجرة خائنة مثلك »

فهمت أن تجيبه فادرك انها تماطله ريثما يعود ريحان

فقال لها « اعلمي يا قطام اني قاتلك انتقاماً للامام علي » قال ذلك واغمد خنجره في عنقها واسرع فاحتز رأسها وترك الجثة ولها شخير ما زال يرن في أذنيه الى مسافة بعيدة وكان لما رأى تلك القناة قد عرف الطريق المؤدي الى مقر سعيد فانسل بين الاشجار وقد امسك الرأس من جدائله وتركه يتدلى والدم يقطر منه

الفصل الثامن والمائة

الفاكهة الغريبة

فلما وصل بلال الى سعيد والرسول الجديد كانا قد استبطآه وانشغل خاطرهما عليه . فلما سمعا وقع اقدامه صاح سعيد فيه قائلا « أين الفاكهة يا بلال لقد ابطأت وغلب علينا الجوع »

فلم يجبه بلال ولكنه ظل ماشياً حتى وقف امامه ورمى الجمجمة بين يديه وقال « هذه فاكهتي »

فاجفل سعيد ونظر فاذا هو رأس قطام باقراطه وضفائره فاستغرب أمره فسأله عن تفصيل الخبر

فقال « ليس هذا وقت السؤال هلموا بنا نخرج من هذه الغوطة الآن فاذا أمنا من عيون الحكومة أخبرتكم الخبر »

فنهضوا وهم الى تلك الساعة لم يذوقوا طعاماً وركبوا جمالهم واستحثوها جهد طاقتهم وهم تارة يصعدون تلا أو ينزلون غوراً وآونة يغوصون في الماء وطوراً يدوسون الاشواك أو تتصادم رءوسهم واكتافهم بغصون الاشجار حتى انتصف الليل فانتهوا الى سهل قليل الاغراس وقد بعدوا عن دمشق فواصلوا السير الى الفجر فتحققوا انهم أمنوا العيون

فجلسوا للاستراحة على مصطبة بالقرب من عين ماء جارية وسعيد في شوق شديد الى سماع تفصيل مقتل تلك المرأة

فقص بلال حديثه وقلبه يرقص من شدة الفرح . واتماماً لاسباب سروره استخرج الجمجمة من جراب كان قد خبأها فيه ووضعها على المصطبة بين يدي سعيد وكان شعرها قد تحيل بالدم والعينان مطبقتان والشفتان مفتوحان عن اسنان كاللؤلؤ ومسحة الجمال لا تزال تتجلى في محيا تلك المرأة مع صفاء اللون واصفراره وما تلطخ به من الدماء

الفصل التاسع والمائة

الموت عبرة الاحياء

فمد سعيد يده الى جبين تلك الجمجمة ولمسه فاذا هو بارد كالثلج فقال « آمنت بالله كأنه سبحانه وتعالى قد كتب لي ان لا ألمس هذا الجبين الا وهو ميت مع شدة رغبتي في لمسه منذ اعوام » ثم وجه خطابه الى الجمجمة وقال « أأنت قطام بنت شحنة وقد طليت دهاءك ومكرك على مئات من الرجال . أبهاتين العينين فتنت ابن ملجم كما فتنتني . وبهاتين الشفتين عقدت له على نفسك اذا قتل الامام كما عقدت لى . انك ستلاقينه عاجلا وستلاقيان علياً في مكان لا تخفى فيه خافية . في مكان تنال فيه كل نفس جزاء ماصنعت ان خيراً وان شراً »

ثم التفت الى بلال وقال « ماذا نعمل بهذا الرأس »

قال « نحمله الى الفسطاط لاضعه بين قدمي خولة ذلك الملاك الطاهر

قال « لا أظنها تسر بهذا المرأى ولا أنا سررت به . وزد على ذلك ان هذه الجمجمة لا تصل الى الفسطاط الا بعد ان تتن وتتصاعد منها رائحة تنفر منها النفس »

فأطرق بلال هنيهة وهو يتأسف لعدم استطاعته حمل الرأس الى خولة ثم قال « فاسمح لى اذاً ان احمل علامة منه »

قال « وما هي تلك العلامة »

قال « اقطع منه الاذنين وفيهما الاقراط وأقص هذا الشعر وفيه الضفائر الذهب »

قال « لك ذلك فافعله »

فاشتغل بلال في ذلك على ان يستريحوا هناك ويتناولوا الغداء ويعزموا على الفسطاط

الفصل العاشر والمائة

اذا سقط اللئيم فلا يلق نصيراً

أما ريحان فانه عاد من عند البستاني بعد قليل وقد أعد كل ما ترتاح اليه سيدته من الفاكهة والاطعمة وأمر البستاني أن يشوي بعض اليمام. ولما دنا من الخيمة سمع شخيراً كشخير النائم وكانت قطام اذا نامت شخرت وهو يعرف فيها ذلك. فقال في نفسه يظهر انها لم تتمالك عن النوم من شدة التعب. ودنا منها فاذا هي بجانب القناة والظلام حالك والنار التي أوقدها قد خمدت فلم ينتبه لحالها فقال في نفسه لا نيرن الشمع واعد المائدة ريثما تفيق فانار الشمعة ولاحت منه التفاتة الى سيدته فرآها تتحرك فأقبل اليها فاذا هي تختلج اختلاج النزاع وقد اصبحت جثة بلا رأس ورأى دمها قد عكر القناة. فبغت ولطم وجهه ووقف لحظة يفكر في من عسى ان يكون قد فعل ذلك فقال في نفسه « لا يخلو ان يكون ذلك قد حدث بايعاز عمرو ابن العاص والقاتل قد فر الآن ولا سبيل اليه. فاذا أنا صحت وجمعت الناس لا أظن التهمة إلا واقعة علي »

فتحير في أمره ثم تذكر ما ارتكبته قطام من الفظائع كأنه يحاول ان يلتمس لنفسه عذراً اذا تخلى عنها. فرأى انها ارتكبت عظائم تستحق القتل على كل واحدة منها. وتذكر ماوراءها من المال الكثير والمصاغ الثمين وانه هو وحده يعرف مخبآتها في الكوفة. فطمع في اكتساب ذلك الميراث وصمم على اغتنام هذه الفرصة فهم بما عليها من الحلي فاستخرج الاساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها وجمع ما في جيوبها وصناديقها من غالي الثمن وخفيف الحمل. وتركها تخبط بدمها ولسان حاله يقول « ذلك هو جزاء القوم الظالمين» ودخل الشام في الصباح التالي فاشترى اثواباً تنكر فيها وقصد الكوفة فاستخرج ما خبأته قطام هناك من الاموال وابتاع لنفسه ضيعة أقام فيها الى آخر حياته

وأما البستاني فكان قد أعد الطعام وحمله وفيه الجبن والفاكهة والخبز في سل وجاء الى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيفة لانها كانت كريمة تعطي الناس بسخاء . ولكنه ما وصل الخيمة حتى رأى الحال كما ذكرنا وليس هناك الا جثة قطام وكانت قد همدت وسكن شخيرها واختلاجها . فلا تسل عن رعبه لما رآها في تلك الحال . فقال في نفسه « لابد ان جماعة أقوياء تجرأوا على هذا العمل وقد فعلوا ما فعلوا ونجوا بأنفسهم واذا أنا أظهرت هذه الجثة جلبت لنفسي البلاء فما لي الا ان احتفر لها حفرة اخفيها فيها » فاشتغل بالحفر وهو يحاذر أن يراه احد أو يسمع خبط معوله . ثم دفن الجثة وأخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقي من الامتعة الى بيته وساق جملا كان باقياً هناك وكتم تلك الحادثة وما زالت مكتومة الى الآن

الفصل الحادي عشر والمائة

الوصول الى الفسطاط

أما وفد الفسطاط فلما أشرفوا على المدينة من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو في وسط المدينة كالبدر بين الكواكب فاستعجلوا الرسول الجديد بالذهاب الى عبد الله لينبئه برجوعهم وأوصوه ان لايذكر له خبر قطام

اما عبد الله فكان قد خلا له الجو وصفا قلب الامير ولكنه ما زال منشغل الخاطر في أمر سعيد وكلما تذكر فرار قطام من سجنها انقبضت نفسه وكلما لقي خولة تحادثا بما مر بهما وذكرا سعيداً والتمسا سرعة وصوله وعبد الله يدبر أسلوباً يخبره به عن حقيقة حاله مع خولة

وفيما هو جالس ذات صباح في غرفته بدار الامير واذا برسوله قد اقبل وعليه علائم السفر فصاح به « وما وراءك »

قال « ورائي سيدي سعيد وبلال »

قال « وأين هما »

قال « تركتهما في سفح المقطم قادمين وجئت لابشركم »

قال « أهلا بالقادمين » ونهض لساعته وخرج على فرس أسرج له ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جملين فترجل بلال للحال وهم بيد عبد الله فقبلها

فقال عبد الله « بورك فيك ياأسمر وبورك بشهامتك » وهم سعيد ان يترجل فاشار اليه عبد الله أن يبقى على جمله لينزلا معاً في دار الامارة

فمشوا وسعيد يبتسم فقال له عبد الله « ما الذي يضحكك »

قال « يضحكني اننا ذاهبون الى دار عمرو بن العاص وقد كنا امس نحاذر ان يسمع بنا أو برانا »

قال « لله في خلقه شؤون » ثم قال بصوت خافت كأنه يحاذر ان يسمعه أحد « لو أراد الله نجح مسعانا ونجا الامام علي كرم الله وجهه لما همنا النزول في هذه الدار »

فقال سعيد « لاتذكرني بذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسي ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عيني يضرب الامام بذلك السيف المسموم وقد كان بيننا وبين انقاذه لحظة لو أراد الله لعجلها . ولكن الآجال مرهونة باوقاتها »

قال « ولكن الله سيجزي الظالمين وأما نحن فقد صرنا الآن من حاشية ابن العاص وهو والحق يقال من دهاة العرب وكرامهم وكبار قوادهم »

الفصل الثاني عشر والمائة

المداعبة

وتحادثا في أمثال ذلك حتى اقتربا من الدار فقال عبد الله « لم اسمعك تذكر خولة . . . هل نسيتها »

فابتسم سعيد وقال « كيف أنساها وأنا انما جئت ألتمسها »

قال « وماذا تلتمس منها »

قال « لا أدري . . . »

قال « أظنك تدري والا فاعلم ان خولة الآن قرينتي زوجني بها عمرو وكتب كتابي عليها بامره »

فضحك سعيد وهو يظن ابن عمه يمازحه ...

فتظاهر عبد الله بالجد وقال « يظهر لى انك لم تصدق قولى فاقسم بالله وتربة أبي رحاب ان خولة قد زفت الى وكتب العقد على يد الامير . واذا كنت لاتصدقني فاسأل كل من في هذه الدار عن ذلك »

فغلبت الشهامة على سعيد ولم يسعه الا ان قال « وما يمنع ان تكون زوجة لك بورك لك فيها . ألست أخي ورفيقي وابن عمي »

قال ذلك وهو لا يزال يشك بما سمعه لعلمه باخلاق عبد الله

ووصلا الى الدار فترجلا وسار تواً الى غرفة عبد الله وبعثا الى عمرو بقدومهما فأمر ان يستقبل سعيد في غرفة خاصة وبعث الى خولة ووالدها فلما جاءا أقبل عمرو الى تلك الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجاً فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيل يده والسلام عليه فرحب به ودعاه للجلوس

فقال سعيد « اذا أذن مولاي فليأمر عبده بلالا بالدخول ليحضر هذه الجلسة »

فامر بدخوله فانزوى في بعض جوانب الغرفة متأدباً وفي يده جراب من جلد

وكان سعيد ينظر الى خولة من تحت النقاب ويفكر في ما سمعه من عبد الله وهو يتردد بين الشك واليقين

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيداً قائلا « أظنكم تتوقعون ان تروا قطام سجينة »

فقال سعيد « نعم يامولاي »

قال « ولكنها فرت من السجن وزادت ذنبها عظماً بقتل خادمتها .

وكنا قد أردنا استبقاءها مسجونة . أما الآن فاذا ظفرنا بها فلاقصاص لها عندنا غير القتل »

الفصل الثالث عشر والمائة

جائزة مائة دينار

فلم يتمالك سعيد عن الابتسام وقد ندم لانه لم يصرح بالامر لما سأله عنه عمرو وهم بالكلام فاعترضه بلال مستأذناً . فسكت . فتقدم بلال الى عمرو وجثا بين يديه والجراب بيده وقال « استعطف مولاي ان يأذن لى بكلمة أقولها »

قال « قل »

قال « كيف ترجون القبض على قطام وأنتم لا تعرفون مقرها »

قال « نطمع الناس في البحث عنها بمال كثير »

قال « بكم تسمح نفس الامير لمن يقبض عليها »

قال « نعطيه مئة دينار »

قال « أتشرط ان يؤتى بها حية »

قال « لافرق جاء بها حية أو ميتة »

قال « واذا جاء بخبر قتلها »

قال « نقبل منه ذلك بشرط ان يأتينا بما يثبت قتله اياها »

فاخذ بلال يحل الجراب وهو يقول « فليأمر مولاى الامير بمن يدفع لى مئة دينار » وما تم قوله حتى افرغ الجراب بين يدي الامير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيه باصبعه حتى وجد الاذنين وفيهما الاقراط

فأجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيه عمرو « ويلك ما هذا »

قال « هذا هو شعر قطام ملطخاً بدمها . وهذه أذناها وأقراطها .

واذا احرجتموني جئتكم برأسها . فاني انما تخليت عنه اجابة لامر مولاي سعيد » قال ذلك ووقف وهو يشير برأسه الى سعيد

فقال سعيد « نعم يا مولاي أنا اشهد ان بلالا قتل قطام وجده واحتز رأسها وجاءني به وهو يثوي حمله اليكم فأشرت عليه ان يكتفي بهذه العلامة تخلصاً من نتانة تلك الرمة »

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فأشار عمرو الى بلال ان احمل هذه الاقذار من هنا . فأعادها الى جرابه وتنحى

فقال له عمرو « لك علينا مئة دينار »

فحنى رأسه شكراً وامتنانا وقال « اني أشكر مولاي الامير على نعمته ولكنني أعترف له بأني لم أقتل هذه الخائنة طمعاً بجائزة وانما قتلتها انتقاماً للحق » وأراد أن يفصل ما أجمله فانتبه انه لا يجوز ذكر الامام علي هناك فاكتفى بما قاله

ونهض عبد الله فقال « بورك فيك يا بلال فاقصص علينا الخبر اذا أمر الامير »

فقال عمرو « اقصصه »

فقصه من أوله الى آخره

الفصل الرابع عشر والمائة

الطلاق والزواج

فأثنى الجميع على شهامته وخصوصاً خولة . وتذكرت ان والدها كان ناقماً عليها من أجله فاغتنمت هذه الفرصة لاكتساب رضاه عنهما فقالت « يا بلال تقدم باذن الامير وقبل يدي سيدك » وأشارت الى والدها . فتقدم بلال للحال وقبل يده فأثنى عليه فعاد الى موقفه . وكان الحديث قد انقضى ولم يبق غير الانصراف

فوقف عبد الله والتفت الى عمرو وقال « أشهد أيها الامير ان امرأتي هذه طالق مني ثلاثاً » وأشار الى خولة

فانتبه سعيد لما كان سمعه منه فتحقق انه كان معقوداً له عليها . فعلته البغتة

ولحظ عمرو فيه ذلك فقال « طب نفساً يا سعيد ان خولة لا تزال بكراً وانما طلقها عبد الله صورة كما تزوجها صورة » والتفت الى أبي خولة وقال له « اني أخطب خولة منك لسعيد »

فقال أبو خولة « هي جاريتك يا مولاي فافعل بها ما تشاء »

فخجلت خولة لتلك المفاوضة بين يديها وأطرقت

وأمر عمرو فكتب الكتاب في الحال وهنأهما بذلك القران وأمر لبلال بالمال الذي وعد به وانصرف الجميع الى بيت خولة بعد ان ودعوا عمراً وشكروا صنيعه

وبعد أيام استأذن عبد الله سعيداً في الذهاب الى مكة للقيام مع أهله وتدبير تركة جده فأذن له على الرغم عنه . فانصرف وودع خولة ووالدها والامير عمراً وسار الى مكة واقترن هناك بابنة عم له وعاشوا جميعا عيشا لا يشوبه من النغص الا الافكار بمقتل الامام علي . وزاد تنغيصهم ما سمعوه بعد ذلك من تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية ابن أبي سفيان . فخرجت الخلافة من أهل البيت وصارت الى بني أمية . وانما فعل الحسن ذلك حجباً للدماء ولم يتول الخلافة الا ستة أشهر فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق وما زال فيها الى انقضاء دولة بني أمية

﴿ تمت الرواية ﴾